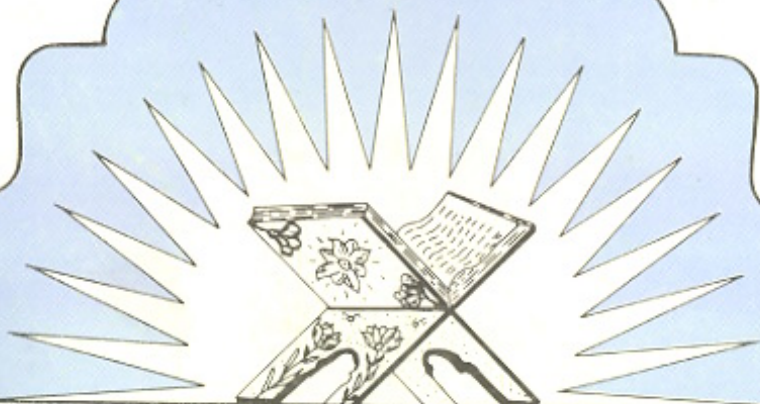


دَعْوَةُ الْحَقِّ



الْقُرْآنُ الْحَكِيمُ

كتاب أحكمت آياته
(٣)

تأليف
الأستاذ / أحمد محمد جمال

ذى القعدة ١٤٠٦ هـ
أغسطس ١٩٨٦ م

السنة الخامسة
العدد [٥٦]

القرآن

٢٥١٥٦



القرآن الحكيم

كتاب أحکمت آياته
(٣)

تأليف
الأستاذ / أحمد محمد جمال



مباحث الكتاب

الموضوع	الصفحة
□ المقدمة	٩
□ حول مفهوم الآية : ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول﴾ ..	١٠
□ حول مفهوم الآية : ﴿إنما يخشى الله	
من عباده العلماء﴾ ..	٢٢
□ حول مفهوم الآيتين : ﴿أفأنتم ما تمنون ؟	
أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾ ..	٣٠
□ حول مفهوم الآية : ﴿إن أول بيت	
وضع للناس للذي ببكة﴾ ..	٣٧
□ حول مفهوم الآية : ﴿لتركن طبقاً عن طبق﴾ ..	٥٠
□ حول مفهوم الآية : ﴿إن استطعتم أن	
تفقدوا من أقطار السموات والأرض﴾ ..	٥٦
□ حول مفهوم الآية : ﴿ولقد زينا السماء الدنيا	
بمصابيح ، وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ ..	٦٣

- حول مفهوم الآية : ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ
- ٧٠ إِيَّتَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾
- حول مفهوم الآية : ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ
- ٧٥ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾
- حول مفهوم الآية : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ
- ٨٠ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾
- حول مفهوم الآية : ﴿وَاللَّهُ فَضْلُ بَعْضِكُمْ
- ٨٦ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾
- حول مفهوم الآية : ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ٩١
- حول مفهوم الآية : ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ
- ٩٨ مِنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينِ﴾
- حول مفهوم الآيتين : ﴿عَلَى سِرِّ مَوْضُونَةٍ
- ١٠٣ مِنْكُنِ عَلَيْهِمَا مُتَقَابِلِينَ﴾
- حول مفهوم الآية : ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ؟﴾
- ١٠٧
- حول مفهوم الآية : ﴿إِنْ كَيْدُكُمْ عَظِيمٌ﴾ ١١١
- حول مفهوم الآية : ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَافُوسُ
- ١١٧ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾
- حول مفهوم الآية : ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ
- ١٢٤ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾

- حول المفهوم القرآني للإمداد بالملائكة ١٤٤
- نقد كتاب : الفن القصصي في القرآن -
- محمد أحمد خلف الله ١٥٩
- نقد كتاب : القرآن محاولة لفهم عصري -
- للدكتور مصطفى محمود ٢٢٠
- نقد كتاب : درة التنزيل وغرة التأويل -
- للخطيب الاسكافي ٢٥٧

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أحمد الله تبارك وتعالى على توفيقه إياي للاهتمام بدراسة القرآن الكريم ، وتتبع ما يكتب عنه وحوله من أبحاث ودراسات ، والتعقيب على المفهومات الخاطئة لبعض آياته المتضمنة أحكاماً ، أو أخباراً أو قصصاً أو اعتقاداً أو أخلاقاً .

وهذا هو الجزء الثالث من كتابي (القرآن : كتاب أحكت آياته) وقد سبق أن صدر الجزء الأول سنة ١٤٠٢هـ وصدر الجزء الثاني سنة ١٤٠٤هـ وهما يتضمنان الموضوع نفسه ، وهو كون القرآن كتاباً أحكت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير - أي أن القرآن الكريم ميسر للفهم المستقيم والتدبر الأمين ، دون أن نذهب بعيداً نحو التأويل الباطل ، وافتعال المفهومات الخاطئة ، وخاصة أن القرآن نفسه يفسر بعضه بعضاً .. فما نجدُه مجملاً في بعض آياته نجدُه مفصلاً في آيات أخرى .

ولا أريد أن أعيد ما ذكرته في مقدمتي الجزئين السابقين . والله الموفق والملمهم للصواب .

حول مفهوم الآية :

﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفر الله واستغفر لهم الرسول﴾

يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله ، واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾^(١) .

هذه الآية الكريمة - في رأى الشيخ جمال الدين عبدالسيد كاتب المقالات المتتالية في تفسير القرآن بمجلة الرابطة الاسلامية - التى تصدر بمصر- : هى من أدلة جواز التوسل ، بالنبي عليه الصلاة والسلام ، وهو يردُّ بها على القائلين بجرمة التوسل الذين يحتجون لرأيهم بالآية الأخرى :

﴿وإذا سألك عبادى عنى فى قريب ، أجب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾^(٢)

ويتساءل الشيخ : هل بنى هؤلاء حكمهم على العادة أو العقل أو النص ؟ ثم يجيب نفسه بأن العادة والعقل والنص جمعاء ليست من أنصار هؤلاء - فالعقل والعادة كما يقول يجيزان رفع المطالب -

(١) سورة النساء الآية ٦٤ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٦ .

والحاجات إلى ذوى المراتب العالية على يد من هو عندهم مقبول ووجيه ومبجل ، فلم يكن التوسل إلى ملك الملوك الا نوعاً بليغاً من تعظيم ذلك المقام ، وضرباً كريماً من المهابة والاجلال ، واعترافاً بأن السائل غير أهل للوقوف على بساط المشافهة لسيدته ومليكته ! أما النص ، كما يقول أيضاً «فغير موجود في الآية التى يستدل بها القائلون بجرمة الوسيلة إذ ليس فيها نهى عن نداء الغير ، بل إن نصوص الشريعة ، ودلالات العقل قائمة على التعاون بين الخلق ، فقد جرت سنة الله على ربط المسببات بالأسباب والنتائج بالمقدمات» !

ولا يستوى في رأيه دعاء المقرب ودعاء المُبْعَد ، إذ لا بد لأهل البعد والحُرمان من شفيع مق ول الدعوة ، كما أن نداء غير الله مثل يا رسول الله أدركنا .. ويا حسين راعنا .. لا ينتظم في سلك الاشراك !»

ويقول : كيف يكون كل دعاء عبادة وفي القرآن :

﴿أَدْعُوهُمْ لِأَسْمَائِهِمْ﴾ وفيه : ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ ؟

ويضيف : «فإن قالوا إن دعاء الأموات عبادة قلنا النداء لا يتغير مدلوله بتغير حالة المنادى ، فقد يكون قول المضطر يا رسول الله أو يا حسين عند الله أوجب للخير من قوله يا مأمور ويا شرطى» ويقول : «إن ابن الخطاب نادى الحجر حين قال له : إني لأعلم أنك لا تضر ولا تنفع ، ونادى نيل مصر حين كتب على الورقة التى

أمر ابن العاص عامله على مصر حينذاك بإلقائها فيه : إن كنت تجرى بأمر الله فأجر .. الخ» .

ثم يتساءل الشيخ كيف يكون نداء الموقى أنزل درجة وأقرب إلى الوثنية من نداء الحجر والنيل ؟!

ويختتم دفاعه عن التوسل بقوله : «من خَرَقَ هؤلاء وحمقهم تكفير من يكتب عرائض بأسماء الأولياء مع ما سمعت من كتاب أمير المؤمنين إلى نيل مصر ، فهل النيل حى سميع بصير؟ مع أن الموقى قد أخبر عنهم الرسول الصادق أنهم يسمعون ، وصحَّ سؤال الملكين لكل مقبور ، وصحَّ خطابهم وإلقاء التحية عليهم لما بهم من سمعٍ وقدره الخ الخ» .



ونحن نخالف الشيخ عبدالسيد فى كل ما ذهب إليه من فهم أو دليل أو قياس - وذلك من وجوه :

□ الوجه الأول : أنَّ آية ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ لا تعنى إجازة التوسل مطلقاً ، وإنما أجازته بالنبي عليه الصلاة والسلام وحده عندما كان حياً . وما يقوله القائلون عن توسل ابن الخطاب بالعباس عمه رضى الله عنه ، لم يكن بالأسلوب الذى يدافع عنه الشيخ عبدالسيد من دعاء المتوسل به نفسه ، وإنما كان بالأسلوب الذى توسَّل به ابن الخطاب ، حيث وجَّه الدعاء إلى الله تبارك وتعالى ثم قال : اللهم كُنَّا نتوسل إليك بنبيك محمد ﷺ ، ونتوسل إليك اليوم بعمه العباس الخ .

والآية قبل ذلك تقدم استغفار الله على التوسل برسوله فتقول :
﴿فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول﴾ ولم تقل : فاستغفروا
واستغفر الرسول لهم الله ، وفرق باثن بين هذا الأسلوب التوحيدى
وبين ما يدافع عنه الشيخ من دعاء الأولياء والوجهاء - الأموات
منهم والأحياء .

على أن للآية نفسها احتمالين آخرين ، أولها : أن يكون مجيء
الذين ظلموا أنفسهم إلى الرسول عليه الصلاة والسلام إنما هو
للتحاكم وأن يكون معنى ﴿ظلموا أنفسهم﴾ أى ظلم بعضهم
بعضاً بأكل الأموال وسلب الحقوق ، وتؤيد هذا الاحتمال الآية
التالية :

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في
أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾^(١)

□ وثانيهما : أن يكون المطلوب من المجيء والاستغفار هو اعتراف
المنافقين بين يدى الرسول عليه الصلاة والسلام بما اسلفوا إليه من
إيذاء فى نفسه وأهله وصحبه ، ثم التوبة أمامه والاستعانة به عليه
الصلاة والسلام على قبول الله لهم ، وذلك شىء غير التوسل ، فقد
تمنى عكاشة بن محصن يكون من أهل الجنة ، وسأل النبى أن
يدعوه بذلك ، فدعا له بها . وخرج ابن الخطاب مرة للاعتماد
فأوصاه عليه الصلاة والسلام بأن يدعو له - وهو من هو !! -
فقال له : «لا تنسنى من دعائك يا أخى» .

(١) سورة النساء الآية ٦٥ .

□ الوجه الثاني : أن الكتاب والسنة يفيضان بوجوب التوجه إلى الله تعالى بجميع أنواع العبادة مشاعرها ومظاهرها ، وآية ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ من أصرح الآيات في هذه السبيل . وماذا نطلب فيها أكثر من قوله تبارك وتعالى ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ وفيه تأكيد بأن الإجابة هينة بالدعاء فحسب ، لا بالتوسل ولا بالاستشفاع ؟ وقوله ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ فيه أمر باخلاص الاستجابة له والايان به ، وماذا بعد الاستجابة والايان به من حاجة إلى وسطاء ... أموات أو أحياء ؟

فَعَجَبٌ .. عَجَبٌ لا ينتهى أن ينق الشيخ عبد السيد النَّصِيَّة في القرآن على وجوب اخلاص الدعاء لله دون إتخاذ الوسطاء ، في حين أن القرآن - كما قلنا - يفيض بالنصوص ، وفي طليعتها آية : وإذا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ وآية ﴿وَقَالَ رَبِّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وآية ﴿ادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وتوجيه كثير من الأنبياء لأقوامهم بهذا التوجيه : ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ وما أَدَّب الله تبارك وتعالى به يوسف عليه السلام على قوله : ﴿لَلَّذِي ظَنُّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهَا أَذْكَرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ ، فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ، فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ .

ومع أن الملحوظ في المعاملات الإنسانية جواز الوساطة بين الكبراء أصحاب الحل والعقد .. والصغراء أصحاب الحاجات .. فإن تأديب سيدنا يوسف يكاد يكون حجةً حتى في منع هذه الوساطة الدنيوية ، لولا ما يقال من : «أن حسنات الأبرار سيئات

المقرئين» وان ما يطلب من الأنبياء قد لا يطلب من غيرهم ..
بالإضافة إلى ما جاء في القرآن الكريم من جواز الشفاعة الحسنة ومنع
الشفاعة السيئة :

﴿من يشفع شفاعاً حسنةً يكن له نصيب منها ، ومن يشفع شفاعاً
سيئةً يكن له كفلٌ منها﴾^(١)

وما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : (اشفعوا تؤجروا .. ويقضى الله
على لسان نبيه ما شاء)^(٢)

□ الوجه الثالث : لم يستقم للشيخ قياس استشفاع أصحاب
الحاجات بمن يدنى إليهم حاجاتهم الدنيوية المحسوسة عند أولى
الأمر .. بنداء الأنبياء والأولياء الذين انقطع عملهم في الدنيا ،
وصاروا إلى ما ليس لنا به علم يقيني .

ذلك أن الله قد قسم بيننا معيشتنا في الحياة الدنيا ، ورفع بعضنا
فوق بعض درجات ليتخذ بعضنا بعضاً سخرياً ، فنحن بخير ما
تفاضلنا - كما في حديث نبوي - أي أنه لا بد في هذه الحياة الدنيا ،
التي هي امتحان للإنسان ، من أمير ووزير ، وكبير وصغير ، وغنى
وفقر ، وعالم وجاهل ، وراع ورعية ، ومالك ومملوك .. وهم
أصناف يحتاج بعضها عن بعض ، والقرآن يؤيد ذلك ، حيث
يقول الله عز وجل :

(١) سورة النساء الآية ٨٥ .

(٢) رواه البخاري .

﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخرياً﴾^(١)
فليس غريباً ، بل ليس ممنوعاً - لا شرعاً ولا طبعاً - أن آتى أو تأتى إلى ابن عم الوزير أو جاره أو خليله ، لتتخذ وسيطاً في تيسير حاجة ، أو إنقاذ حق ، أو إنصاف مظلوم ، وذلك أولاً : لأن هذا هو طبع الحياة منذ بدايتها ، ولن يحول أو يزول ، وهو ضرب من استعمال الأسباب المسنونة ، وتبادل المنافع المشروعة بين الأحياء .
وثانياً : لأن شرع خالق الحياة أجاز هذه المعاملات الدنيوية على لسان نبيه ﷺ حيث قال : «من نفس عن أخيه كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة» وحيث قال ما معناه : «إن لله عبداً يفرع إليهم الناس في قضاء حوائجهم ، أولئك هم الآمنون من عذاب الله» وحيث حض على الشفاعة الحسنة ، كما أسلفنا في فقرة سابقة .

فأين مجازات طبع الحياة ومباحات شرع خالق الحياة من هذا الذى يدافع عنه الشيخ عبد السيد من نداء الأنبياء والأولياء الأموات .. للاستقضاء والاستشفاء ؟

إن الله تبارك وتعالى ليس كأصحاب المراتب العالية في الدنيا ، وهو قريب وسميع بصير ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وليس بيننا وبينه حاجب ولا كاتب ، وليس له من غرض في خلقه الا العدل بين جميعهم ، والرحمة بجميعهم ، والرزق لجميعهم ،

(١) سورة الزخرف الآية ٣٢ .

محسنهم ومسيئهم في ذلك سواء .
وأقول «مسيئهم» لأن الشيخ عبد السيد لا يسوّى المقرب
بالمُبْعَد في الوقوف للدعاء الله ، ويقول لا بدّ لهذا من وسيط ..
يتخذهُ إلى الله زلي ليضمن له الدعاء المحاب .

أفنى الشيخ ان الله تبارك وتعالى - كما في حديث نبوى - أفرح
بتوبة عبده من أحدا بضالته ؟ هذه واحدة ، أم نسى أن القرآن
الكريم يقول :

﴿وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات﴾^(١)
ولم يقل بوسيط ؟ وهذه الثانية .
وأنه يقول أيضاً :

﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة
الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾^(٢)
ولم يقل هنا بوسيط أيضاً مع أن هؤلاء الموعودين بالغفران
مسرفون فى الخطيئة ؟ وهذه الثالثة .
وان الله عز وجل يقول كذلك :

﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا﴾^(٣)
ولم يقل هنا بوسيط أو شفيع ، مع أن هؤلاء المدعوين إلى
التضرّع ، لم يسرفوا وحسب ، بل جاءهم عقاب إسرافهم ؟ وهذه
الرابعة .

(١) سورة الشورى الآية ٢٥ .

(٢) سورة الزمر الآية ٥٣ .

(٣) سورة الانعام الآية ٥٣ .

ألا تؤمن بعد هذه الحجج الأربع ، أن الله تعالى مستعد لسماع دعاء الداعين وتوبة التائبين بلا وسيط ؟ لأن المحسن والمسيء في مقام التوجه إلى الله بدعوة أو توبة وسماعه تبارك وتعالى منهما : سواء .. ذلك أنه قال للناس جميعاً : ﴿ادْعُونِي﴾ وقال لهم : ﴿توبوا إلى الله﴾ وقال : ﴿لا تقنطوا من رحمة الله﴾ وقال : ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ وقال : في الحديث القدسي - (هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من سائل فأعطيه) ولم يقل تبارك وتعالى لهم : إن دعاءكم لا يصل إليّ ، أو أن توبتكم لا أقبلها ، أو أن ذنوبكم لا أغفرها ، أو أن حاجاتكم لا أقضيها حتى تتخذوا الأنبياء والأولياء إليّ وسطاء ؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

□ الوجه الرابع : من البدائيه قول الشيخ كل دعاء عبادة ، ونحن معه في هذه البدييه ، ولسنا معه في احتجاجه للتوسل ودعاء الغير بآية : ﴿ادعوهم لأبائهم﴾ وآية : ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ .

فالفارق بائن - بحيث يجب الا نطيل - بين معنى الدعاء للتوسل الذي يدافع عنه الشيخ ، وبين معنى الدعاء الذي تعنيه الآيتان . فالدعاء فيها بمعنى الخطاب والتسمية والتهاتف والنداء كما يقول أحدنا يا عمرو أو يا زيد أفعل كذا أو أقض لي الحاجة الفلانية الخ .. ومعنى «دعاء الرسول» مناداته التي يجب أن تكون بأدب وإجلال .. لا كما يفعل الأعراب الأجلاف في ندائهم له ﷺ :

(يا محمد - يا محمد) وقد نزلت الآية تأديباً لهم ولأمثالهم .
 ومعنى ﴿أَدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ أى أنسبهم لآبائهم وقد نزلت
 الآية فى تحريم التبنّى .. حيث كان (زيد بن حارثة) رضى الله عنه
 يدعى (زيد بن محمد) فلما نزلت الآية دُعِيَ لِأَبِيهِ حَارِثَةَ .
 □ **الوجه الخامس :** أن النداء - خلافاً لرأى الشيخ عبد السيد -
 يتغيّر حكمه بتغير حالة المنادى ، فإن نداء الحى السميع البصير القدير
 لقضاء وطر ، أو إلتقاء خطر . ليس سواء ونداء الميت الذى انقطع
 عمله عن الدنيا لا يرفع فيها يداً ولا يمد قدماً ، ولا يفتح عيناً ، ولا
 يصغى أذناً ، وهو أضيق أملاً - من الحى الذى يدعو - فى النجاة
 بعد المات حيث لا ينقذه ندم ، ولا ينفعه متاب ، بينما الحى فى
 مندوحة من الندم والتوبة والنجاة .

وإذا كان النداءان - كما ترى - لا يتساويان فى مُكْنَةِ الإرسال
 والاستقبال ، فهما غير متساويين تَبَعِيّاً فى حكم المنع وحكم
 الجواز ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا
 دَعَاءَكُمْ ، وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ..﴾^(١) .

□ **الوجه السادس :** أن الشيخ عبد السيد يقارن بين الدعاء
 للتوسل ، وبين صرخة ابن الخطاب فى الحَجَرِ بأنه لا يضر ولا
 ينفع ، وتهديده لثيل مصر بقدره الله التى ستجره رغم أنفه ورغم
 آناف الخرافيين الذين كانوا يتقربون إليه بفتاة حسناء يلقونها فيه
 ليجرى ، ثم يتساءل كيف يكون نداء الموتى لقضاء الحاجات أنزل

(١) سورة فاطر الآية ١٤ .

درجةً من نداء عمر للنيل والجَر بالاستغناء والتهديد ؟
وهو سؤال لا يجاب عليه الا بفهم معنى نداء عمر الاستغنائى
التهديدى ، ومعنى نداء أصحاب القبور لجلب المأمول المحذور !
وهما معنيان مختلفان جداً ، ظاهرا الاختلاف جداً . ولكن
الشيخ يرى رأياً آخر فى هذا الاختلاف الظاهر ، فهو يعيد ما بدأ فى
موضع آخر حيث يقول : «من خَرَقَ هؤلاء تكفيرهم لمن يكتب
عرائض بأسماء الأولياء مع ما سمعت من ورقة عمر للنيل وخطابه
للحَجَر» !

ولا نحب أن نعيد ما بدأناه فى دحض هذا القياس العجيب ،
ويكفى أن نقول : أن الفرق بين كتابة عرائض بأسماء الأولياء .. وبين
كلام عمر للنيل والحجر هو الفرق عينه بين الحاجة والعناء .. بين
التوجُّه إلى الموقى من أنبياء وأولياء ، والتوجُّه إلى الله مباشرة ، وهو
فرق واضحٌ مبين ، يدل على العكس والنقيض ، بل هو الفرق
الفارق بين الشرك والتوحيد .

□ الوجه السابع : ليس فيما يقال من تلقى الأموات لتحيات
الأحياء ، وإمكان ردِّهم عليها : سبيل لإجازة دعائهم بالاستشفاء
والاستقضاء . ذلك أن الأموات - كما أسلفنا - أحوج منا نحن
الأحياء القادرين على التوبة والنجاة ، إلى دعائنا المستجاب ،
واستغفارنا المقبول .

ثم لا نجد قرينة معقولة ولا علاقة صحيحة ، بين مقام تحية
الموقى - كأدبٍ من آداب ديننا واعتقاد من اعتقاداته - وبين مقام
الايمان بقدرتهم على السفارة بيننا نحن الأحياء وبين الله ، لرغبة أو
رهبة .

وأخيراً ليقراً معنا الشيخ جمال عبدالسيد ماجاء في إنجيل متى (٦/٦) من بشارة عيسى عليه السلام بملكوت الله الذى هو الإسلام وكلام الملكوت الذى هو القرآن :

□ «إذهب إليه بمجرد نفسك فإنه لا يريد هذه الأشياء التى تهديها باسمه إلى من يستغفر لك ، إن إلهك ليس فى المعبد الفلانى أو المكان الفلانى أو العيد الفلانى أو اليوم الفلانى . إنه قريب فى كل مكان وكل زمان ، فاذكره وادعه بلسانك وقلبك فهو يسمعك ويقبل عرضتك .»

وبعد ، فغفر الله لى وللشيخ وهدانى وإياه إلى سواء السبيل^(١) .

(١) يذهب إلى تفسير الآية موضوعة البحث الدكتور أحمد جمال العمرى المذهب نفسه الذى ذهب اليه الشيخ عبد السيد فى مقال له بمجلة (القافلة) العدد الثالث الصادر فى ربيع الأول سنة ١٤٠٥ - نوفمبر ١٩٨٤ م .

حول مفهوم الآية :

﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾

في منتصف عام ١٣٧٤هـ ألقى الدكتور أمين الخولي في افتتاح الدورة التاسعة للمؤتمر الثقافي التابع لجامعة الدول العربية - في جدة - كلمة تحدث فيها عن العلم والعلماء ، وأورد هذه الآية القرآنية : ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ برفع لفظ الجلالة ونصب كلمة (العلماء) ^(١) فكتبت هذا الفصل يومئذ تعقياً عليه ، قلت :

إن قاعدة الدين الاسلامي الأولى هي : التوحيد ، وقاعدته الأخرى : التقوى ، والمسلم الحق هو الذي يؤمن بآله واحد ، يسلم وجهه إليه سبحانه بما يخاف وما يرجوه وفي الوقت نفسه يتقيه تبارك وتعالى فيما يأخذ من شئون الدنيا وما يدع ، ولن يكون الإسلام - في إجمال - أكثر من توحيد وتقوى .

ونحن حين نتدبر واقع العالم كله من أقصاه إلى أدناه ، وحين نأسى على ما أصابه من قلق واضطراب ، وحين نفزع لتداعى دوله القوية على دوله الصغيرة كما تداعى الأكلة إلى قصعتها .. لن نجد سبباً لفقدان السلام في عالمنا المحروب الا فقدان التقوى !!
إن عالمنا الحاضر قد أوتى من كنوز العلم وفنونه ما لم تفتتح

(١) يراجع الفصل الخاص بنقد كتاب : (الفن القصصى في القرآن) وعلاقة الدكتور الخولي به .

أبوابه ، وتيسر أسبابه لعالم قديم أو أقدم ، وما يكفل لناسه معيشةً رغداً ، وحياةً رُخاءً وتآخياً ووداً .. ولكنه استبدل بسعادة ما وجد من علم ، شقوة ما افتقد من تقوى ، فهو أبداً يستخدم هذا العلم للظلم ! والظلم - كما يصوره الاسلام - ظلمات ! من أجل ذلك يعيش العالم اليوم فى ظلمات بعضها فوق بعض ...

يقول القرآن الكريم : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾^(١)

نعم ، إن المفروض فى العلم انه مصدر التقوى والعمل الصالح ، فالجاهل بأمر لا يدرى ما يأخذ وما يدع ! ولكن العالم بأمر من الأمور ، أو فن من الفنون ، أو عمل من الأعمال ، يعرف كيف يورد ثم يصدر ، وأين يبدأ وأين ينتهى ، ومتى ينفع بعلمه ومتى يسيء ، ومن هنا كان مسئولاً عن علمه فيما استخدمه ، والمفروض عليه أن يستخدمه فى الخير .

إن هذه الآية الكريمة : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ ما أجدر أن يكتبها كل عالم فى لوحة لافتة يضعها نصب عينيه ، ليتذكّر عهد الله عليه أن يخشاه ويرعاه ، والا يكتّم ما أنزل الله من علوم وبيانات ، والا يبيع علمه بضمن بخس فى الدعاوى والفتاوى الباطلة ، وأن يجهر بالحق بين يدي ذوى الغنى والجاه ، وأولى الزعامة والرئاسة ، مهما مسّه فى ذلك من متاعب ومصاعب ، بل مهما كلفه ذلك نفسه ونفسيه^(٢) .

إن العلم أى علم لا قيمة له ، وإن العالم أى عالم لا فضل له ،

(١) سورة فاطر الآية ٢٨ .

(٢) تراجع محاضرة (مسئولية العلماء فى الاسلام) فى كتابنا (محاضرات فى الثقافة الاسلامية) الطبعة ٦/ص ٢٤٥ .

إلا إذا كان هنالك علم نافعٌ إلى جوار عملٍ صالحٍ ، ولا عذر لعالم غير عامل ، كما جاء في الحديث النبوى الشريف : (مهما أوتيت من كتاب الله ، فالعمل به لا عذر لأحدكم في تركه) .

ذلك جانب واحد يخص العلماء وحدهم في بحث مسألة علمهم ، حين يؤدون واجب الأمانة أو لا يؤدون . وهنالك الجانب الذى يعم المجتمع معهم ، فإن صلحوا صلح الناس ، وإن فسدوا فسد الناس ، كما هو توجيه مبدأ إسلامى حكيم^(١) ذلك أنهم في موضع القدرة ، مناط الثقة ، فإن لم يكن العالم عاملاً بعلمه ، فاضلاً في خلقه . ليس له بين الناس مقام توقير ، ولا لعلمه المعطل فضل تأثير !

ولئن كان تحوُّل العلم إلى جهل ، والحلم إلى سَفَه - فيما مضى من تأريخ البشرية - يقع قليلاً أو نادراً ، فهو في قرننا العشرين أكثر وقوعاً ، لأن القرن العشرين فترة من عمر الانسانية ، وان ازداد فيها تقدُّمها الصناعى والزراعى والعلمى المادى ، إلا أنها فترة تخلو من احترام المبادئ الروحية والاقتناع بتوجيهات الدين .



ولهذه الآية القرآنية موقف خطير مع أعداء الإسلام قديماً ، ومع الاستعمار الغربى حديثاً ، فلقد تتولت منهم بمعاونة ربايهم وصنائعهم في الشرق العربى ، بالتحريف الآثم !! فقرؤوها وطبعوها برفع كلمة «الله» ونصب كلمة «العلماء» ، أى أن الله هو الذى يخشى العلماء بمعنى يُجلُّهم ويُعظَّمهم .

(١) هناك القول المأثور عن بعض السلف : «صنفان من الناس .. إذا صلحا صلح الناس . وإذا فسدا فساد الناس : العلماء والامراء» .

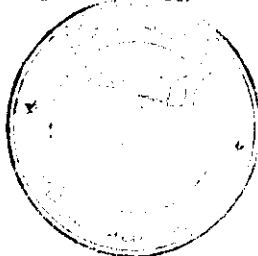
ولقد استعان الاستعمار الفرنسى فى بداية احتلاله لشمال إفريقيا بالخنونة من علماء تلك البلاد ، فى توجيه الناس إلى طاعة ولىّ الأمر وإن كان كافراً ! وفى سبيل التمكن هؤلاء العلماء الخنونة من التأثير فى رأى العام هناك ، أخرج المستعمرون الكفرة طبعة للقرآن الكريم ، وفيها تلك الآية بالقراءة المحرّفة ! بقصد الإيحاء إلى العوام وأنصاف المثقفين بأن الله - وحاشاه - يخشى العلماء فاسمعوا لهم وأطيعوا فيما يطبخون لكم من فتاوى ، وما يخترعون فى القرآن من فهم !!



نعود فنقول : إن القراءة التى يتمسك بها اليوم بعض العلماء لهذه الآية الكريمة : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ - برفع لفظ الجلالة ونصب كلمة العلماء - قراءة منكرة نقلاً وعقلاً . فأما النقل فجمهور العلماء والقراء على القراءة برفع العلماء - وهذا بعض ما قيل فى ذلك :

١ - قال ابن الجزرى فى كتابه : (النشر فى القراءات العشر) : (قال أبو العلاء الواسطى إن الخزاعى وضع كتاباً فى الحروف نسبته إلى أبى حنيفة ، فأخذت خط الدار قطنى وجماعة أن الكتاب موضوع لا أصل له .. وفيه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ - برفع الهاء ونصب الهمزة ، وقد راج ذلك على كثير من المفسرين ونسبها إليه ، وتكلف توجيهها ، وأن أباً حنيفة ليرى منها) !!

٢ - قال الامام الطبرى فى جامعه الكبير ، عند تفسيره لهذه الآية :



﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ .. أى إِنَّمَا يَخَافُ اللَّهُ ،
فيتقَى عقابه بطاعته ، العلماء بقدرته ، ثم روى عن ابن عباس
قوله : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ ، أى الذين
يعلمون أن الله على كل شىء قدير .

٣ - قال الامام الألوسى فى (روح المعانى) : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ
عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ .. تكملة لقوله :

﴿إِنَّمَا تَنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾^(١)
بتعيين من يخشاه عز وجل من الناس بعد الانتماء إلى شرف
الخشية وتقرير خشيته ، والمراد بالعلماء العالمون بالله عز وجل
وأفعاله الحميدة ، فدار الخشية العلم ، فكل من كان أعلم به
كان أحشى له . قال موسى عليه السلام : يا رب أنى عبادك
أخشى ؟ قال : أعلمهم بى .

٤ - قال الإمام الزمخشرى فى (الكشاف) : «العلماء به الذين
علموه بصفاته وعدله وتوحيده ، فعظموه وقدروه وخشوه حق
خشيته ، ومن إزداد به علماً إزداد منه خوفاً ، وعن
مسروق : كفى بالمرء علماً أن يخشى ، وعن الشعبي العالم من
خشى الله» ثم أورد الزمخشرى تلك القراءة المنكرة ، وعقب
عليها بأنها من قبيل الاستعارة ، أى أن الخشية بمعنى الإجلال
والتعظيم .

٥ - قال الامام الجوهرى فى كتابه (تفسير الجواهر) : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى
اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ - قال علماؤنا رحمهم الله إن من شرط

(١) سورة فاطر الآية ١٨ .

الخشية معرفة الخشى ، والعلم بصفاته وأفعاله ، فمن كان أعلم به كان أحشى منه) .

٦ - كذلك كان مذهب الإمامين ابن كثير والبغوى فى تفسيرهما ، ولم يرويا هذه القراءة المنكرة بتعليق ولا بدونه .



بقى بعد ذلك أن نذكر حكم العقل فى هذه القراءة المنكرة ؛ فلننظر إلى سياق هذه الآية فيما قبلها وفيما بعدها - يقول سبحانه :

□ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلَفًا أَلْوَانُهَا ، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلَفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودَ ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ الْأَنْعَامُ مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (١) .

لنتأمل حديث الله سبحانه إلى خلقه ، وفى مقدمتهم رسول الاسلام عليه الصلاة والسلام .. إنه سبحانه يقول لهم : ألم تروا إلى ما أنزلت من السماء من ماء ، أخرجت به ثمرات مختلفات الألوان بين أبيض وأحمر وأصفر؟ ألم تروا إلى ما خلقت من جبال تتخللها الطرائق والخطط البيض والحمر والسود شديدة السواد؟ ثم ألم تروا إلى ألوانكم أنتم أيها البشر بين أبيض وأحمر وأسود؟ .. أفليس ذلك من الآيات الدالة على قدرتى ، الموجبة لتوحيدي ، الموصلة إلى معرفتى والعلم بى وبالتالى إلى خشيتى والخوف منى؟ وإنما العلماء بى هم وحدهم الذين يخشوننى ..

إذن فالحديث هنا فى هذه الآية تعديداً لنعم الله ووصف

(١) سورة فاطر الآيات ٢٧ . ٢٨ .

لقدرته ، وبيان آياته فى الخليقة . وهو حديث الدعوة للبشر إلى معرفة هذه النعم والقدره والآيات الإلهية وإلى العلم بها ، وإلى تدبرها ، لتكون سبيلاً إلى الإيمان به سبحانه ، وإلى خشيته وتقواه ..

وليس الحديث هنا فى هذه الآية ذِكْراً لِفَضْلِ العلماء ، حتى تؤول هذه القراءة المنكرة على استعارة الخشية عن الإجلال والتعظيم لمقام العلماء ! فإن مقام الله هنا - خلال عرض هذه الآيات الكونية - أحق أن يُجَلَّ ويعظم ويُخشى .

هذه واحدة .. أما الثانية فقد ختمت الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ فكيف يصح فى الأذهان أن يقرّر القرآن الكريم - بزعمهم - خشية الله من العلماء ، ثم يردف وصف الله سبحانه بأنه عزيز ؟ والعزيز هو القوى الغالب الجدير بالإعزاز والإجلال ؟؟ ثم لماذا يخشى الله تبارك وتعالى العلماء ، بمعنى يُجَلِّهِمْ وَيُعْظِمُهُمْ ؟ كما زُيِّن لزاعم تلك القراءة المنكرة مع أنه سبحانه يَمُنُّ عليهم فى قرآنه الكريم بأنه هو الذى علّمهم البيان والحكمة ، وهداهم للإيمان ، بعد أن أخرجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً !!

وإذا كان الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم وهم أفضل وأعلم وأتقى من العلماء قطعاً ، لم يظفروا من كلام الله سبحانه بهذا المعنى من الخشية والإجلال والتعظيم ، فكيف يصح فى أذهان قراء القرآن أن يفهموا هذا المعنى المنكر المقتضى على عبير القرآن ، إدعاءً لكرامة العلماء ، ولو على حساب عظمة الله وعزته وجبروته ؟!

لقد قال الله سبحانه وتعالى عن نبيه عيسى وأمه مريم : ﴿ قل
 فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن
 في الأرض جميعاً ﴾ وقال لنبيه محمد وأمه : ﴿ تريدون عرض الدنيا
 والله يريد الآخرة ﴾ ثم قال : ﴿ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما
 أخذتم عذاب عظيم ﴾ والقرآن - بعد - ملئ بأمثال هذه الخطابات
 الإلهية التي تثبت أن الله سبحانه لم يحامل نبياً ولا رسولاً ، وما
 ينبغي له ، فهو صاحب الفضل عليهم ، اصطنعهم لنفسه ،
 واصطفاهم لهداية عباده .

وإذا كان ذلك كذلك في شأن الأنبياء ، فكيف به في شأن
 العلماء

وبعد .. فإن هذه القراءة المنكرة من دسائس أعداء الإسلام
 والقرآن ، وهنالك الكثير والكثير من أمثالها في كتب التفسير ، مما
 يناقض تعاليم الإسلام عقلاً ونقلاً ، ولكنها مع ذلك راجت بين
 معظم المفسرين القدامى على حسن نية ، ثم استغلها الكتّاب
 المعاصرون بنية سيئة .

حول مفهوم الآيتين :

﴿أفأنتم ما تمننون ؟ أنتم
تخلقونه أم نحن الخالقون﴾

في (بريد) مجلة الوعي الاسلامي ^(١) أجاب الأستاذ «عبد الحميد رياض» على سؤال لأحد قراء المجلة عن إمكانية تربية الأجنة في أرحام صناعية - بقوله : «إن تربية النطفة في الأرحام الصناعية ليست خلقاً حتى يشبه الأمر على القارئ السائل ، ونجاح هذه التجربة لا يزعزع العقيدة في أن الله وحده هو «الخالق» فالخلق هو أثر القدرة الإلهية في وضع سر الحياة في ماء الرجل ، فبذرة الحياة هذه هي خصوصية الخالق التي لا يمكن لبشر أن يوجدها ويخلقها . أما تربيتها في رحم صناعية وفق مواصفات طبية معينة ، فهذا لا يعدُّ خلقاً - قال الله تعالى :

﴿أفأنتم ما تمننون ؟ أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾ ؟ ^(٢) .
ونحن نقول للأستاذ «عبد الحميد رياض» ولئن سأله : إن تربية الأجنة في أرحام صناعية غير ممكنة دينياً وعلمياً أيضاً ..
أما عن الدين فبين أيدينا القرآن الكريم ، والحديث النبوي الصحيح يؤكد أن الله عز وجل هو الخالق وهو المصور ، وهو المربي للأجنة في الأرحام الطبيعية طوراً بعد طور ، وخلقاً من بعد خلق

(١) العدد ٩٦ / عام ١٣٩٢ هـ .

(٢) سورة الواقعة الآيات ٥٧ ، ٥٨ .

إلى أن ينفخ فيها الروح سر الحياة - حتى يكتمل نموها لحماً وعظماً وعصباً ، فتخرج من بطون أمهاتها خَلْقاً آخر .. فتبارك الله أحسن الخالقين - يقول الله عز وجل :

□ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فِخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ، ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ .. فتبارك الله أحسن الخالقين﴾^(١)

□ ﴿يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ .. فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾^(٢)

□ ﴿مَالِكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾^(٣)

□ ﴿هُوَ الَّذِي يَصُورُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾^(٤)

□ ﴿هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ .. فَمُسْتَقَرٍّ وَمُسْتَوْدَعٍ﴾^(٥)

□ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ نَظْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ، ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. لَنُبَيِّنَ لَكُمْ - وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ، ثُمَّ لَتَبْلَغُوا أَشَدَّكُمْ﴾^(٦)

(١) سورة المؤمنون الآيات ١٢-١٣-١٤ .

(٢) سورة الزمر الآية ٦ .

(٣) سورة نوح الآيات ١٣ . ١٤ .

(٤) سورة آل عمران الآية ٦ .

(٥) سورة الانعام الآية ٩٨ والمستقر والمستودع : الاصلاب والارحام .

(٦) سورة الحج الآية ٥ .

- ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه في قرار مكين ، إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون﴾^(١)
- ﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً ، فجعله نسباً وصهراً﴾^(٢)
- ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أتم أجنة في بطون أمهاتكم﴾^(٣)

فهذه الآيات المحكمات من القرآن الكريم تقرّر وتؤكد - بما لا يدع مجالاً للشك أو الاشتباه أو التأويل ان الله عز وجل هو المنفرد بالخلق والتصوير للأجنة في بطون امهاتها أو في الأرحام الطبيعية ، وبالاستمرار والتتابع في تربيتها وتنميتها خلقاً من بعد خلق ، وطوراً من بعد طور .

وهي - هذه الآيات المحكمات - تقرّر وتؤكد أيضاً أن الأرحام الطبيعية قد جعلت مستقراً للنطف ومستودعاً لها بعد اتحادها مع بويضات الأنثى ، حتى تتدرج في أطوار الخلق الإنساني إلى العلقة فالمضغة ، فتكوين العظام ثم اكتسائها باللحم الخ : (فستقر ومستودع) .

ثم هي تؤكد أن الله عز وجل جعل من خلق الإنسان على هذه الكيفية الطبيعية من استقرار النطف والبويضات في الأرحام سبباً لامتداد الأنساب وقيام الإصحار بين الناس ، فالنسب من جهة الأب ، والصهر من جهة الأم : (فجعله نسباً وصهراً) .

(١) سورة المرسلات الآيات ٢٠ - ٢٤ :

(٢) سورة الفرقان الآية ٥٤ .

(٣) سورة النجم الآية ٣٢ .

وإلى جانب ما تقدم تقرّر الآيات : رعاية الله للأجنّة وإحاطته
بإياها بالعلم واللفظ والتدبير ، وهى فى بطون أمهاتها ، وتصف
الرحم الطبعى بأنه قرار مكين .



وننتقل إلى ما جاء فى الحديث النبوى عن خلق الإنسان فى بطن
أمّه يقول ﷺ : (إن خلق أحدكم يكون فى بطن أمّه أربعين يوماً
نطفةً ، ثم يكون علقةً مثل ذلك ثم يكون مضغةً مثل ذلك ، ثم
يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب : رزقه وأجله وعمله
وشقى أم سعيد - ثم ينفخ فيه الروح) ^(١) .

وفى رواية أخرى : (إن الله قد وكل بالرحم ملكاً فيقول : أى
رب نطفة : أى رب علقه : أى رب مضغة : أى رب ذكر أم
أنثى ؟ شقى أم سعيد ؟ ما الرزق ؟ ما الأجل ؟ فيكتب كذلك فى
بطن أمّه) قال الإمام النووى : قال العلماء : «إن للملك ملازمةً
تامةً ، ومراعاة لحال النطفة ، فكل وقت يقول فيه ما صارت إليه
بإذن الله ، واتفق العلماء على أن نفخ الروح لا يكون الا بعد أربعة
أشهر» .

- وفيما يرويه البخارى عن سؤال أم سليم للنبي ز عن احتلام
المرأة وإن شبه الجنين بأمه يأتى من مائها ، وما يرويه ابن إسحاق
فى السيرة عن سؤال بعض اليهود له ﷺ فى المسألة ذاتها جاء قوله
للـيهود : (إن نطفة الرجل بيضاء غليظة ، ونطفة المرأة صفراء
وقيقة ، فأيتها علت صاحبها كان الشبّه لها) .

(١) رواه الشيخان .

□ قلت : فكيف تعلو إحداهما الأخرى في الرحم الصناعية حتى يكون الشبه لها بل كيف تتحد الخليتان الذكورية والأنثوية ، فتكون خلية واحدة وتعلق بالرحم الصناعية .. كما هو الحال في الرحم الطبيعية ؟



أما ما يقوله علماء الطب الحديث ، فقد آيدوا ما جاء في النظريات بل الحقائق الاسلامية عن مراحل تكوين الجنين ، وعن نفخ الروح فيه بعد (١٢٠) يوماً وعن شبه الجنين بالأب أو الأم نتيجة (لحاملات الوراثة) في النطفة والبويضة ..

ويقول الأطباء : إن دم الحيض في الرحم الإنسانية هو الذي يمد الجنين بالغذاء والتماء ، لأنه ينقطع أثناء الحمل - وإن صحة الجنين البدنية تعتمد اعتماداً كبيراً على حالة أمه الصحية ، كما أن مجرى الدم في الأم يتصل اتصالاً غير مباشر بمجرى دم الجنين داخل المشيمة^(١) .

أما علم وظائف الأعضاء فيقرر أن من وظائف (الطحال) المتعددة : صنع خلايا الدم الحمراء والبيضاء للجنين ، وبعد ولادة الطفل يتوقف عمله هذا ..

وفي دراسة علمية للطبيب المصري الدكتور (عبد الفتاح محمد طيرة) يتحدث عن الآية القرآنية : ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها : مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، وما لا يعلمون﴾^(٢)

(١) المجلة الطبية . (نداء الصحة) عدد فبراير ١٩٧٣ م .

(٢) سورة يسن الآية ٣٦ .

فيقول : إن الإنسان يتكون «أولاً» من الغذاء الذى تنبته الأرض «وثانياً» من الخلايا الجنسية المتقطعة من الذكر والأنثى و «ثالثاً» من الروح التى هى سر الحياة .. أى مما لا يعلمون .. ثم يتحدث الدكتور طيره عن نمو جسم الجنين فى بطن أمه - وتطور هذا النمو فى حجم (السمنة) بعد الأسبوع الأول من الحمل - إلى أن يصل وزنه فى الشهر التاسع إلى ثلاثة أو أربعة كيلوجرامات .. وقد أثبتت التجارب والملاحظات أن مصدر كل زيادة فى جسم الجنين هو الغذاء الذى ينقله الدم من أمعاء الأم إلى جسم الجنين .

وفى دراسة أخرى للدكتور طيرة - بمجلة الرسالة الاسلامية - حول قوله عز وجل ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ : نستطيع أن نقرر أن المواد التى يتكون منها جسم الانسان فى بطن أمه إنما تستخلص من ثلاثة أنواع من الماء الدافق : ١ - ماء الرجل يتدفق من الخصية ٢ - السائل المبيضى الذى يتدفق من مبيض المرأة ٣ - الدم الذى يشارك فى تكوين الجنين بالقسط الأكبر ، وهو يخرج دافقاً فى قذفات متتالية من قلب الأم إلى رحمها .

وبعبارة أخرى أوضح الدكتور طيرة : أن العلقه لا تلبث أن تكبر ويتضاعف حجمها آلاف المرات لتصبح وليداً .. آخذة المادة اللازمة لنموها من الدم الذى يتدفق من القلب إلى الرحم عبر مجموعة من الأوعية الدموية^(١) .

(١) الرسالة الاسلامية/ذوالحجة ١٣٩٣ .

□ قلت : فكيف يتوفّر هذا الغذاء - أو هذا النماء - للجنين في الأرحام الصناعية ؟

وأخيراً يقول الدكتور طيرة إن ثمة في تكوين الجنين صناعةً وتصويراً وخلقاً ، وكما أنه لا بد من وراء صناعة السيارة والساعة من صانع ماهر ، فكذلك من وراء الانسان وأمثاله من الكائنات الحية لا بدّ من خالقٍ .. مصوّرٍ .. قديرٍ .. حكيم .

وحول قوله تبارك وتعالى : ﴿وَمَا لَا يَعْلَمُونَ...﴾ يقول الدكتور طيرة ما خلاصته : إن الجسد المادى بدون هذا الذى لا نعلمه - وهو الروح التى هى سر الحياة - يعجز عن مقاومة عوامل الإيذاء والفناء . إنه بالروح أصبح التراب إنساناً ، وبدونه يصبح الإنسان تراباً ! وبالروح يدرك الجسد ما يضره وما ينفعه ، وبها يتقبل الغذاء ويستفيع به .. وبها ينمو ويتكاثر ، وبها يحب ويكره ، ويتأمل ويفكر ويضحك ويبكى ، ويتعلم ويعمل ، ويشقى ويسعد ، وصدق الله العظيم :

□ ﴿وسأولئك عن الروح قل الروح من أمرى ، وما أوتيتم من العلم الا قليلاً﴾ .

حول مفهوم الآية :

﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة﴾

نشرت مجلة «الحج»^(١) بحثاً قيماً للدكتور محمد محمد أبوشهبة تحت عنوان (قصة بناء البيت الحرام) - استوفى فيه الفقرة التالية : «روى في صحيح البخارى وغيره عن كتب الحديث المعتمدة ، وكتب السير والتفاسير قصة بناء البيت الحرام على يد الخليل إبراهيم وإبنة إسماعيل عليها الصلاة والسلام بما لا يدع مجالاً للشك ولا للتشكيك في هذا . وقد رويت روايات أخرى أغلبها موقوفة على بعض الصحابة والتابعين رواها أصحاب التواريخ كالأزرقي والفاكهى وبعض المفسرين بعضها يفيد أن أول من بنى البيت هم الملائكة ، وبعضها يقول : أو أول من بنى البيت آدم عليه السلام وقيل : إبنة شيث الخ) .

كما استرعى انتباهى الفقرة التالية التى عَقَّبَ بها الكاتب الفاضل على ما سبق : (ويعجبني - في هذا - ما قاله المفسر المؤرِّخ ابن كثير في بدايته : إنه لم يجيء في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام . ومن تمسك في هذا بقوله : «مكان

(١) شهر ربيع الآخر ١٣٨٨ هـ .

البيت» فليس بناهض ولا ظاهر لأن المراد مكانه المقدر في علم الله ،
المقرر في قدرته ، المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم إلى
زمان إبراهيم) ..

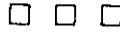
ذلك ما أورده الباحث العالم الجليل الدكتور أبو شهبة عن بناء
البيت الحرام ، وهذا ما عقب به من إعجابه برأى الإمام ابن كثير -
رحمه الله - في نقي القول ببناء الملائكة أو بناء آدم أو بناء ابنه
«شيث» للبيت ، قبل إبراهيم عليه السلام .

ونحن نرى أن ابن كثير في نفيه لبناء البيت الحرام قبل إبراهيم قد
اعتمد في رده على المحتجين في دعوى استقية البناء بقوله عز وجل :
﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ..﴾^(١) على أن هذا القول ليس
حجة ناهضة ولا ظاهرة ، لأن المراد - في نظره - هو مكان البيت
المقدر في علم الله ، وليس مكان البيت الموجود القائم فعلاً أو أثره
الباقى الذى يشير إليه أو يدلّ عليه .

ورأى ابن كثير هنا في الرد على المحتجين بهذا الجزء من الآية
القرآنية - صحيح ، فليس فيه حجة ظاهرة ولا ناهضة بسابق بناء
للبيت الحرام .

وان كنا نرى أن في قول ابن كثير : (المعظم عند الأنبياء
موضعه) بعد قوله : «المقدر في علم الله المقرر في قدرته - اعترافاً غير
مباشر من ابن كثير بوجود سابق للبيت قبل إبراهيم ، وإلا فكيف
يعظم الأنبياء من لدن آدم إلى زمان إبراهيم كما يقول ابن كثير - بيتاً
غير قائم ، أو غير موجود .

(١) سورة الحج الآية ٢٦ .



والأهم من ذلك أنه قد فات ابن كثير وفات المعجيين برأيه في نبي أسبقية بناء الكعبة قبل إبراهيم - أن هناك آية من القرآن الكريم .. واضحة صريحة لا تحتل الجدل ، ولا تقبل التأويل ، وهي تؤكد أسبقية بناء البيت قبل الخليل عليه السلام وهي قوله عز وجل حكاية عن إبراهيم نفسه :

□ ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم .. ربنا ليقيموا الصلاة...﴾^(١)

فقوله : (عند بيتك المحرم) لا تقبل التأويل الذى أوّل به ابن كثير آية : ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ..﴾ - فهى صريحة الدلالة قوية التأكيد .. على أن إبراهيم عليه السلام جاء بزوجه «هاجر» وولده «اسماعيل» ، وأسكنهما بهذا الوادى الجديب ، حيث لا زرع ولا زرع ، وإنما حيث بيت الله المحرم .. ولماذا جاء بهم ؟ ليقيموا الصلاة !!

ومن المعروف المسلم : أن إبراهيم عليه السلام يوم هاجر إلى مكة ، ويوم قدمها ، ويوم أنزل بها ذريته ، ودعا دعوته - التى أثبتها القرآن - لم يكن قد أمر ببناء البيت بعد ، ولم يُبَوَّأ له مكانه . وقد عاد إلى دياره الأولى من فوره ، وتبعته أم اسماعيل وهو منطلق عنها ، وهى تقول له : أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شئ ؟ تقول له ذلك مراراً ، وهو لا يلتفت إليها ، حتى قالت له : الله أمرك بهذا ؟ قال نعم قالت : إذن لا يضيعنا . ثم

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٧ .

رجعت ، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثانية حيث لا يرونه
استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات .. ورفع يديه .
هذا ما يرويه الامام البخارى - فى صحيحه - يسنده عن ابن
عباس رضى الله عنهما ، فى حديث طويل .. نلاحظ فيه عبارة :
(استقبل بوجهه البيت) أى البيت الحرام الذى ذكره فى دعواته
حين قال : ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ
بَيْتِكَ الْحَرَمِ .. رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ .



وفى قصة بناء البيت التى رواها الإمام البخارى رحمه الله -
وأوجزناها هنا - عبارات تؤكد وجود البيت الحرام أو آثاره على نحو
ما . فقد جاء فيها قول الراوى : «وكان البيت مرتفعاً من الأرض
كالرابية تأتية السيول فتأخذ من يمينه وشماله» .

وبعد سرده لأحداث القصة الطويلة .. من مجيء إبراهيم عليه
السلام مرتين إلى مكة ، وبحثه عن ابنه اسماعيل ولقائه فى المرة
الأولى بزوجه التى أمره بطلاقها ، ثم لقائه بزوجه الثانية فى المرة
التالية وأمره بالإبقاء عليها - بعد ذلك يذكر الراوى جِئْتُهُ الثالثة
ولقائه بابنه اسماعيل ، وإخباره إياه بأن الله أمره ببناء البيت ، وهنا
ترد عبارة أخرى وهى قوله : «وأشار - أى إبراهيم - إلى أكمة
مرتفعة على ما حولها .. فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت» .

وهكذا يثبت - فى نظرنا - بالقرآن الكريم والحديث الصحيح :
أن البيت كان موجوداً قبل إبراهيم على نحو ما .. وأن إبراهيم عليه
السلام إنما كان مجدداً لبنائه ، ومعيداً لكيانه ، وباعثاً للطواف

حواله . والصلاة فيه ..

.. وأن القول يتقضى (البناء) قبل إبراهيم إنما هو مجرد شبهة لا تعتمد على دليل يركن إليه من القرآن أو السنة أو التاريخ .



كان ذلك رأينا حول بناء البيت الحرام ، وقد نشرته مجلة (الحج) أيضاً ، فعقب عليه الدكتور أبوشهبة تعقيباً قاسياً يتهمنى فيه بأننى : (تكلفت فى تأويل ما ورد فى حديث البخارى .. وبأننى ركبت كل صعب فى تأويل الحديث الصحيح) ..

ولو أن الدكتور أبا شهبة قرأ تعقيبى عليه فى أناة وتدبر وفسحة من المراجعة والمذاكرة ، لتبين بعد ذلك أنى لم أتكلف تأويلاً ، ولم أركب صعباً ، وأنى إنما تمسكت بصريح القرآن ، وصحيح السنة . ولم ألقأ - كما فعل هو - إلى تأويلها مؤثراً عليها آراء بعض المفسرين القدامى والمحدثين ؟ .

ولنبداً مناقشة أخرى هادئة هادفة ، نتناول تعقيب الدكتور أبى شهبة فقرة فقرة ..

أولاً : يقول الدكتور : «وما قلته ، ولا زلت ، من أن القرآن ، الذى لا يتطرق إليه الشك ، والسنة الصحيحة فى صحيح البخارى وغيره من أن أول من بنى الكعبة البيت الحرام هو الخليل إبراهيم يعاونه ابنه اسماعيل الخ ..» .

فهذه القولة لم ترد فى بحث الدكتور الأول ، وهى مختلفة عن سابقتها التى عقت عليها ، فقد قال الدكتور فيما سبق من بحثه : «روى فى صحيح البخارى وغيره من كتب الحديث المعتمدة وكتب

السير والتفاسير قصة بناء البيت الحرام على يد الخليل إبراهيم الخ ..
والفرق واضح بين المقولتين ..

ففي الأولى السابقة يذكر الدكتور أبوشهبة صحيح البخارى
وغيره من كتب الحديث والسير والتفاسير مستنداً له في بناء البيت
الحرام على يد الخليل إبراهيم وإبنيه اسماعيل الخ - وفي الثانية - أى
التعقيب - يجزم بأن القرآن والسنة الصحيحة يقرران أن (أول) من
بنى الكعبة إبراهيم وإبنيه اسماعيل .. الخ .

ولو أن القرآن صريح بأن أول من بنى الكعبة إبراهيم ، أو أن
الحديث النبوى الصحيح جزم بذلك أيضاً ، لما بقى مجال للاختلاف
بين العلماء قديماً وحديثاً .

وأنا أسأل الدكتور أبا شهبة : أين الآية القرآنية أو الحديث
النبوى الصحيح عن أولية بناء الكعبة على يد إبراهيم بحيث تنتفى
أسبقية بنائه على أى نحو من الأنحاء قبله ثم أسأل الدكتور عن هذه
الآية القرآنية :

□ ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى
لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١)

هل الناس في هذه الآية هم الناس الموجودون في عهد إبراهيم
وما بعده : ولا (ناس) قبله ؟ وما الذى يقيد الناس في الآية بهذه
البعدية دون القبلية ؟ .

ثانياً : يقول الدكتور : «ولو أن الروايات التى ذكرها الأزرقى

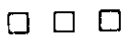
(١) سورة آل عمران الآية ٩٦ .

والفاكهى ومن وافقها صحيحة .. لتكلف كما تكلف الأستاذ أحمد فى تأويل ما ورد فى حديث البخارى الخ» .

وأنا لم أعتمد فى تعقيبى على روايات الأزرقى أو الفاكهى أو غيرهما ، سواء أكانت صحيحة أم غير صحيحة ، وبالتالى لم أتكلف تأويل حديث البخارى ، بل ذكرت بعضه بنصه كما ذكره الدكتور نفسه ، وإن كان الدكتور عاد فى تعقيقه فقال : إن بعض الأحاديث النبوية فيها تقديم وتأخير ، ليطلب الاستدلال بحديث البخارى فى كون إبراهيم عليه السلام دعاً أولاً بتلك الدعوات عندما أسكن ذريته فى مكان بجوار البيت فى قوله (عند بيتك المحرم) ثم عاد مرة ثانية ثم ثالثة لبنى البيت الخ

مع أن حديث البخارى الذى يروى قصة إبراهيم وهجرته مع زوجته هاجر وولده إسماعيل إلى مكة ، وتركه إياهما بها ، ثم عودته إليها بعد ذلك مرتين - لا يقبل تسلسله التاريخى احتمال التقديم والتأخير فى بعض أجزائه .

وقد أورده الدكتور نفسه فى بحثه الأول ، وعندما رأى أنه حجة عليه فى عدم إثبات أولية بناء إبراهيم للبيت قال إن فيه تقديماً وتأخيراً !



وأى تكلف فى عبارتى هذه عن حديث البخارى : «ومن المعروف المسلم أن إبراهيم عليه السلام يوم هاجر إلى مكة ويوم قدمها ، ويوم أنزل بها ذريته ، ودعا دعوته التى أثبتها القرآن - لم يكن قد أمر ببناء البيت بعد ، ولم يَبْوَأْ له مكانه . وقد عاد إلى دياره

الأولى من فوره ، وتبعته أم اسماعيل ، وهو منطلق عنها ، وهي تقول له : أين تذهب وتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شىء ؟ تقول له ذلك مراراً . وهو لا يلتفت إليها حتى قالت له : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم قالت : إذن لا يضيعنا - ثم رجعت ، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ، ورفع يديه « هذا ما يرويه البخارى - فى صحيحه - بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما .. نلاحظ فيه عبارة «استقبل بوجهه البيت» أى البيت الحرام الذى ذكره فى دعواته حين قال :

﴿ربنا إني أسكنت من ذرى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة﴾ .

هذه عبارتي عن حديث البخارى .. وقد تضمنت بعض نصوصه ، فهل فيها تكلف للتأويل ، وهل قلت فيها شيئاً من عندى ؟ أم النصوص صريحة فى قصة إبراهيم وحواره مع زوجته هاجر ، ثم دعائه بتلك الدعوات كما جاء فى نص الحديث - نفسه . وجاء فى النص أيضاً قوله : (واستقبل بوجهه البيت) وورد فيه كذلك قوله : «وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالراية تأتبه السيول فتأخذ من يمينه وشماله» ..

فأين تأويل ؟ وأين تكلفي ؟. إنها ألفاظ صريحة لا تحتاج إلى تأويل فضلاً عن تكلف فى التأويل !

ثالثاً : وفى حين يتهمنى الدكتور أبوشهبة بالتأويل والتكلف فيه .. لحديث البخارى ، وأنا براء منها - يرفض استدلالى بالآية

القرآنية الصريحة : (عند بيتك المحرم) ويرى هو أنها تقبل التأويل ..
فيقول : «إن التأويل فيها قريب ومحتمل يعنى عند مكان بيتك
المحرم» .

وأنا أعجب كل العجب أن يرى الدكتور أن هذه الآية قابلة
للتأويل على النحو الذى ذكره ، ثم أسأله : ما الذى يضطرنا إلى
التأويل - سواء فى القرآن أو السنة - إذا كان اللفظ صريحاً واضحاً
ولا يوجد نص آخر يخالفه - كآية (عند بيتك المحرم) ؟ .

فهل هناك آية قرآنية صريحة تقرر عدم وجود البيت قبل
إبراهيم ؟ أم هل هناك حديث نبوى صحيح ، من قول الرسول
ﷺ يقرر فيه صراحة بأن إبراهيم أول من بنى البيت ، وأنه لم يكن
هناك بيت قبل إبراهيم ؟ بالطبع ليس هناك آية قرآنية ، ولا حديث
نبوى يقرر أن هذه الدعوى . ومن ثم فلا ضرورة لتأويل (عند بيتك
المحرم) بمعنى (مكان بيتك المحرم) .

وقياس الدكتور هذا التأويل المردود بالحجاز الوارد فى قوله عز
وجل : (وأسأل القرية) - قياس مع الفارق البعيد .. فهنا لا بد من
الحجاز ، ولا بد من تقدير محذوف .. لأن القرية لا تسأل ولا تجيب .
فلا بد عندئذ من تقدير «أهل» للقرية .. وكذلك (العرى) فى نفس
الآية أى أهل العرى .. لأن العرى لا تسأل ولا تجيب !

ثم أعجب عجباً أعظم عندما يقول الدكتور بعد ذلك :
«والدليل إذا تطرّق إليه الاحتمال لم يعد نصّاً فى الاستدلال كما تقرر
ذلك فى علم الأصول الخ ، أى أن آية : ﴿عند بيتك المحرم﴾ لم
تعد نصّاً فى الاستدلال ، فى الوقت الذى يستدل فيه الدكتور بآراء

المفسرين القدامى والمحدثين كابن كثير ورشيد رضا ، على أولية بناء إبراهيم للبيت ! ومع أن حديث البخارى الصحيح بتسلسله التاريخي عن قصة هجرة إبراهيم وبنائه للبيت - يفسر الآية القرآنية ويؤيد مفهومها الواضح الصريح ! .

رابعاً : يقول الدكتور : «ولكن الأستاذ اقتناعاً منه بفكرة بناء الملائكة أو آدم للبيت قبل إبراهيم جعلته يركب الصعب في تأويل الحديث الصحيح .. الخ»

وأنا لم أقتنع بفكرة بناء الملائكة أو آدم للبيت .. وتعقيبى واضح صريح . وإنما أنا مقتنع بأسبقية بناء البيت قبل إبراهيم عليه السلام ، وكان دليلي في ذلك القرآن والسنة . وليس كتب التاريخ والتفسير كما حاول الدكتور أن يوهم القراء بذلك من كلامه عن الاسرائيليات ! وليس دليلي ، كذلك ما يراه ابن كثير أو رشيد رضا ، وغيرهما من المفسرين . فهما وسواهما يؤخذ منه ويرد عليه ..



أما ما ينقله الدكتور أبوشهبة عن الإمام على كرم الله وجهه من قوله : «القرآن حمّال ذو وجوه» فأرجّح أن العبارة المأثورة عن الإمام هي قوله : (ذلول ذو وجوه ، فاحملوه على أحسن وجوهه) وهي أصوب وأكرم لأن تكملتها التي لم ترد في رواية الدكتور هي الواجب المفروض على دارسى القرآن ومفسريه .. والا لو اكتفينا بالشطر الأول منها لكان معنى ذلك أن يخوض كل من هب ودب في تفسير القرآن على الوجه الذى يريده أو يفهمه . دون رجوع إلى المطلق والمقيد ، وإلى الناسخ والمنسوخ ، وإلى أسباب النزول ،

وإلى اعتبار المعنى المشترك بين بعض الألفاظ وإلى سياق الآيات
سياقاً ولحقاً الخ ..

أما قول الإمام (..) فاحملوه على أحسن وجهه) فهو قيد لا بدّ
منه لفهم القرآن على أفضل وجوهه وأصوب معانيه .. ومن هنا
نقول : ليس كل تأويل للقرآن مقبولاً ، وللتأويل شروط ومقامات
أشرنا إلى بعضها فيما سبق ، ونزيد هنا أن من الكلمات والآيات التي
تحتمل التأويل ما يحمل «معنى مشتركاً» كألفاظ «الايمان -
والاسلام - والنور - والظلمات - والارادة - والوحي - والهدى -
والقضاء .. وكثير غيرها» وكآية ﴿لَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ وآية ﴿وَصَلِّ
عَلَيْهِمْ إِنْ صَلَّاتُكَ سَكَنَ لَهُمْ﴾ وغيرها .. فهذه الكلمات والآيات
ذات وجوه ومعان متعددة ، وينبغي حملها على أحسن الوجوه ،
وابلغها وأليقها بمقام القرآن الكريم .



وقد قرأت - بعد كتابتي هذا التعقيب - «رسالة الحج» التي
أصدرتها حكومة الكويت في موسم الحج عام ١٣٨٨ هـ . ووجدت
في ص (١٢ و ١٣) منها رأياً للدكتور عبدالمعزم النمر خلاصته «أن
الانسان يحس من قول إبراهيم ﴿عند بيتك المحرم﴾ أن هنا مكاناً
مقدساً سماه بيت الله الحرام - وإن تقديسه سابق على عهده ، لا
مبتدأ من رفعه لقواعده ، لأنه حين ناجى ربه بهذا الكلام لم يكن
قد رفع قواعده» .. إلخ .. وكفيينا هذا تعصيذاً لوجهة نظرنا

وتأييداً^(١)

على أن القول : بأن أول من بنى الكعبة الملائكة أو آدم عليه السلام قد قاله الإمامان (القرطبي) و (إبن الجوزي) كما ذكر شيخ المفسرين الإمام أبو جعفر الطبري اختلاف أهل التأويل في القواعد التي رفعها إبراهيم وإسماعيل هل هما أحدثاها أم هي قواعد كانت له قبلها ؟ وبعد أن سرد الطبري الآراء المختلفة هذه قال رحمه الله : (وجائز أن يكون ذلك قواعد بيت أهبطه الله مع آدم فجعله مكان البيت الذي بمكة .. أو القبة التي ذكرها عطاء .. وجائز أن يكون آدم بناه ثم انهدم) .

كما أن إبن ظهيرة القرشي مؤلف كتاب (الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف) يروى عن جده قاضي القضاة وخطيب المسجد الحرام فخر الدين أبوبكر بن ظهيرة : أنه يحتمل أن يكون إبراهيم وسليمان عليهما السلام إنما جدّدا ما بناه غيرهما - أي المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، ويجوز أن تكون الملائكة بنته - أي المسجد الأقصى - بعد بنائها للبيت الحرام . الخ ..

ويقول المسعودي في كتابه (مروج الذهب) : «إن العرب كانت تحترم مكان البيت قبل بناء إبراهيم عليه السلام له ، وإن قوم عاد كانوا يعظمون موضع الكعبة وقد كان ريوه حمراء» .
فلذا يتحكم الدكتور أبوشهبة برأى إبن كثير وحده في القول

(١) ينبغي أن يلاحظ أن تعقبي على الدكتور أبي شهبة كان في جمادى الأولى سنة ١٣٨٨ ومقالة الدكتور الفير التي تؤيد وجهة نظري نشرت في ذي الحجة سنة ١٣٨٨ - أي بعد نصف سنة تقريباً .

بأن إبراهيم هو أول من بنى البيت ؟ ويخطيء الآراء المخالفة التي ترى
أنه مجدد البناء .. وهي صادرة عن أئمة أعلام ؟ .
على أن بجئي وتعقبي كانا حول أسبقية البناء فقط دون تحديد
بآدم أو الملائكة - استدلالاً بالقران الصريح والحديث الصحيح .

حول مفهوم الآية :

﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾

قلنا مراراً .. ونكرر القول هنا - إن القرآن هو كتاب «الاسلام» الأول ومنهاج المسلمين الأصيل : تشريعاً وتأديباً وتهذيباً ، وهداية إلى الله خالق الكون ، ومدبر الأمر في الأرض والسموات .
أجل .. القرآن الكريم هو كتاب الإسلام ، وحامل معجزاته الباهرة . من أنباء وقصص وغيوب غابرة وحاضرة وآتية .. بعضها تحقق فعلاً ، وبعضها يتحقق على مدار الزمن ، وتعاقب الأجيال . ولكن «القرآن» مع ذلك ليس كتاباً علمياً .. أى ليس نظريات علمية ، وليس من شأنه أن يكون كذلك .. فالنظريات العلمية تتناقض ، وتصدق اليوم ، أو هكذا يبدو أنها صادقة ، ثم تُكذَّب غداً .

وحاشا القرآن .. ما تناقض قط في أنبائه ، ولا في قصصه ، ولا في مبادئه التشريعية والخلقية .

ويخطئ بعض المثقفين من المسلمين حين يحاولون تطبيق بعض إشارات القرآن أو بعض لفتاته المعجزة ، على الاكتشافات أو النظريات الحديثة ، وهم يظنون أنهم يرفعون بذلك شأن القرآن ، بينما يُعرضونه بادعاءاتهم للتناقض ، والانتقاد والتعارض ، ويضعونه

دون موضعه من التقديس والتصديق .

والعجيب في أمر هؤلاء المتظاهرين بالفهم العميق لأسرار القرآن ، وأحكام الاسلام ، أنهم إذا قيل لهم : أخطأتم الفهم وتجاوزتم الحدود .. قالوا : كيف تزعمون أن الدين الإسلامى صالح لكل زمان ومكان ؟ إذا لم تطبّق آيات القرآن على النظريات والاكتشافات والانجازات العلمية والنفسية الحديثة ؟



لقد سألتنى أحد الطلاب يوماً ، عن رأى فيما قاله أحد مدرّسيه : من أن نبأ المراكب الفضائية جاء فى هذه الآية القرآنية : ﴿لَتَرَكُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ من سورة الانشقاق ؟ .

□ فقلت للطالب : بعد أن حمدت له بحثه وسؤاله عن وجه الحق فى هذه المسألة : إن القرآن يا أخى ليس كتاباً علمياً ، ولا هو فهرست لنظريات علمية . وإن كان القرآن قد أورد الكثير من الاشارات واللفقات والأصول والمبادئ العامة والثابتة .. عن طبائع الأشياء ، ومظاهر الكون ، وفطرة الانسان ، وعن الماضى والمستقبل .. باعتباره كلام خالق الانسان وصانع الكون ، والخبير العليم بالماضى أولاً ، وبالحاضر والمستقبل أبداً .

فالمبادئ والأصول فى العقيدة والشرعة القرآنيتين الاسلاميتين : صالحة وصادقة وناجحة فى كل زمان ومكان .. لأنها عامة شاملة تطلب الحق ، وتهدى إلى الخير وتقر العدل ، وتريد الجمال . وتسعى لتحقيق الكمال للانسانية . ولكن طبيعة الانسان تعجز عنه على كل حال .

والاشارات واللفتات - فى القرآن الكريم - عن الطبيعة :
 طبيعة الانسان وطبيعة الكون .. هى أيضاً صالحة صادقة ، تتأكد
 على مرّ الزمان ، وتعاقب الأجيال ، وتطوّر العقل البشرى فى
 إدراكه وكشفه عن مزيد من العلوم والفنون ... ولكن بدون
 تفصيل ، وبدون ترتيب وتعقيب ، وبدون فلسفات نظرية حتى لا
 يكون فيها تناقض أو تعارض .. وإنما التناقض والتعارض من
 صفات البشر ، وفى كلام البشر ، وقوانين البشر ..

﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾

وقبل أن أشرح للطالب معنى الآية الكريمة ، دللته على آية
 قرآنية أخرى .. فيها إشارة عامة إلى قدرة الله عز وجل ، التى لا
 تحدّها الحدود ، ولا تمسكها القيود ، وهى تنطبق على كافة
 اختراعات الانسان واكتشافاته على مدى الأجيال المتتابعة حاضراً
 ومستقبلاً ..

هذه الآية القرآنية .. هى قوله تبارك وتعالى : ﴿ويخلق ما لا
 تعلمون﴾ من سورة النحل - بعد أن تحدث سبحانه عن نعمة خلقه
 للخليل والبغال والحمير ، لركوب الإنسان عليها ، وحملها لأنقاله
 وحاجاته ولأسفاره وانتقالاته ، وجمالا وزينة ومتعة للإنسان حين
 يركبها ، وحين يقتنيها ، وحين ينظر إليها : ﴿والخليل والبغال والحمير
 لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون﴾^(١) .

(١) سورة النحل الآية ٧ .

ثم قلت للطالب عن الآية موضوعة البحث : ﴿لتركن طبقاً عن طبق﴾ إن سياق الآيات وبعدها يمنع تفسيرها بالمحاولات الحديثة لاكتشاف القمر ، وإرسال المراكب الفضائي : التي تحمل الحيوان أو الإنسان لتحقيق تلك المحاولات - ولنقرأ الآيات جملة واحدة ليتضح المعنى ، ويتحدد الموضوع :

□ ﴿فلا أقسم بالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق ، لتركن طبقاً عن طبق ، فلهم لا يؤمنون ؟ وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ؟﴾

إن الحديث هنا - في هذه الآيات - استنكار لشرك المشركين وكفر الكافرين ، مع بيان بعض آيات الله في الكون ، التي يرونها بأعينهم ، ويلمسون آثارها المادية بأنفسهم .. الأمر الذي ينبغى أن يكون حافزاً لهم على الإيمان .

فقد أقسم الله بالشفق والليل وما وسق - أى ما ضمّ وجمع تحت سواده وظلامه ، وبالقمر إذا اتسق - أى إذا اكتمل نوره وتم جلاله - أقسم سبحانه بهذه الآيات الكونية المحسوسة الملموسة لهم ، على أنهم والناس معهم جميعاً ينتقلون في خلقهم ، وفي حياتهم .. من دور إلى دور ، ومن طور إلى آخر .. فمن طفولة إلى فتوة ، إلى كهولة ، إلى هرم ، ثم من حياة إلى موت ، إلى بعث وحساب وجزاء :

﴿من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ ..

وقد كان المشركون - كما هو حال الملحدين اليوم - ينكرون البعث ، وبالتالي لا ينتظرون حساباً ولا جزاء .

ومن المعروف - في أصول تفسير القرآن - أن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، وفي سورة نوح آية تُفسر آية الانشقاق ، وهي قوله عز وجل : ﴿وقد خلقكم طواراً﴾^(١) وسياق هذه الآية وموضوعها يتشابهان مع تلك تماماً ، فقد سبقتها هذه الآية : ﴿مالكم لا ترجون لله وقاراً﴾؟^(٢) وآية الانشقاق لحقتها هذه الآية : ﴿فما لهم لا يؤمنون﴾؟ .

□ قلت للطالب : هذا يا أخى هو معنى آية ﴿لتركن طبقاً عن طبق﴾ وهذا موضوعها ، وذلك سياقها ، ولو صدّقنا زعم القائل بتطبيقها على المراكب الفضائية الحديثة لكان القرآن - وحاشاه - يطلب المشركين أو الناس جميعاً حين نزلت الآية أن يقتنعوا بدليل لم يروه أو يبرهان لم يعقلوه ، ليؤمنوا بالله العزيز الحميد وهو ما لم يتعده القرآن ، لأنه كتاب الحجة والبرهان ، والاعجاز والإفحام . لقد كانوا يكفرون بالله ، بالبعث بعد الموت .. وجاء ذلك واضحاً صريحاً في الآية السابقة على آيات القسم والمقسم عليه من السورة نفسها : ﴿إنه ظن أن لن يمحوه .. بلى إن ربه كان به بصيراً﴾ أى ظن الكافر أنه لن يرجع إلى ربه ، فجاء القسم بالآيات الظاهرة الباهرة التي يراها الكفار رأى العين ، ويلمسونها لمس اليد : على أنهم كما تطوّروا في خلقهم من طفولة إلى رجولة إلى شيخوخة ، فهم كذلك متطورون من حياة إلى موت ثم إلى نشور فحساب وجزاء ..

(١) سورة نوح الآية ١٤ .

(٢) سورة نوح الآية ١٣ .

وفى تفسير «الضلال» لشهيد الاسلام سيد قطب رحمه الله :
أن معنى ﴿لتركين طبقاً عن طبق﴾ أى لتعانون حالاً بعد حال ، وفق
ما هو مرسوم لكم من تقديرات وأحوال ، ويعبر عن المعاناة
بالركوب ، وهو تعبير عربى مألوف كقولهم : إن المضطر يركب
الصعب .. وكأن هذه الأحوال مطايا يركبها الناس واحدةً بعد
واحدة .. حتى تنتهى بهن عند غاية مقدرة مرسومة ، كتقدير أحوال
الشفق ، والليل وماوسق ، والقمر إذا اتسق - حتى تنتهى بهم إلى
لقاء ربهم ...» .

حول مفهوم الآية :

﴿إن استطعتم أن تنفذوا من
أقطار السموات والأرض...﴾

تردد على الألسنة في الإذاعات المرئية والمسموعة ، وفي الصحف والمجلات - قضية الوصول إلى القمر ، مرتبطة بآية من سورة الرحمن يُحْمَلُهَا المتحدثون ما لا تحمل من معنى ، ويقولونها ما لم تقل من رأى . ويزعم بعضهم أن كلمة «السلطان» في الآية تعنى سلطان العلم !

وهذه القضية شبيهة بالقضية الأولى ، وكلاهما في موضوع واحد : موضوع المراكب الفضائية والوصول إلى القمر . يقولون إن الآية القرآنية :

﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار
السموات والأرض ، فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان﴾

تبدو فيها إشارة صريحة إلى إمكانية نفاذ الانسان من أقطار الأرض ، وليس إلى القمر القريب منا والذي هو كويكب تابع لكوكب الأرض فحسب ، بل النفاذ إلى كواكب أخرى . ولنقرأ الآية موضوع البحث ، موصولة بما قبلها من آيات وبما بعدها كذلك حتى نتبين أن القائلين بعلاقتها بالوصول إلى القمر قد أبعدوا وأغربوا .

□ يقول عز وجل - في سورة الرحمن :

﴿كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، سنفرغ لكم أياها الثقلان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ، فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾^(١)

إن القرآن هنا فى هذا المقطع من سورة الرحمن يتحدث إلى الجن والإنس :

أولاً : عن أفراد الله تبارك وتعالى بالبقاء والخلود ، وأن الفناء مصير كل من على الأرض .. من إنسان وجان وحيوان وجماد .
ثانياً : إن الله عز وجل باعتباره الخالق الرازق والمحيى والمميت ، والمعطى المناع ، والمعز المذل .. يسأله جميع خلقه فى السموات والأرض قضاء حاجاتهم ، واستجابة مسائلهم .. الفقراء منهم يرجون غنىً ، والمرضى يأملون شفاءً ، والعقماء يطلبون ولداً ، والفارغون ينتظرون عملاً ، والمظلومون يلتمسون انصافاً فهو تبارك وتعالى من أجل دينونة خلقه لسلطانه ، وقيامه على تدبير شئونهم كل يوم هو فى شأن جديد : من رفع قوم ، ووضع آخرين ، وشفاء

(١) سورة الرحمن الآيات ٢٦ - ٣٦ .

مرضى ، وقبض موتى ، وإعزاز أذلاء ، ونصر أولياء ، وهزيمة أعداء .

وكما قلنا من قبل : إن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، فهذه الآية : ﴿كل يوم هو في شأن﴾ تفسرها وتؤكد لها آية أخرى من سورة آل عمران هي قوله عز وجل : ﴿وتلك الأيام نداؤها بين الناس﴾^(١)

ثالثاً : بعد تقرير القرآن في الآيتين السابقتين : انفراد الخالق بالبقاء ، وانفراده أيضاً بتصرف شئون الخلق - يقرر حقيقةً ثالثة ، وهي أنه عز وجل سيتفرغ يوم القيامة لحسابهم على ما قدموا من خير أو شر : ﴿يوم نمد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء﴾^(٢)

رابعاً : بعد هذه الحقائق الكونية الكبرى الثلاث يربط القرآن بها حقيقة رابعة .. تقتضيها تلك الحقائق وتستلزمها ولا يجوز أن تفصل عنها ، هذه الحقيقة الرابعة هي أن الله عز وجل الذي انفرد بالبقاء ، وكل خلقه إلى الفناء ، وانفرد بتصرف أمورهم ، وكلهم يسأله ويرجوه ، والذي سيفرغ يوم القيامة لحسابتهم ومجازاتهم - هو أيضاً المهيمن عليهم المحيط بهم ، حيث لا يستطيعون إفلتاً من سلطانه ، ولا هرباً من قهره ولا نفاذاً من أقطار السموات والأرض .

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٠ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٣٠ .

ولنلاحظ هنا قوله : ﴿من أقطار ..﴾ فهي الأطراف - أى لا يستطيع الخلق الهروب من أطرافها إلى خارجها^(١) . والقمر ليس خارجاً عن محيط السموات والأرض ، بل هو كوكب صغير تابع للأرض . فالوصول إليه ليس نفاذاً من أقطار السموات والأرض^(٢) .

وقد تكشف سر قوله تبارك وتعالى : ﴿يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنصران﴾ في عصرنا الحاضر أوضح وأبين من ذي قبل ، فقد أثبت علم الفلك الحديث أن النفاذ من أقطار الأرض معناه اختراق الكرة الأرضية عبر لبها المستعر ، والخروج من الجهة المقابلة ، وما من شك أن مجرد اختراق القشرة اليابسة للأرض معناه انطلاق مواد الباطن على هيئة بركان مدمر ، ومثله اختراق أقطار السماوات .. معناه عبور الشمس والنجوم وسائر ألوان الغبار الكوني ، وأحزمة الأشعة الكونية ومجاريها ، وهى أشد احتراقاً من براكين الأرض^(٣) .

مطلق المشيئة الإلهية :

أما قوله عز وجل بعد ذلك : ﴿لا تنفون الا بسلطان﴾ فهو تقرير لمطلق المشيئة الإلهية ، وقد تكرر مثل ذلك في آيات كثيرة كقوله تبارك لنبيه محمد ﷺ في سورة الاسراء : ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك﴾ وكقوله عز وجل : ﴿قل فمن يملك

(١) في الحديث النبوي الذي يرويه مسلم : «والأأسط عليهم عدواً من سوى أنفسهم .

فيستبيح بعضهم . ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ..» أى باطرافها يعنى «الأرض» .

(٢) لأنى العلاء في هذا المعنى قوله : .

(وهل يأتى الانسان من ملك ربه - فيخرج من أرض له وسما) ؟ .

(٣) الدكتور محمد جمال القندى في كتابه (القرآن وعلم الفلك) .

من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً^(١).

وتقرير القرآن لمطلق المشيئة الإلهية مهمٌ جداً لإفهام الناس أن الله تبارك وتعالى ، وإن كان هو الذى وضع للكون قوانينه وسننه ، وخلق في الإنسان طبائعه وغرائزه .. إلا أنه سبحانه ليس محكوماً ولا مقيداً بهذه القوانين والسنن ، فإنه قادرٌ على خرقها متى شاء وكيف أراد .

وفي القرآن نفسه : أمثلة على أن الله عز وجل لا يتقيد بما وضع من سنن وقوانين وطبائع للأشياء ، بل هو تبارك وتعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

□ فقد أبطل سبحانه قانون - النار - وهو الإحراق ، فكانت برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام حين ألقاه النمرود فيها .

□ وأبطل قانون النسل عن طريق الزوجين فخلق آدم عليه السلام من غير أبوين ، وخلق حواء من أب بلا أم ، وجاء المسيح عليه السلام من أم بلا أب .

□ وكذلك أبطل سبحانه قانون الماء - وهو الإغراق - فضرب البحر ليكون طريقاً ييسر لموسى ينجوه هو وقومه ، وينخدع فرعون وملؤه به فيتبعوا موسى فيغرقهم حيث يعود إليه قانونه .

□ ومن ذلك قوله عز وجل - في سورة (عبس) : ﴿ثم أماته فأقبره - ثم إذا شاء أنشره﴾ مع أن البعث بعد الموت أمرٌ مقررٌ وقضية أطلال القرآن في مجادلة الكافرين حولها مؤكداً لها ، ولكنه قال هنا : (إذا شاء) لتقرير المشيئة الإلهية المطلقة .

(١) سورة المائدة الآية ١٧ .

والحديث النبوي (لن يدخل أحد الجنة بعمله) قالوا ولا أنت يا رسول الله قال : ولا أنا الا أن يتغمنى الله برحمته ^(١) يؤكد ما اسلفناه من أن الإرادة الإلهية مطلقة لا يقيدتها شيء فحمد عليه الصلاة والسلام مع كونه خاتم الأنبياء وأفضل الرسل لم يحكم لنفسه بالجنة ، ولو أن سنة الله قد جرت بأن الأنبياء هم المصطفون الأخيار ، وأنهم في أعلى عليين .

وإذن يكون معنى قوله عز وجل : ﴿ لا تغفون الا بسلطان ﴾ أنه لو أراد تبارك وتعالى أن يجعل للجن والإنس مهراً من أقطار السماوات والأرض لفعل ، ولكنه قضى ألا يجعل لهم ذلك السلطان ، فقال في الآية التالية مباشرة : ﴿ يرسل عليهما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ﴾ .

ولقد كان الدكتور محمد جمال الفندى من القائلين بتطبيق هذه الآية على مسألة الوصول إلى القمر - في كتابه (لماذا أنا مؤمن) ولكنه رجع عن القول بذلك في مقال له نشرته مجلة الوعي الاسلامي ^(٢) - حيث قال : «يظن كثير من الناس خطأ وقد كنت منهم أن قول الله تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا - لا تغفون الا بسلطان .. ﴾ من دلائل انطلاق الإنسان إلى الفضاء ولكن الحقيقة عندما نفهم معنى (أقطار) تماماً نجد أن المعنى إشارة واضحة إلى التعجيز - ثم ذكر الدكتور الفندى من الموانع ما أشرنا إليه آنفاً ، ثم

(١) أخرجه البخاري .

(٢) عدد ذى الحجة سنة ١٣٩٢ هـ .

أضاف قوله : أما الوصول إلى القمر أو المريخ أو الزهرة فليس معناه النفاذ من أقطار السماوات والأرض بحالٍ من الأحوال .. وقد عرفنا امتداد الكون ، واتساع السماوات ، وأن أقطارها تربو وتزيد على عدة آلاف من الملايين والسنين الضوئية» آه .

وإذا رجعنا إلى أقوال بعض علماء السلف حول مفهوم هذه الآية نجد الإمام الطبري ينقل في تفسيره أقوالاً متعددة منها : أنكم إن استطعتم أن تجوزوا أطراف السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر عليكم فجوزوا ذلك ، فإنكم لا تجوزونها إلا بسلطان من ربكم .. وإن ذلك يقال لهم يوم القيامة ! وقال بعضهم معنى ذلك إن استطعتم أن تنفذوا فأنفذوا هاربين من الموت فهو مدركمكم ، ولا ينفعكم هربكم منه ، وقال آخرون : أى لا تخرجون من سلطاني - والسلطان في قول بعضهم البينة وفي قول آخرين الحجة .

وهكذا ينجلي واضحاً صريحاً أن الآية موضوعة البحث : بعيدة كل البعد عن مسألة الوصول إلى القمر وغير القمر أيضاً .

حول مفهوم الآية :

﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾

كتب الشيخ حامد محسن - عضو جماعة كبار العلماء بمصر - في مجلة الأزهر عام ١٣٦٨ بحثاً تحت عنوان «المجاز والكناية في القرآن» تصدّى فيه لهذه الآية من سورة الملك ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾^(١) منتقداً آراء سلف المفسرين القائلين بأن معنى ﴿رجوماً للشياطين﴾ هو كون النجوم - بجانب إزديان السماء بها واهتداء السابلة بعلاماتها - قذائف للشياطين .. مستترق السمع إلى أنباء السماء .

انتقد الشيخ محسن ذلك ، وقرّر جازماً أن معنى الرجوم في الآية هو أن النجوم حجج واضحة قوية على وجود الله ، وما يجب له من صفات الكمال ، فهي كتابة بارعة بالغة عن قوة الحجة ، وسطوع البرهان المُسكت للمجادل والمعااند . إنها حجج يرجم بها الكافرون الذين استحقوا لكفرهم أن يسموا شياطين !!
واعتل الشيخ محسن لنقد رأى المفسرين ، وتأييد رأيه بالعلل الآتية :

(١) سورة الملك الآية ٥ .

أولاً : أن في تصور محاولة الشياطين لاستراق السمع إلى أنباء السماء تهويناً لحرم الله واستهانةً بمكان تصرُّفه وتديبره .

ثانياً : إنه لا يُعقل أن يتساوى الله وخالقه في إجراء المشاورات والمحاورات قبل إصدار أمره بما يشاء ، حتى يكون هناك مجالٌ لاستراق الشياطين لما يجري ثمة من كلام !

ثالثاً : إن سورة الملك جميعها تهدف إلى غاية واحدة .. هي لفت الأنظار إلى بديع آيات الله وجميل صنعه ، ثم إن الآية السابقة للآية موضوعة البحث تقرر خلْق السماء من الفطور والشقوق التي تتيح للشياطين إستراق الأنباء !!

رابعاً : إنه لا يتصور أن يفهم فاهم أن النجوم التي جعلت زينة السماء وهداية في الأرض يمكن أن تكون قذائف للشياطين .. مستمعى أخبار الملائ الأعلى !!

خامساً : إن القرآن أنزل هدايةً للانس ، فكيف نتصور أن يكون فيه نذير على معصية يقترفها غيرنا من الجن أو الشياطين الذين لا نفهم كنهم !

سادساً : إنه لو صح أن نفهم أن معنى ﴿رَجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ قذائف لمسترقى السمع منهم لزم أن يكون ذلك منذ بداية خلق السماوات ، ليرافق العطف بالواو على تزيين السماء بالمصابيح . «إذ لا يعقل أن يكون التزيين منذ البداية والرجم عند بعثة النبي عليه الصلاة والسلام ويعطفان بالواو» .

هذه علل الشيخ محيسن فيما أدلى به من رأى نفسه ، وما نقضه من آراء غيره . وها هو القرآن الكريم نفسه يأق بنيان الشيخ من القواعد :

أولاً : ينقض القرآن غزل الشيخ في إنكاره لتسمّع الشياطين
أنباء السماء بهذه الآيات :

□ ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً ، وَزَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ ، وَحَفَظْنَاهَا
مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ، إِلَّا مِنْ اسْتَرَقَّ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ
مُبِينٌ﴾^(١)

□ ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ، وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ
شَيْطَانٍ مَارِدٍ ، لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ
جَانِبٍ ، دَحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ، إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ
شَهَابٌ ثاقِبٌ﴾^(٢)

□ ﴿هَلْ أَنْبِئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تُنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ؟ تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ
أَثِيمٍ ، يَلْقَوْنَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾^(٣)
□ ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً فَخَشْنَا فِيهَا شَيْطَاناً ، وَأَنَّا
كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ فَمَنْ يَبْجَدُ لَهُ شَهَاباً
رَصَداً﴾^(٤)

ويَتَأَيَّدُ حديث القرآن عن الجن والشياطين واستماعهم إلى أنباء
السماء ، بحديث النبي عليه الصلاة والسلام فيما روته عائشة رضي
الله عنها - قالت : سأل أناس النبي عليه الصلاة والسلام عن
الكهان ، فقال إنهم ليسوا بشيء ، فقالوا إنهم يحدثون أحياناً

(١) سورة الحجر الآيات ١٦ . ١٧ . ١٨ .

(٢) سورة الصافات الآيات ٦ - ١٠ .

(٣) سورة الشعراء الآيات ٢٢١ - ٢٢٣ .

(٤) سورة الجن الآيات ٨ . ٩ .

بالشيء يكون حقاً؟ فقال : (تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى ، فيقذفها فى أذن وليه فيخلطون فيها أكثر من مئة كذبة)^(١) وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما^(٢) أنه لما حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب المحرقة شكوا ذلك إلى إبليس ، فقال ما هذا الا من أمر قد حدث ، وبث جنوده ، فاذا بالنبي عليه الصلاة والسلام يصلى بين جبلى نخلة فى طريق الطائف ويأتيه وفد الجن كما قصّ قصتهم القرآن :

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ...﴾ إلى آخر القصة الواردة فى آيات الأحقاف (٢٩ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤) .

وأنا استغرب بل استنكر أن يكون عالم - كالشيخ محسن - عضواً فى جماعة كبار العلماء بالأزهر فى مصر .. لم يقرأ هذه الآيات القرآنية ويعرف هذه الأحاديث النبوية التى تثبت كون الكواكب أو النجوم رجوماً للشياطين !!

ثانياً : لم يزعم أحد من العلماء ، أو حتى الجهلاء والسفهاء من الناس أن الله تعالى كخلقه يشاور ويداور فى السماء .. حين يدبر أو يقدر ، فيكون بذلك سبيل إلى تسمع الشياطين إلى أخبار الملأ الأعلى ، كما يخاف الشيخ محسن أن يتصور ذلك . وإنما يذكر القرآن فى سورة سبأ ، والحديث النبوى فيما رواه البخارى والترمذى وابن ماجه وأبوداود «إن الله سبحانه إذا قضى الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاعاً لقوله تعالى كأنه سلسلة على

(١) رواه البخارى ومسلم وابن مردويه .

(٢) رواه أحمد والبيهقى .

صفوان : ﴿حتى إذا فُزِعَ على قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ، قالوا الحق ، وهو العلى الكبير﴾^(١) .

ثالثاً : إن ما لوحظ في سورة المُلْك من اتیان آیاتها كلها - كما تراءى للشيخ للتدبُّر والتفكُّر في خلق السماوات والأرض ، لا يمنع أن تكون النجوم رجوماً للشياطين ، فهي بهذا الوصف أبلغ في الدلالة على القدرة الإلهية العجيبة التي لا يعجزها أن تجعل من مادة واحدة - النجوم - مصابيح للطارقين ، وزينات للناظرين ، وشُهَباً تقذف بها وجوه الشياطين .. كما جعل الله سبحانه من الشجر الأخضر ناراً .. ومن الشمس سراجاً يضيء ولهباً يحرق ودفتاً ينضج النبات . ولكن الشيخ يستهول غير هائل ، ويتصور غير متصور ، ويستنبط غير مفهوم .

رابعاً : نعم : إن القرآن أنزل لهداية البشر ، ولكن هذا لا يمنع أن تكون فيه هداية للجن أيضاً ، بل هذا هو واقع آياته وسوره وقصصه التي تتحدث عن الملائكة وعن الجن وعن الشياطين أحاديث عَجَباً .. وكيف غرِب عن بال الشيخ محسن ما قصته سورة الجن وسورة الأحقاف عن وفود نفر من الجن على نبينا عليه الصلاة والسلام وإيمانهم بالقرآن ، وما قررته سورة الجن من أن منهم مسلمين وقاسطين ، وما قصته سورة سبأ وسورة النمل عن تسلط النبي سليمان عليه السلام على الجن والشياطين واستخدامه إياهم .. وكيف نسى الشيخ ما قصه القرآن عن آدم عليه السلام وإبليس والملائكة ، وعن قبيل إبليس وجنوده الذين أرسلوا فتنة للغواة ، وامتنحاناً للطائع والعاصي من الناس .

(١) سورة سبأ الآية ٢٣ .

وكيف غاب عن ذهن الشيخ أن القرآن تحدث إلينا عن خلق الجن والشياطين وأضاف السنة النبوية إلى ذلك أحاديث وأحاديث .. لعل الشيخ محسن لم ينس منها الحديث الذي يروى أن نبي الاسلام عليه الصلاة والسلام كان يتلو على أصحابه سورة الرحمن ، فعجب منهم أن يصمتوا عند ترتيله الآية المكررة منها ﴿بأى آلاء ربكما تكذبان﴾ وقال : أن الجن أحسن رداً منكم ، ما تلوتهما عليهم الا قالوا : «ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد» !

وأخيراً كيف يجهل آية الرحمن الموجهة إلى الثقلين ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فلتنفذوا .. لا تنفذون الا بسلطان﴾

وآية الانعام : ﴿وان الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، ولئن اطعمتموهم انكم لمشركون﴾

وهل يصح في الأذهان أن نقول على مذهب الشيخ - مالنا وللشياطين الذين يوحون إلى أوليائهم ؟! فنحن ناس والقرآن للناس ولا للجن ولا للشياطين !

خامساً : إن واو العطف لا تقتضى - كما توهم الشيخ - اتحاد زمن المعطوفات كما لا تقتضى ترتيبها الزماني ولا المكاني - وأقرب الأدلة وأظهر الأمثلة على ذلك يسعفنا بها القرآن نفسه : فهذه آية التمل : ﴿قالت رب إني ظلمت نفسي ، واسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ هل يستطيع الشيخ محسن أن يقول باتحاد زمن ظلم بلفيس لنفسها واسلامها مع سليمان ؟ أن معنى ذلك أنها ظلمت نفسها باسلامها مع سليمان لله رب العالمين ، وهو باطل مقالاً

وحالاً .. فهي تعنى ظلمها لنفسها عندما كانت ضالة كافرة ، ثم اسلامها مع سليمان أخيراً عندما تبينت صدق نبوته وحقيقة رسالته . وهذه آية ياسين ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ هل يستطيع الشيخ أن يقول أن عطف كتابة ما قدم الناس في حياتهم وما خلفوا من آثار بعد موتهم ، على بعثتهم يوم القيامة يفيد الترتيب الزمني أو الاتحاد الزمني ؟ ان ذلك مستحيل بلا جدال .. فكتابة آثار الموتى إنما كان في حياتهم ، ولحياؤهم إنما يأتي يوم القيامة !

ونعجب كثيراً كيف يقول الشيخ محسن إنه لا يعرف كنه الجن ، مع أن القرآن والحديث النبوي تحدثا عن هذا الكنه خلقاً وطبيعة وسلوكاً !

وإذن فقد علم الشيخ - منذ الآن على الأقل - أن واو العطف في آية الملك : ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ، وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾

لا تفيد اتحاد الزمن كما زعم ، وإن شاء تأكيداً فليرجع إلى القرآن مرة أخرى ليجد أنه قدم مرة ذكر خلق السماء على الأرض ، وبالعكس ، وكذلك الجن والإنس ، والحياة والموت ، والأولى والآخرة . لقد وردت كل هذه الأشياء في القرآن معطوفة بالواو دون أن تفيد ترتيباً في الزمان أو المكان .

ونزيد الشيخ علماً .. أن المقصود يكون النجوم رجوماً للشياطين ، ان تنفصل منها شهبٌ ، أى قطع من الشواظ تُلْهَبُ بها وجوههم وظهورهم ، فيموت منهم فريق ويحيا ممسوخاً فريق .

حول مفهوم الآية :

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ إِيْتِيَا طَوْعاً أَوْ
كَرْهاً قَالَتَا : أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾

في جريدة (الهدى) التي تصدر في بغداد فصول متتالية باسم :
(القرآن ونموذج من تفسيري) لفضيلة الأستاذ رشيد الخطيب . ومن
واجبي - وقد انتفعت بأكثر ما جاء في هذه الفصول من صحة
إدراك الكاتب الفاضل لبلاغة أساليب القرآن واعجاز معانيه - أن
أقدم لفضيلته إعجابي وإجلالي وأسأله المزيد ...

وقد عرضت لي وأنا أطلع تلك الفصول ملاحظاً أحببت أن
أبسّطها هنا جدالاً بالتي هي أحسن للكاتب الفاضل أولاً ، وثانياً
لاستنباط آراء القراء العلماء في تأييده أو تأييدي .

قال فضيلته : (من أساليب حكاية التكوين ، وهو عبارة عن
بيان الواقع في صفة الشيء كقوله تعالى : ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ إِيْتِيَا
طَوْعاً أَوْ كَرْهاً .. قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ فقد قالوا ليس هناك أمر بالقول
على الحقيقة ولا جواب ، ولكن الكلام على التمثيل يبين سهولة
ذلك عليه تعالى .

ونحن نعلم أن تفسير قصص القرآن بالتمثيل .. مذهب اعتزالي
قديم !

ونعلم كذلك أن بعض المدرسين في جامعة القاهرة يذهبون هذا المذهب إما تقليداً للاعتزالية الحائدة ، أو تأثراً بالخيالية الفنية في الأدب الأوروبي الحديث ، فهم يقولون : (إن القصص القرآني لم يراع الحقيقة التاريخية ، وإن المقصود منه غرض فني ، فلسنا ملزمين بتصديق حقائق هذه القصص)^(١)

ومع ذلك نستطيع أن نقول بجواز أن يكون الأمر والاثمار في الآية السابقة تمثيليين ، ولكننا لا نجزم به ، لأن الجزم به ضرب من الرجم بالغيب ، وهو كذلك ضرب من الرب في قدرة الله القادرة على الأمر قولاً ، وانطاق الأرض والسموات بالاثمار قولاً كذلك ، ومعاذ الجلال في مقام الكبير المتعال أن نرجم بالغيب أو نقول بالرب^(٢) .

ولكن ليس بالجائز ولا شبيهاً بالجائز أن نقول بالتمثيل في حكاية مكالمة الله تعالى للملائكة في شأن آدم وخلقهم واسجادهم له ، وامتناع إبليس عن السجود معهم ، ومكافأة الله تعالى له بطرده ، وطلبه الإنظار إلى يوم القيامة الخ . وهذا ما ذهب إليه الأستاذ الخطيب في بعض فصوله ، ونريد أن نجادله فيه :
أولاً : بان البلاغة وهي الإمتاع والإقناع بتعريف إجمالي شامل

(١) راجع نقدنا لأمين الخلولي وتلميذه محمد أحمد خلف الله في هذا الكتاب .

(٢) يرى الأستاذ سيد قطب - في تفسير (الظلال) أن أفعال الله تبارك وتعالى كاسمائه : «ليس كمثله شيء» وهو السميع البصير» فكل ما يحكيه القرآن عن خلق السماوات والأرض ومخاطبتها وردّها . وكذلك ما حكاه عن أخذ الميثاق من ذرية آدم وأشهادهم على أنفسهم : جائز وممكن وداحل في قدرة الله . وينبغي التسليم به دون تاويل أو إدعاء تمثيل - وهذا هو مذهب سلف الامة من أهل السنة .

لها حدود ومقامات ، والتمثيل وهو أحد أساليبها ، أخلق بالتزام الحد والمقام ، فليست كل قصة تمثيلاً ، وليس التمثيل خليقاً بكل قصة . ولو ذهبنا مذهب التمثيل في تفسير قصص الكتاب والسنة لكان الاسلام - طيعةً وشرعةً - دين الخيال ، لا دين الحقيقة ، ودين التمثيل لا دين التسجيل ، ومعاذ الحق والصدق والإيمان بالغيب ، والفطرة الطاهرة في هذا الدين الأهدى : أن نقول بالخيال فيه .. ثم إن تأويل قصص القرآن على أنه من قبيل التمثيل معناه أن يكون حمل هذا القصص على معناه الظاهر غير ميسور .

وقصة آدم وإبليس والملائكة لا نجد دليلاً شرعياً أو برهاناً عقلياً يصرف ألفاظها عن حقائقها إلى مجازات التمثيل ..

ثانياً : إن قصة الأرض والسموات ليست كقصة مكالمة آدم والملائكة وإبليس من حيث جواز التمثيل عليها ، فتلك قصة ليس فيها أكثر من أمر واثار وهما من مقامات التمثيل وحدوده ، ولا كذلك قصة آدم والملائكة وإبليس لاشتغالها مواقف كثيرة لا يجوز عليها التمثيل :

□ الموقف الأول : إيدان الله تعالى للملائكة بإقامة خليفة في الأرض ، وعجب الملائكة من جعل هذا الخليفة الذي ستفسد - بزعمهم - ذريته في الأرض وتسفك الدماء كما أفسدت الجن من قبل ، وسفكت الدماء . ورد الله تعالى عليهم بأن له في ذلك حكمة لا يعلمونها ، وسيعلمونها .

□ الموقف الثاني : تعليمه تعالى أسماء المخلوقات لآدم : وعرض المخلوقات على الملائكة واستنبأهم عن اسمائها . واعتراف الملائكة بالعجز عن الإنباء ، وجعل الأستاذية لآدم عليهم في تعليمهم أسماء

المخلوقات .. اثباتاً لفضله عليهم .. وهم الذين عارضوا في استخلافه على الأرض .

□ الموقف الثالث : أمره تعالى لهم بالسجود له ، واثمارهم بذلك عدا إبليس ، وسؤاله تعالى لإبليس : ﴿مأمنك أن تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالين﴾ ؟ وليلاحظ ما فيه من تقريع لإبليس على امتناعه عن السجود لما خلق الله بنفسه وجعله خليفته بحكمته ، مما يمنع معه أن يكون السؤال تمثيلاً وخيلاً ، ورد إبليس بأنه أكبر - بزعمه - من أن يسجد لبشرٍ خلق من صلصالٍ من حمأٍ مسنون .

□ الموقف الرابع : قوله تعالى له : ﴿فاهبط منها لما يكون لك أن تكبرَ فيها فأخرج إنك من الصاغرين﴾ وطلب إبليس إنظاره إلى يوم القيامة ، وإنظار الله تعالى له إتماماً لتنفيذ حكمته في خلقه .. □ الموقف الخامس : رد إبليس على الله تعالى بأنه سيحتك ذرية آدم ، ويُعوِّدهم الا عباد الله المخلصين ، ورد الله تعالى على إبليس بأن عباد له ليس له عليهم سلطان ، وأنه هو وكيلهم سيكفيهم إياه .. وتأكد الله تعالى لحكمة إنظاره بقوله : ﴿واستفز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم .. وما يعهدهم الشيطان الا غروراً﴾ . فكيف نفهم هذه المواقف العملية في قصة آدم والملائكة وإبليس ؟ إذا ذهبنا في تفسيرها مذهب الخيال والتمثيل ؟ .

□ □ □

على أننا لا ندرى للأستاذ الخطيب - ولا لابن كثير الذي يروى عنه بعض ما قال به - حجة ولو ضعيفة على ادعاء إن هذا الجدل

الإيليسى تمثيل أريد به بيان الواقع فى طبيعة الإنسان وطبيعة الشيطان .

وهو إدعاء كان يجب أن يعتمد أول ما يعتمد على دليل قطعى لأن موضوعه من أفراد العقيدة الاسلامية التى لا يدركها العقل والاجتهاد .

ومن أين لابن كثير ومن ذهب مذهبه من القدامى والمحدثين الدليل القطعى على أن الله لم يجادل إبليس بالقول ، ولم يجادله إبليس بالقول كذلك ؟

وكيف يدعون الخيال والتمثيل على مواقف إلهية عقائدية لا تغنى فيها الظنون ؟ ألا عفا الله عن علمائنا الأولين لأنهم خاضوا فى غير مخاض .

وعفا عنهم المرة الثانية لأنهم صدقوا بالإسرائيليات وهى أمراض وأغراض ، وعفا عنهم للمرة الثالثة ، كثيراً قالوا ما لا يقال ، وقلما قالوا ما يجب أن يقال .

وعفا عنهم للمرة الرابعة لأنهم أوسعوا المجال للمستشرقين - وللمستغربين منا أيضاً - لأن يسيثوا الظن بكتابنا وألبابنا .

حول مفهوم الآية :

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ...﴾

يرى الزميل الفاضل الأستاذ محمد عبدالغنى القاسمى : أن العلم الحديث بما عرّفنا عن كيفية تكوين المَطَر ونزوله قد جعلنا نستطيع أن نحكم بحصوله بمجرد ما نرى الرياح فى جو السماء ، وأن الله عز وجل عندما قال : ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾^(١) لا يعنى إنفراده بعلم نزول الغيث فنحن نعلمه أيضاً^(٢)

قلت : أن نتظر نزول المطر بعد بدوّ علامته من احتجاب الشمس ، وانتشار السحب ، وهبوب الرياح فهذا ممكن وصحيح ، أما أن نحكم جازمين بنزول المطر فعلاً بعد ظهور تلك العلام ، وحدوث هذه المقدمات ، فغير صحيح وغير لائق بالمؤمنين الذين يعتقدون أن الله سبحانه وحده هو المُفَعِّل لما يريد ، وأنه تبارك وتعالى غير محكوم لما وضع هو من سنن كونية أو قوانين طبيعية .

(١) سورة لقمان الآية ٣٤ .

(٢) الأستاذ القاسمى مدرس فى كلية الشريعة بجامعة أم القرى بمكة المكرمة وقد نشر مقاله هذا بمجلة (الحج) المكية . التى تحوّل اسمها إلى «التضامن الاسلامى» .

والقرآن نفسه ، وإن كان يقول في آية من سورة الروم : ﴿الله الذى يرسل الرياح ، فتثير سحابا ، فيسقطه فى السماء كيف يشاء ، ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله ، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾ ويكرر هذا المعنى فى آيات أخرى .. إلا أنه يقيد نزوله بمشيئة الله على من يشاء من عباده ، ويكرر هذا «القيد» فى آية أخرى من سورة النور وهى قوله عز وجل : ﴿فَيَصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ﴾ .

بل يؤكد القرآن : أن هذه العلامات والمقدمات وإن كان الله تبارك وتعالى قد جعلها أساساً لبشريات نزول المطر إلا أنها ليست حاسمة أو جازمة فى نزوله ، وذلك فى مثل قوله - فى سورة الروم أيضاً - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يَرْسِلُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ أى تخويفاً من عذابه ، وتطميناً فى رحمته .

ثم يقص القرآن علينا ما حدث لعاد ، حين نظروا فى السماء فرأوا فيها علامم المطر : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرُنَا﴾ ^(١) فردَّ الله عليهم استبشارهم ، وأذهب ابتهاجهم (بل هو ما استعجلتم به : ربحٌ فيها عذاب أليم) .

وفى مسند الإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها : أن النبى ﷺ كان إذا رأى غيماً أو ريحاً رؤيت الكراهية فى وجهه ، وقد سأله فى ذلك فأجابها : ما يؤمئنى أن تكون عذاباً وقد عذب قوم بالريح .. «يعنى قوم عاد كما ذكرنا آنفاً» .

وفى حديث : «مفاتيح الغيب خمس ..» الذى يرويه الإمام

(١) سورة الاحقاف/ ٢٤ .

البخارى ، وسنذكره كاملاً فيما بعد - قوله ﷺ : «وما يدرى أحد متى يجيء المطر» .

ولذلك أدبنا الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام : بأن نستقبل علائم المطر ومقدماته بهذا الدعاء المأثور : اللهم سقياً رحمة ، لا سقياً عذاب ولا هدم ولا غرق» أدبنا الرسول ﷺ بهذا الأدب الرباني لتعودنا على اليقين الثابت بأن الله وحده هو الفعال لما يريد ، وأنا مهما أوتينا من علم اكتشافي أو اختراعى ، فما تزال البشرية كلها وما يزال الكون كله خاضعين لإرادته المطلقة من كل قيد ، ومن كل شرط ، ومن كل قانون - وصدق الله العظيم إذ يقول :

□ ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَىْ أَرْضٍ تَمُوتُ . إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١) .

العلم بنوع الجنين :

ويرى الزميل الفاضل أيضاً : أن العلم الحديث استطاع أن يكشف ما في رحم الأنثى الحامل - أهو ذكر أم أنثى - قلت : إن زعم هذا الاكتشاف غير مسلم به ، والأشعة السينية وإن استطاعت اختراق جدار البطن لتكشف ما وراءه ، فهي لم تستطع بعد أن تخترق جدار الرحم ثم سياج المشيمة التي تلف الجنين في طياتها ، حتى تتبين نوع الجنين أذكر هو أم أنثى .
وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ

(١) سورة لقمان/ ٣٤ .

خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ﴿ وفي تفسير القرطبي : أن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « كل شيء أوتى نبيكم غير خمس » ^(١) وعن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال : هذه الخمس لا يعلمها الا الله تعالى ، ولا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل فن ادعى أنه يعلم شيئاً منها فقد كفر بالقرآن .

الحديث عن المستقبل :

ويرى الأستاذ القاسمي أيضاً أن قوله تعالى : ﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ﴾ خاص بما كان من كسب النفس ، وليست كل أحداث المستقبل مما خصَّ الله به نفسه ، بدليل أن الرسول ﷺ قد حدثنا عن بعضها كما جاء في حديث الفتن ، كما أن الفلكي الآن يستطيع أن يحدد زمن الخسوف والكسوف قبل وقوعها ، وبدليل الحوادث الكيميائية التي نجبرنا المهندس الكيميائي عن وقوعها قبل إجراء التجربة ..

قلت : إن الآية لا علاقة لها بما يحدث في التركيبات الهندسية والكيميائية ، فهذه تخضع لقوانين خاصة وليست من « الغيوب » التي استأثر الله بعلمها ، ولا صلة لها - كذلك - بالفتن التي حدثنا عن وقوعها مستقبلاً رسول الله ﷺ قاله عز وجل : ﴿ عالم الغيب ، فلا يظهر على غيبه أحداً ، الا من ارتضى من رسول .. ﴾ ^(٢) فإخبار الرسول ﷺ بأحداث تقع مستقبلاً هو من معجزات

(١) الخمس : هي الغيوب المذكورة في آية لقمان السابقة .

(٢) سورة الجن/٢٦، ٢٧ .

النبوة ، ومن الأمور التي اذن الله لرسوله أن يحدث بها أمته للعبارة والعظة ، مصداقاً لقوله عز وجل : ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ..﴾
والآية لا تتصدى لذلك ، ولا تتحدث عنه ، إنما تؤكد الآية ما جاء في سورة النمل : ﴿قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب الا الله﴾ وما جاء في سورة الأنعام : وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو..﴾ ويؤكد هذا المعنى الحديث الذي يرويه البخاري : أن النبي ﷺ قال : (مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها الا الله : لا يعلم أحد ما يكون في غد ، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام ، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، وما يدرى أحد متى يجيء المطر) .
ويكون معنى الآية : وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً﴾ أى لا تعلم نفس ماذا يحدث لها غداً من صحة أو مرض ، ومن حياة أو موت ، ومن ربح أو خسارة ، ومن خير أو شر .

حول مفهوم الآية :

﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾
هذه الآية الكريمة الرحيمة ، من القرآن العظيم : ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها .. ويعلم مستقرها ويستودعها ، كل في كتاب مبين﴾^(١) تلوتها منذ أيام ، ووقفت عندها ما لم أقف من قبل ..

وقفت متأملاً ما تحمله من معاني ، وما تبعثه في القلب السليم من إيمان ، وتذكرت ساعتئذ ما أثاره بعض من يحسبون أنفسهم «من العلماء» حولها من جدل عقيم ينم عن فهم ذميم .. وأقول : فهم ذميم .. لأنه لم يدل على جهل بأسرار اللغة العربية وبلاغتها فحسب ، بل دل على إلحاد في أسماء الله الحسنى وصفاته العليا ، وعلى شك في عزته وقدرته سبحانه ، وعلى جحود لدينونة الخلق بسلطانه وحنانه ، دينوتهم له سبحانه بالرزق الذي يأكلون منه ويشربون ، كدينوتهم له بالخلق الذي يولدون به ويقبرون على سواء !

يقول هذا الذي يحسب نفسه (من العلماء) : إن نصوص القرآن تنقسم إلى قواعد وشعارات ، فالقاعدة يتساوى فيها منطوق

(١) سورة هود/٦ .

النص ومفهومه كقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ﴾ (١) أما الشعار فكثيراً ما يكون بين منطوقه ومفهومه تفاوت بعيد ، وهو يعتمد على المبالغة كقوله تعالى : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فالقرآن قطعاً لا يعنى المعنى الحرفى للآية .. والا عجزنا عن التوفيق بين هذا المعنى الحرفى وبين ماثات الملايين من البشر ماتت جوعاً !

إنه كلام عجيب ينم عن فهم أعجب ! وبمقدار ما فى كلامه وفهمه من عجب ، يتغلغل فى أعماقه الخطأ الأثيم ، والسهو الفكرى الذميم ! فهو - أولاً - يجعل قاعدة أساسية من قواعد الوجود الانسانى شعاراً يعتمد - بزعمه - على المبالغة ، ويقوم بين منطوقه ومفهومه تفاوت بعيد ! وهو بذلك يطعن طعنأ صريحاً فى صحة آية من القرآن فى لفظها ومعناها . وهو - ثانياً - يكاد يننى بلسان خفى صفة من أبرز صفات الوجود الإلهى .. وتلك هى «الرزق» التى تقترن دائماً بالصفة الأولى وهى «الخلق» : ﴿اللّٰهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ (٢) كما يقول القرآن - وكما نقول فى أمثالنا العامة : «الى خلق عبده ما ينساه» . أى لا ينساه من رزقه . ولدينا ، على مائدة القرآن السخية الشهية ، آيات أخرى فى موضوع «الرزق» كقوله تبارك وتعالى :

(١) سورة الاسراء/٣١ .

(٢) سورة الروم/٤٠ .

- ﴿هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً﴾ (١)
- ﴿لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للمتقوى﴾ (٢)
- ﴿وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ (٣)

إنها تريدنا عرفاناً وإيماناً بمدى ما يتمتع به الوجود الانسانى من دينونة لهذه الصفة الرازقة ، من صفات الوجود الإلهى ، التى تنفعنا بالخيرات والثروات وتمدنا بالبركات والرحمات ، طبيعياً وصناعياً ، وتمنحنا الفتوح والغزوات علمية وفنية .

والآية موضوع الحديث تقرّر هذا المعنى .. معنى دينونة الانسانية جمعاء لله سبحانه «بالرزق» منحةً ومنعاً على سواء .. فمن رزقه الله لا يحرمه أحد ، ومن حرّمه الله لا يرزقه أحد :

- ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم﴾ (٤)
- ﴿أم من هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ (٥)
- ﴿وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين . وإن من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم﴾ (٦)

(١) سورة غافر/١٣ .

(٢) سورة طه/١٣٢ .

(٣) سورة الذاريات/٥٧ .

(٤) سورة فاطر/٢ .

(٥) سورة الملك/٢١ .

(٦) سورة الجحر/٢٠، ٢١ .

□ ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾^(١) .

إنها إذن الدينونة التي لا مفر منها : دينونة الخلق لخالقهم بالرزق عامة ، منحاً ومنعاً ، يوسرون إذا أراد سبحانه ، ويعسرون إن لم يرد .. حتى أولئك الذين وسع لهم في رزقهم لا يستطيعون أن يردوا شيئاً من سعتهم إلى من قدر عليه رزقه : ﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء﴾^(٢)

أو هي الملكية : ملكية المخلوقين لخالقهم ، أى عبوديتهم وخنوعهم تحت قدره وقضائه ، يفعل بهم ما يشاء ويحكم ما يريد ، واسعة رحمته ، شاملة عدالته في كل ما يحكم وكل ما يريد ، وقد جاء في الحديث القدسي : (يا عبادى إن منكم من أغنيته ، ولو أفقرته لفسد حاله ، وإن منكم من أفقرته ، ولو أغنيته لفسد حاله) .

فالآية : ﴿وما من دابة في الأرض الا على الله رزقها﴾ من الوضوح والبيان والبلاغة اللفظية والمعنوية بمنزلة رفيعة لا تنالها الفهوم السقيمة بطعن ، ولا تقترب منها القلوب الملحدة بلعن ، مهما حاول ذلك المبطلون !!

وهي لا تعنى التزام الخالق سبحانه بإنزال الرزق في أفواه الكسالى ، الذين لا يأخذون بالأسباب ، ولا يمشون في مناكب الأرض ، ابتغاء فضل الله بكد اليمين وعرق الجبين - ولا للذين

(١) سورة الذاريات/٢٢ .

(٢) سورة النحل/٧١ .

يتلون بظلم بعضهم لبعض فيموتون جوعاً أو ظمأً - ولا لأولئك الذين تمسك السماء عنهم برّها ، فلا زرع ينبت ولا ضرع يدر .. فكل ذلك له أسباب من سخط الله على خلقه ، لظهور الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ! .



إن الله تبارك وتعالى قال لعباده : «تراحموا» ، فلم يتراحموا ، وأوقدوا نار الحروب فيما بينهم ، فجاع قوم وشبع آخرون ! وقال لهم أيضاً : «لا تظالموا» فتظالموا ، واكل الغنى مال الفقير ، وطمع القوى في مال الضعيف ! وقال لهم : ﴿وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾^(١) وآتوا اخوانكم الفقراء والضعاف والمحتاجين . من مال الله الذي آتاكم^(٢) فلم يستجيبوا ، وكان أن أبطرتهم الثروة والميسرة ففسدوا ، وضاع إخوانهم الفقراء وجاعوا !!

وصدق الله العظيم فيما قال : ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾^(٣) .. وفيما قال عز وجل أيضاً عن اليهود والنصارى : ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم - أى القرآن - لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدّة ، وكثير منهم ساء ما يعملون﴾^(٤) . وصدق رسوله الكريم فيما قال أيضاً : (لو أنكم توكلتُم على الله حق التوكل لرزقكم كما

(١) سورة الحديد/٢ .

(٢) سورة النور/٣٣ .

(٣) سورة الاعراف/٩٦ .

(٤) سورة المائد/٦٦ .

يرزق الطير تغدو خماساً وتروح بطاناً).

وهنا يجب أن نفرق بين ما هو من عمل الخالق سبحانه وما هو من عمل المخلوقين : فله الملك والإرادة والمشئنة والقضاء : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ، لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾^(١) . فمع هذه الدينونة القاهرة للخالق سبحانه فالمخلوقين المدينون مسئولون عن أخطائهم وأوزارهم التي يصدفون بها عن آيات الله ، ويتعدون حدوده ، ويتحدون أوامره وزواجره !

وهكذا قامت الحجة في موضوع هذه الآية ظاهرة باهرة ، واستقامت السبيل إلى فهمها بآئنة آمنة .. فالملك ملك الله ، والعباد عباده ، والرزق رزقه .. لا حرمان لمرزوق ، ولا رزق لمحروم الا بمشيئة الله وعطيته ، ولو اجتمع أهل الأرض على أن ينفعوا أحداً لم ينفعوه الا بشيء كتبه الله له ، أو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه الا بشيء كتبه الله عليه ، وعلى الله وحده رزق كل مخلوق ، بلا جدال .

ليس على الوالد رزق ولده .. ولا على الزوج رزق زوجته .. ولا على العائل رزق عائلته .. ولا على صاحب العمل رزق عماله .. ولا على الرئيس رزق مرؤوسيه : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ، كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٢) .

(١) سورة الرحمن/٣٣ .

(٢) سورة هود/٦ .

حول مفهوم الآية :

﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق﴾

في مجلة (الوعى الاسلامى عدد شعبان عام ١٣٩٣هـ) مقالة قيمة للدكتور «محمد البهى» بعنوان «العلمانية والاسلام» تناول فيها تناول فيه تفسير هذه الآية : ﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق﴾ ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت إيمانهم ، فهم فيه سواء .. أفبنعمة الله يجحدون^(١) فقال الدكتور البهى : «أى أن صاحب المال ومن لا يملك المال من الأتباع سواء في ارتباط منفعة أى منهما بالمال الموجود فعلاً بيد مالكة والمفضل فيه عن غيره» .

قلت : إن هذا التفسير للآية لا يلائم معناها ، ولا يساعد مبناها على صحته .. فالآية واردة بمبناها ومعناها معاً لتأكيد حقيقة أن الأرزاق بيد الله ، وانه هو سبحانه قاسمها بين عباده ، وهو المفضل بعضهم على بعض في زيادة الرزق ونقصه .. حتى أن الذين فضلوا في الرزق أى زادت أرزاقهم على أرزاق غيرهم لا يستطيعون رد شئ منها على المحرومين مما ملكت إيمانهم - الآية واردة لتأكيد

(١) سورة النحل/٧١ .

هذا المعنى وزادته تأكيداً وتأيداً حين أضافت : ﴿.. فما الذين
فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ إِيْمَانُهُمْ﴾ إذ لو كان المقصود أن
الناس المرزوقين والمحرومين سواء في هذا الرزق لكان إيراد هذه
الجملة عبثاً أو مناقضاً للمراد منها .

ثم جاءت الجملة التعقيبية الثانية : ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ تأكيداً
للحقيقة نفسها .. أى أن المرزوقين والمحرومين سواء في تلقى الرزق
والحرمان منه ، أو تلقى بسطة الرزق وضيقه ، فلا حيلة لأى من
الفرقتين في الكسب والحرمان ، وإنما هى مشيئة الله وحكمته كما
يوضحها الحديث القدسي : (يا عبادى إن منكم من أغنيته ولو
أفقرته لفسد حاله ، وإن منكم من أفقرته ولو أغنيته لفسد
حاله) ..

وهناك آية أخرى شبيهة بهذه معنىً ومبنىً ، وهى قوله تبارك
وتعالى : ﴿ضَرْبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ
إِيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ ؟ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾^(١) وقد جاء
التعبير القرآنى - هنا - أكثر وضوحاً وصراحة ، لأنه جاء بأسلوب
الاستفهام الانكارى .. فهو بعد أن ذكرهم بوحدانية الله وقدرته
على بدء الخلق وإعادته يسألهم : هل لهم شركاء فيما رزقهم مما
ملكت أيمانهم ؟ وكيف إذن يجعلون له شركاء ممن خلق ؟ وكيف
يرضون لله ما لا يرضون لأنفسهم ؟ .

وفى آية أخرى يمين الله على الناس بما جعل لهم فى الأرض من

(١) سورة الروم/ ٣٨ .

رزق لا يملكون منحه أو منعه عن الآخرين حيث يقول عز وجل :
﴿وجعلنا لكم فيها معاش .. ومن لستم له برازقين﴾ (٢) .
والقرآن يكرر هذا المعنى ، ويؤكد هذه الحقيقة الإلهية في آيات
كثيرات منها قول الله تبارك وتعالى :

- ﴿والله يسطر الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾ (٣)
- ﴿قل إن ربي يسطر الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾ (٤)
- ﴿أو لم يروا أن الله يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ (٥)
- ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم
فوق بعض درجات ، ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً﴾ (٦)
- ﴿له مقاليد السماوات والأرض ، يسطر الرزق لمن يشاء
ويقدر﴾ (٧)

وفي الحديث النبوي : (إنما أنا قاسم أضع حيث أمرت) أى
يقسم ﷺ الغنائم والانتفال وما يستحقه المسلمون في بيت المال ،
كما أمره الله عز وجل .

إذن فتفاوت الأرزاق بين الناس ، وتفاضلهم قوةً وذكاءً
وخلقاً : حقيقة إلهية كونية ، يقرها القرآن ويؤكددها في أكثر من
آية ، كما أن واقع الحياة البشرية يشهد بها ، ونحن نلمسها ونراها ،

(٢) سورة الحجر/ ٢٠ .

(٣) سورة العنكبوت/ ٦٢ .

(٤) سورة سبأ/ ٣٩ .

(٥) سورة الروم/ ٢٧ .

(٦) سورة الزحرف/ ٣٢ .

(٧) سورة الشورى/ ١٢ .

وحكمة الله في قيامها هي كما قال سبحانه : ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا﴾ أى لتقوم الحياة ، ويعمر الكون .. باختلاف الطبقات ، وتباين القدرات والمواهب ، وتعدد الحرف والوظائف والاختصاصات .

ونستطيع أن نفهم (الرزق) الذى هو من اختصاص الله مثل (الخلق) بأوسع مدلولاته الحقيقية لا المجازية فهو لا يعنى الطعام والشراب وحدهما ، بل يعنى الأسباب والوسائل والسبل المؤدية إلى تحصيله ونواله من مواهب وملكات ومهارات ذهنية وعقلية .. ولا تناقض بين هذه الحقيقة الكونية الإلهية وبين (المسئولية) الانسانية التى فرضها القرآن وأوجبها فى أكثر من آية أيضاً ، وهى : أن للمحرومين حقوقاً فى أموال المرزوقين ، سواء أكانت زكاةً واجبة ، أم صدقةً مستحبة ، وفى ذلك يقول الله عز وجل : □ ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ ، وَالْمَسْكِينِ ، وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ، وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ ، وَفِي الرِّقَابِ ، وَالْغَارِمِينَ ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ ، فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(١) .

□ ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلْمَسْكِينِ وَالْمَحْرُومِ﴾^(٢)

□ ﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ﴾^(٣)

وما أكثر ما يكرر القرآن دعوته : ﴿وانفقوا مما رزقناكم - وانفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ وفى الحديث النبوى توجيهات إلى

(١) سورة براءة/٧ .

(٢) سورة المعارج/٢٤ .

(٣) سورة النور/٣٣ .

إعطاء الفقير وإطعام المسكين ، وإغاثة الملهوف كقوله ﷺ :

- (ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم) .

- (اطعموا الطعام ، وأفشوا السلام) .

- (إن في المال حقاً سوى الزكاة)^(١)

- (إن للسائل حقاً ولو جاء على فرس)^(٢)

وبعد : فهناك فرق كبير وعميق بين قول الدكتور البهي : إن صاحب المال ، ومن لا يملك المال من الأتباع سواء في ارتباط منفعة أى منهما بالمال الموجود فعلاً بيد مالكة ، والمفضل فيه عن غيره تفسيراً لقوله عز وجل : ﴿فهم فيه سواء﴾ .

.. وبين ما يفهم من الآية مع الآيات الأخرى - من أن الله عز وجل قسم الرزق بين العباد حسب إرادته ومشئته ، فهم سواء في تلقى الرزق الواسع أو الرزق القليل ، أو هم سواء في العطاء والحرمان بحيث لا يستطيع الغنى أن يرد شيئاً من رزقه على الفقير ، ويرفعه إلى مستواه ، وإن كان يجب عليه أن يعطيه ما يضمن له طعامه وكسوته .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .



(١) رواه الترمذى والدارمى .

(٢) رواه أبو داود .

حول مفهوم الآية :

﴿ فلا تركوا أنفسكم ﴾

على الرغم مما يبدو من أن العرب بخاصة والمسلمين بعامة قد تخلصوا من «الاستعمار» الغربى الكافر الذى لا دين له ، الفاجر الذى لا شرف عنده ، الغادر الذى لا موثق به - فإنه مما يجب أن نتنبه له تنبهاً لا غفلة فيه ، ولا نسيان بعده : أننا وإن تحررنا من سلطانه العسكرى ، وسيطرته السياسية ، فازلنا نخضع لسلطانه الفكرى ، وسيطرته الثقافية .. وذلك ما لا يقل خطراً ولا يهون ضرراً عن كوارثه العسكرية وخباثته السياسية .. بل يفوقها ويربو عليها .

فلقد تأثر الفكر العربى والإسلامى بكثير من أفكار الاستعمار الغربى ومبادئه الثقافية .. التى قصد قصداً إلى نشرها بيننا ، فى صفحات كتبه ومجلاته وإذاعاته .. وعلى ألسنة تلامذته منا ، وربائبه فينا ، لنشك فيما نعتر به من دين . وتنفس مما نتشرف به من خلق ، ونغتر بما جلب هو إلينا من زخرف حضارته الخادعة ، ونأخذ بمتاع تقاليد المائعة ، فنعبده ونسى الله ، ونخلص له ونهمل حقوق أوطاننا وشعبونا ، ونتلو إنجيله ونهجر القرآن ! وحينئذ تزداد هواناً عليه ، ويزداد هو سلطاناً علينا !! .



ولدينا اليوم مثل واحد مما يفعله أولئك التلامذة والريائب لخدمة أغراض الاستعمار الغربى ، ونشر سلطانه الفكرى بين العرب ، بعد طى تعاليمهم الدينية وأخلاقهم القومية ونبذها وراء الظهور . يقول أحد هؤلاء الريائب والتلامذة الاستعماريون : إن غرائزنا تعرف الطريق ، فدعوها تمضى فى طريقها ، ولا تمسوها بتهديب إذا شئت ، ولا تكبحوها إذا جمحت ! ويحتج مذهبه : بأن الله سبحانه قد أنشأنا من الأرض ، وهو اعلم بطبيعتنا الأرضية ، ومن أجل ذلك جاء القرآن ينهانا فى حزم : ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (١) ثم يذكر فى جرأة آئمة قصة بنات النبی لوط عليه السلام ، حين قال لقومه : ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ (٢) ويرى فيها تجربة من تجارب التاريخ القديم ، حيث كان الأقدمون يعرضون بناتهم لضيوفهم ، ويعدون ذلك فضيلة لا تدم .

ولا يكتفى الكاتب بهذا القدر من الافتراء على الغرائز ، وعلى القرآن ، وعلى النبی لوط عليه السلام وبناته ، بل يضيف إلى احتجاجه الواهى على دعوته الغرائزية : تأويلاً سقيماً أثيماً لقصة إمرأتى نوح ولوط عليهما السلام ، اللتين قال القرآن عنهما : ﴿كَانَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ ، فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ، وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾ (٣) فانه يرى أن خيانة زوجتى النبیين إنما كانت خيانة زوجية ، ليؤيد فكرته الداعية إلى ترك

(١) سورة النجم/٣٢ .

(٢) سورة هود/٧٨ .

(٣) سورة التحريم/١٠ .

الغرائز تمضي في طريقها ، والقائلة بأن الأديان وتشديدها على الغرائز لا تغني شيئاً في التربية والتقوم ، بدليل أن زوجات بعض الأنبياء قد زلت أقدامهن ، وهن في كنف الصلاح والتقوى ، وتحت ظل النبوة الفاضلة العفيفة الطهور !

هكذا يريدنا الكاتب : أن نعتنق مذهبه الغرائزي ، فنؤمن بأن غرائزنا تعرف الطريق ، ونتركها كما يفعل هو ، نتخبط في الظلم والظلام ، نحيا لا يهمننا الا أن نأكل ونتمتع كما تعيش الأنعام ! وكذلك يريدنا الاستعمار الغربي أنعماءاً يأكل من لحمنا ويبيع !! تلك غاية الاستعمار الغربي منا ، وذلك فعل رباثته وصنائه فينا . أما افتراءهم على القرآن ، والأنبياء ، وعلى الغرائز الانسانية أيضاً : فهو افتراء واهنٌ مفضوح لا حجة له من عقل ولا نقل ولا تأريخ .

فنحن نتلو في القرآن الكريم أمثال هذه التوجيهات الحاسمة :

- ☐ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾^(١)
- ☐ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾^(٢)
- ☐ ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾^(٣)
- ☐ ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾^(٤)
- ☐ ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾^(٥)

(١) سورة الشمس/ الآية ٩ .

(٢) سورة الأعلى/ الآية ١٤ .

(٣) سورة النازعات/ ١٨ .

(٤) سورة فاطر/ الآية ١٨ .

(٥) سورة التوبة/ الآية ١٠٣ .

فلا يداخلنا شكٌ في أن الدعوة إلى التزكية النفسية في مقدمة ما أنزل القرآن من أجله ، وطلبة ما أرسل نبي الاسلام لتحقيقه من إصلاح فردى وإصلاح جماعى ، في دنيا الناس التي تصطرع فيها العقول والعواطف ، وتختصم الأرواح والغرائز . ولا يحل أزماتها ، ويفصل خصوماتها ، ويكسر شراتها الا الدين ، ينزله الديان رحمةً منه ، وهدىً وبشرى للمسلمين .

فهل بعد هذه الآيات القرآنية المكررة المعادة في عدة مواضع من القرآن ، والتي تدعو إلى تزكية النفس ، يعقل عاقلٌ ، أو يُسلم عالم ، بأن القرآن يناقض نفسه ، ويخالف رسالته ، فينبى قارئه عن الطهر والزكاء - بعد أمره المكرر بالتزكية - قائلاً : ﴿ لا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ 》 ؟ .

نعم إن القرآن قال : ﴿ لا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ 》 ، ولكن في مجال معين ، وبمعنى آخر ، ولغرض خاص .. قالها في مجال مقاومة الغرور الانسانى عند فريق فاضل أو متفاضل من الناس ، ليدكره بأصل نشأته من الأرض ، ولئلا يهزأ بفريق المذنبين الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش الا اللّٰم - وهو صغائر الذنوب - فإن الله واسع المغفرة . وهو يزكى من يشاء برحمته وفضله ، لا باجتهاد الإنسان وادعائه وحدهما .. كما قال سبحانه في آية سورة النور : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ، ولكن الله يزكى من يشاء 》 ^(١) ، وكما يقول في الآية موضوع الحديث : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللّٰم ، إن ربك واسع

(١) سورة النور/ الآية ٢١ .

المغفرة ، هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنّة في بطون أمهاتكم فلا تركّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى .
 إن من يقرأ ﴿فلا تركّوا أنفسكم﴾ دون أن يبدأ الآية من أولها متصلة بالآية السابقة لها يكون كمن يقرأ ﴿قويل للمصلين﴾ من غير أن يصلها بالآية التالية : ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ كلاهما مخطيء أو مغرض أثيم ..

إذن فعنى هذا التوجيه القرآنى : ﴿فلا تركّوا أنفسكم﴾ أن يجتنب الفضلاء والمتفاضلون الدعوى والتظاهر والغرور بما هم عليه من زكاة أنفس ، وطهارة أخلاق .. وهو من قبيل نهى القرآن نفسه عن المنّ فى الزكاة المالية لأن المنّ يُبطل فضل الصدقة ، ويحبط ثوابها ، فكذلك التركى النفسى ، والرياء بالتقوى والصلاح ، يبطلان فضل صاحبهما ، ويمحوان استحقاقه فى الأجر أو الشكر .



وهذا يتضح الفرق الفارق بين تركية النفس بمعنى تطهيرها وتحريرها من المآخذ والمعاصى ، وهو أمر نزل به القرآن فى عدد من آياته البينات - كما اسلفنا - وهو لا يحتمل جدلاً ولا يقبل ارتياباً ، وبين تركية النفس بمعنى إدعاء طهرها وعفافها والتظاهر بتقواها وفضلتها .. وهو المقصود بقوله تبارك وتعالى ﴿فلا تركّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ .

أما قصة بنات لوط عليه السلام ، التى يوردها رباب الاستعمار وتلامذته كوثيقة تاريخية قديمة لجعل عرض البنات على الضيوف

فضيلة من فضائل القدماء ، فقد أجمع الباحثون في سير الأنبياء والمفسرون للقرآن أن لوطاً إنما عرض بناته على بعض قومه ليتزوجهن نكاحاً لا سفاحاً ، لأنه بسبيل تطهيرهم من رجسهم في إتيان الذكران ، إلى الفطرة الإنسانية السليمة ، فلا يعقل أن يحاول لوط ، وهو النبي المصطفى ، أن يغسل الدم بالبول ، فيدلهم رجس الزنا برجس اللواط ، كما يريد هؤلاء الرئائس الاستعماريون لهذه القصة الكريمة من تأويل لئيم !! وقد قيل إن لوطاً عليه السلام قصد بلفظة (بناتي) بنات قومه ، وعنى بذلك أن ينصرف المنحرفون عن منكرهم الذميم إلى الزواج الشرعي بالنساء ، ولا غرابة في هذا الإطلاق المجازي ، ففي القرآن نفسه إطلاقٌ مثله ، وهو تسمية زوجات النبي محمد عليه الصلاة والسلام بأمهات المؤمنين : ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم﴾^(١) .

أما تناولهم خيانة زوجتي نوج ولوط بذلك الفهم الماكر الفاجر ، فهو إتهام بذيء لمقام النبوة الطاهر ، وإهداراً لكرامة العقل الذي مُنِحَتْهُ الإنسانية لتتدبّر وتتفكر قبل أن تحكم ، ذلك أن الظروف والملابسات والقرائن المصاحبة لقصة امرأتى نوح ولوط .. هي ظروف رسالة ونبوة ، ودعوة إلى الحق والتوحيد ، وليست ظروفاً وملابسات وقرائن تتعلق بحياة زوجية ، أو علاقة غرامية خاصة ، أو فكرة اجتماعية عامة ، فما يقال في هذا المقام عن حدوث خيانة ، يفهم على أنها خيانة للدعوة والرسالة ، وخيانة للزوج الذي ينتظر من زوجته وأهله أن يكونوا في مقدمة مصدّقيه

(١) سورة الاحزاب/٦ .

ومؤيديه والمدافعين عنه ، وهى شبيهة بالخيانة الوطنية التى يوصم بها اليوم الخارجون على أمهم ، الكائدون لأوطانهم ، الحاطبون فى حبل المستعمرين الغزاة .



وبعد فان من الواضح المؤكد ، ومن المعلوم من الدين بالضرورة أن تقوى الله ، وتركية النفس هما غاية الرسالات السماوية ، وهى واجب الرسل والأنبياء ووظيفتهم وعملهم كما قال تبارك وتعالى : ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ . وَيُزَكِّيهِمْ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ .

والا ففيم بعث الله عز وجل الرسل ، وأنزل الكتب ؟ وفيم كانت الدعوة إلى عبادة الله ؟ وهل يعبد الله تبارك وتعالى قبل أن تكون للناس قلوب تتقى ، ونفوس تتركى ؟ .

كما أن تقوى الله وتركية الأنفس أقوى عُدَّةً فى محاربة العدو .. ولقد كان الخلفاء والأمراء المسلمون فيما ذهب من القرون المثلث ، يوصون جيوشهم المحاربة بتركية الضمائر والمشاعر ، لأنها سبيل الفتح المبين ، فلنحذر ربائب الاستعمار وتلامذته ، وحفظة أفكاره ومبادئه ، ودعاة الاقتباس منها بديلاً عما للعروبة والاسلام من سُبُل ومثُل .

(١) كان هذا الفصل تعقيماً على الأستاذ خالد محمد خالد فيما تحدث به فى كتابيه (هذا والطوفان) و (من هنا نبدأ) اللذين صدرا فى العقد السادس من القرن الرابع عشر .

حول مفهوم الآية :

﴿يا أبت استأجره إن خير
من استأجرت القوى الأمين﴾

كتب الأستاذ محمد الحسناوى ، فى مجلة حضارة الاسلام عدد
ذى القعدة ١٣٨٦هـ ... مقالاً بعنوان «القصة الاسلامية والمرأة
والجنس» قال فيه :

(إن الحديث العاطفى للحب قد يكون سامى الدلالة رفاف
السنا .. شأن أشعار العذريين ، ومجازات الشريف الرضى ،
ومواجد المتصوفة النظيفة .. كما قد تكون هذه النجوى لبقة التعبير ،
بريئة اللهجة .. مثل قصة موسى عليه السلام حين ورد ماء مدين
خائفاً يترقب فاتفق له من فتاة شعيب سبيل سكرينة وأمن :
﴿فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت : ان أبى يدعوك
ليجزئك أجراً ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال : لا
تخف نجوت من القوم الظالمين ، قالت إحداهما يا أبت استأجره إن
خير من استأجرت القوى الأمين﴾^(١) فهنا عرض لعواطف الأنثى
تجاه رجل .. عواطف الاعجاب بقوته ونبله ، وشهامته ، على
طريقة الأنثى الحية الخجول ، فتتجلى مودة ورحمة بين قلبى رجل

(١) سورة القصص/٢٥، ٢٦ .

وامرأة ، على خير ما تتجلى في أفاصيص الحب الرفيع) .
وأشار الكاتب في ذيل الصفحة إلى كتاب «القصص في الأدب
العربي» للشاعر القصاص محمود تيمور - ص ٤٤ - كأن ذلك هو
رأى محمود تيمور ، والأستاذ الحسناوى معه فيما يراه !!
ونحن حين نعقب على رأى الكاتب فى القصة الإسلامية والمرأة
والجنس لا ننكر وجود هذا النوع من القصص - برئاً كان أم غير
برئ كقصة امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام - فى القصص
الإسلامى أو فى قصص القرآن على وجه التحديد .

فالحب والجنس هما سر العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة ، فى
الطبيعة البشرية ، وهما حقيقة قائمة وموجودة ، ولها رسالتها ،
وهدفها وغايتها .. التى من أجلها فطر الله الناس عليها ، وشرع عز
وجل سبيلها القويم وحذر من انحرافها وشذوذها ، وأنذر المنحرفين
والشواذ ، من الذكور والاناث ، عاقبة السوء .

ولكننا ننكر أن نعم نظرة الكتاب القصاصين فى كل قصة قرآنية
أو إسلامية عن رجل وامرأة ، بالحكم على أنها قصة «حب وجنس»
كما زعم كاتب آخر مثل ذلك فى قصة بلقيس مع سليمان عليه
السلام لمجرد ورود عبارة : «وكشفت عن ساقها»^(١) فى الآيات
القرآنية التى تضمنت القصة .

أجل ننكر هذه النظرة العامة الشاملة لكل قصة بين ذكر وإناث
بأنها قصة غرام وعلاقة جنس ، حتى لقد افترى (آخرون) من قبل
على لوط عليه السلام بأنه أراد تقديم بناته لقومه عندما اقتحموا

(١) سورة النمل/ ٤٤ .

عليه مجلسه وهو مع ضيفه من الملائكة الأبرار ، فقال لهم أى قوموه : ﴿هؤلاء بناتى هن أطهر لكم﴾^(١) .

مع انه عليه السلام إنما عنى بنات قوميه أن يتزوجوهن بالحلال ، ويكفوا عن شذوذهم ، وانحرفهم الأخلاقى عن الطريق المستقيم ، إذ لا يعقل أن يقدم نبى فاضل ، حتى ولا رجل عاقل بناته لنفر من قوميه يفعلون بهن ماشاءوا فى عرض رخيص ، وبذل مهين .. ثم هل تكفى بنات لوط زوجات شرعيات لهذا الجمع من قوميه ، الذى اقتحم عليه مجلسه ، مع الملائكة الأطهار؟^(٢)



إن قصة موسى عليه السلام مع إبنة شعيب ليس فيها شىء من عواطف الأنثى تجاه الرجل ، ولا عواطف الرجل تجاه الأنثى ، وإنما كانت مرحلة من مراحل كفاح موسى وإعداده للرسالة الثقيلة التى سيفاجىء بها طغيان فرعون ، ويحاول اصلاح بنى اسرائيل ... ولنتأمل القصة معاً ، ونتتبع أحداث أبطالها ، وأحاديثهم بدقة وبقظة .. وتجرد من الوسوس والظنون والأوهام :

بعد أن علم موسى أن ملأ فرعون يأتمرون به ليقتلوه ، توجه تلقاء «مدين» وهو يدعوره أن يهديه سواء السبيل ، وان ينجيه من القوم الظالمين ، ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون مواشيهم وأنعامهم - ووجد من دونهم امرأتين يتبعدان بأغنامهما عن

(١) سورة هود/ ٧٨ .

(٢) عقبتنا على ذلك تعقياً مفصلاً فى نقدنا لكتاب (هذا .. او الطوفان) للاستاذ خالد محمد خالد .

الماء ، انتظاراً لفراغ الرعاة من سقى قطعانهم ، ليخلوها المورد ..
فهما أنشيان ضعيفتان لا تقويان على مزاحمة الرجال الأشداء ،
وأبوهما شعيب عليه السلام شيخ كبير ، لا يستطيع سقياً ولا رعيّاً .
وبدافع من شهامة الرجولة ومرؤتها سقى للبتين ، ثم تولى إلى
ظلي يدعو ربه رزقاً حلالاً غريب في مدين وفقير !!

واستجاب الله لموسى دعاءه ، فجاءه فضله ورزقه ممثلاً في عودة
احدى البتين إليه ، ودعوتها إياه للذهاب إلى أيها ليعطيه أجر ما
سقى لها : ﴿إِن أُنِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ^(١) فذهب
موسى إلى شعيب وقص عليه قصته مع فرعون فبشره بالنجاة ،
وطمأنه من الخوف .. فهو نبي مثله ، وأحوال الأنبياء ومواقفهم مع
أقوامهم تتشابه بدايةً ونهايةً ، بداية العنت والعناء ونهاية الفوز
والانتصار .

ولما كان شعيب النبي الكريم شيخاً كبيراً ، وليس له من الذرية
الاهاتان البتان ، وهو في حاجة إلى من يعينه على رعى الأغنام
وسقيها ، عرض على موسى الفتى القوى الأمين أن يستأجره ، ليبقى
عنده ثمانى سنوات أو عشرًا .. وكان هذا العرض برأى من احدى
بنتيه فى قولها : ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ . إِن خَيْرٌ مِنْ اسْتَأْجَرِ الْقَوَى
الْأَمِينِ﴾ ^(٢)

فقد شهدت قوته فى السقى ، وشهدت أمانته عندما طلب منها
أن تمشى وراءه فى عودتها إلى أيها شعيب بعد استدعائها موسى

(١) سورة القصص/٢٥ .

(٢) سورة القصص/٢٦ .

إليه ، لئلا يرى منها ما لا يحب أن يرى حين تلعب الرياح بشياها .
إن وصف إبنة شعيب لموسى بأنه قوى أمين ، لا يعنى الا ذكر
حقيقة مجردة لمستها بنفسها فيه .. وهى وأبوها الشيخ ، وأختها
الأنثى الضعيفة مثلها .. فى حاجة إلى رجلٍ مسعف معين .. فكيف
بموسى القوى الأمين؟!

ثم إن شعيباً النبى الصالح أراد أن لا يبقى موسى مع أمانته
وصلاحه ، فى إجارته وهو غير محصن ، فخطبه إلى احدى إبنتيه ،
وجعل الصداق هو الأجرة على الخدمة خلال الأعوام الثمانية
أو العشرة ..

ولا شك أن المصاهرة من شأنها ان تجعل العلاقة بين المتصاهرين
المتعاقدين على عمل ما أقوى وأثبت ، وأبعد عن التكلف
والتعسف ، والحساب العسير بين الطالب منها والمطلوب ، بل هى
أدعى إلى تسامح المستأجر ، وإخلاص الأجير .

ونحن فى دنيا الناس عامةً فضلاً عن دنيا الأنبياء الأطهار نعرف
آباء يخطبون لبناهم رجالاً يحسنون الظن بهم دون أن يكون بين
المخطوبين والمخطوب هن تعارف سابق ، أو تعاطف قديم .

وبعد : فما أحوج كتاب القصة من العرب والمسلمين الناظرين
فى قصص القرآن الكريم ان يُطهروا نظرتهم ، ويجردوا فكرتهم من
وساوس الجنس وظنون الهوى ، وأن يتأملوا هذا القصص البليغ
المعجز بأساليبه وتراكيبه ، ومعانيه وعبره ، بعقل ثابت ، وقلب
سليم .

حول مفهوم الآيتين :

﴿على سرر موضونة .. متكئين عليها متقابلين﴾

تناول الأستاذ عباس محمود العقاد - رحمه الله - في كتابه (الفلسفة القرآنية) الحياة الأخرى بالبحث وقد ذهب في هذا الفصل مذهب الفلاسفة في القول بروحية الجزاء الأخروي نعيماً وجحيماً .. وأن العذاب إنما هو تطهير وتكفير ومآله الغفران .. وأن الخلود والأبد يفيدان الزمان الطويل ، ولا يفيدان البقاء بلا انتهاء . واستعان العقاد على تأييد رأيه بأحد قولين للإمام الرازي في تفسير «التقابل» الوارد في هذه الآية : ﴿على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين﴾ وذلك قوله : «معناه أن كل أحد يقابل كل أحد في زمان واحد ، ولا يفهم هذا إلا فيما يكون فيه اختلاف جهات وعلى هذا يكون معنى الكلام أنهم أرواح ليس لهم أديار وظهور . أى أن أجسامهم نورانية كالنور الذى يقابل كل شئ» وقد أغفل العقاد الرأى الثانى للرازي ، وهو أن التقابل يعنى أنهم متساوون في المكان والرتبة لا يرى أحدهم نفسه دون الآخر .. مع أنه الرأى الراجح المختار عند صاحبه ، لأن الرأى الأول يناقض المكانية التى قررها القرآن لهم في الانتكاء على السرر .

ونحن نرى في «التقابل» رأياً آخر .. فهذه الكلمة من الكلام

العرفى الفصيح ، وهى لا تعنى أن يكون التقابل عاماً كاملاً بحيث يكون أهل الجنات جميعاً على اختلاف درجاتهم متقابلين وجهاً لوجه ، حتى نقول بنورانية أجسامهم حيث لا أدبار لهم ولا ظهور ، أو نقول : إن التقابل معناه التساوى فى المنزلة والمقام .. وهذه اجتماعاتنا الدنيوية يجلس فيها الحضور على مائدة الطعام أو مائدة الحديث ، متقابلين .. أى يقابل صف منهم صفاً آخر ، ولا يلزم من هذا التعبير أن اجسام الحضور نورانية لا أدبار لهم ولا ظهور ..

وقد استطاع التطور الحضارى الآن أن يهـىء صفوفاً من القاعدة المتصاعدة ، صفاً فوق صف لتسهيل الرؤية .. فى قاعات المحاضرات والمسارح والملاعب . وبذلك يمكن (التقابل) بين مجموعة من هذه الصفوف المتصاعدة تجاه مجموعة ماثلة . كذلك يكفى لصحة التعبير فى الآية وفصاحته أن يؤدى معنى أن كل جماعة أو كل أهل درجة فى الجنة متقابلين فى مقامهم يتحدثون ويتلذذون . أو أن كل صفين منهم – على أقرب افتراضٍ صحيح – متقابلان يتحدثان ويتلذذان !!

إن القرآن الكريم إنما جاء بأسلوب نفهمه نطقاً وسمعاً وعرفاً ، فلماذا نذهب بعيداً فى فهم تعابيره ومعانيه ؟!



وفى رأى القائل بروحية الجزاء الأخرى استعان العقاد بقول رابعة العدوية حين سمعت قارئاً يتلو قول الله تبارك وتعالى : ﴿وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون﴾ : «نحن إذن صغار

حتى نفرح بالفاكهة والطير» ، كما استعان بقول الشبلى حين سمع قارئاً يتلو قوله تبارك وتعالى : ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ : أين الذين يريدون الله ؟ .

ونحن نرى أن الصوفية حين يقولون كلاماً كهذا ، ويلهجون بالنعيم الروحي ، وهو الوصول إلى الحق تعالى لا ينكرون أنه بجانب ذلك نعيماً مادياً ، وهم عندما يتحدثون عن ذلك لا يتحدثون عما هو واقع ، إنما يتحدثون عن أمانيتهم في الوصول إلى الحق تبارك وتعالى فحسب .. كما هو شأن الفلاسفة في ذلك ، وكما حكاه ابن سينا في كتاب النجاة (ص ، ٤٧٧) وخلاصته أن الحكماء الآلهيين رغبهم في إصابة السعادة الروحية أعظم من رغبهم في إصابة السعادة البدنية ، بل كأنهم لا يلتفتون إليها وإن أعطوها الخ .. بقيت مسألة أن العذاب الأخرى إنما هو تطهير وتكفير يعقبها اجتماع النفوس جميعاً في حظيرة الرضوان !! ونحن نذكر الأستاذ العقاد بآية في القرآن هي كلمة الفصل في المسألة ، وهي قوله تبارك وتعالى : ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ .

أما تفصيل ذلك فقد قسم العلماء الأئمة إلى كفر ومعصية ، وأجمعوا على خلود الكافر في العذاب المهين ، وفي الحديث النبوي الصحيح : انه ينادى يوم القيامة بعد تصفية الحساب : (يا أهل الجنة خلود ولا موت ، ويا أهل النار خلود ولا موت) .^(١)

(١) أخرجه الترمذى .

واما ما زعم الجاحظ والعنبري من أن الكافر الذي بالغ في الاجتهاد ولم يصل إلى المطلوب معذور للآية القرآنية : ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ فهو مردود لان مثل هذا المبالغ في الاجتهاد دون أن يصل إلى منشوده مثل الكافر المعاند .. ذلك أنه يستحيل أن يؤدي اجتهاده ان صدق فيه إلى الكفر ، وهو إما أن يصل إلى الحق أو يظل ناظرًا ، فيكون في كلتا الحالتين ناجياً . وهو زعم مردود أيضاً ، لأن الآية المعتمد عليها فيه خطاب لمن دخل في الدين ، وهي تعني تقي العنت والمشقة والتكلف في تعاليم الإسلام السمع .

ويبدو أنه قد التبس الأمر على الأستاذ العقاد في مسألة «الخلود» كما التبس عليه الأمر في عقوبة الزنا ، فجعل الجلد والتغريب للمحصنين خطأ كما أوضحناه في موضع آخر .

فهو هنا يعتبر «الخلود» بالنسبة للكافر الزمان الطويل الذي ينتهي بالغفران ، في حين أن الخلود بهذا المعنى جعله المفسرون جميعاً للعصاة والفساق من المؤمنين ، كما جاءت هذه الآية القرآنية مقررّة لذلك : ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾ فالمسلم الذي ارتكب جريمة القتل العمد يطول عذابه في جهنم بحيث يظنه خلوداً فيها ، ثم تشمله رحمة الله وعفوه .. كما جاء في الحديث القدسي : (اخرجوا من النار من قال لا إله الا الله ، وعمل من الخير ما يزن كذا) .. والحديث الآخر : (من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فاجزه ..) (٢)

(٢) أخرجه الشيخان .

حول مفهوم الآية : ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾

تحدث أدينا الكبير الأستاذ محمد حسن عواد في اجتماع إسلامي عن «النقد الذاتي» وقال ان المسلمين اليوم مطالبون بنقد أنفسهم ، والتفتيش عن عيوبهم الذاتية ، حتى يصححوا أخطاءهم ويقوموا بإعوجاجهم .. بعد الهزيمة النكراء التي نزلت بهم في حرب يونيو عام ١٩٦٧ ، وانتهت باحتلال اليهود لمدينة القدس ، وبعض الأراضي العربية المهمة في مصر وسوريا والأردن ، ولا تزال تحتلها حتى الآن^(١) .

إلى هنا أصاب صاحبنا فيما قال كبداية الحقيقة وأحسن النصيحة ، ولكنه برهن على ما طالب به العرب من «النقد الذاتي» بآية من القرآن الكريم لا تصلح للاستدلال بها على نظرية النقد الذاتي التي تحدث عنها وظن أن الآية قد تضمنتها .

لقد قال الأستاذ العواد : إن القرآن يدعونا إلى النقد الذاتي ، والتفتيش عن عيوبنا الذاتية في قوله تبارك وتعالى : ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ أي أنظروا في دخائل أنفسكم ، وفتشوا عما فيها من

(١) كان الاجتماع احتفاءً بالدكتور محمد ناصر الزعيم الاندونيسي المعروف . وقد استردت مصر سيناء من إسرائيل سنة ١٩٨٢م بموجب معاهدة كامب ديفيد .

ضعف أو عيب أو إنحراف ، وأضاف إلى تفسير تلك الآية بغير معناها ، وبعيداً عن موضوعها ، ودون اعتبار لسياق الآيات قبلها وبعدها - وأضاف قوله : إنه يفهم اللغة العربية ، كما كان يفهمها الطبرى وابن كثير والزمخشري وغيرهم من مفسرى القرآن الكريم ومن حقه إذن أن يقول برأيه فى معانى الآيات كما يفهمها !

لقد ظن أن آيات القرآن كالنصوص الأدبية من شعر ونثر ، قابلة للنقد واختلاف الفهم ، والقول فيها بمجرد القدرة على معرفة اللغة العربية وحدها ، ونسى أن لتفسير القرآن قواعد وأصولاً وأدوات لا بد من امتلاكها وامساكها عند الإقدام على محاولة التفسير .

ونسى أنه مع فهم اللغة العربية ، لا بد من معرفة أسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد ، وما تحدث به الرسول ﷺ عند نزول هذه الآية أو تلك كتفسير أو توضيح ، وما قاله الصحابة من آراء فى تفسير بعض الآيات التى يجمعها موضوع واحد ، أو معنى مشترك ، وملاحظة أن هناك آيات يفسر بعضها بعضاً - كما أسلفنا - (١) .



ونعود للآية القرآنية التى حمّلها صاحبنا نظرية النقد الذاتى فنجدها فى المقطع الثانى من سورة الذاريات ، ونجد المقطع الأول من السورة يبدأ بالقسم بالرياح الذارية ، والسحاب الممطر ،

(١) فى كلام طويل للإمام النووى فى كتابه «التيبان» - مؤهلات المفسر للقرآن - يقول رحمه الله : ولا يكفى فى تفسير القرآن معرفة اللغة العربية وحدها ... الخ .

والفلك الجارية بنعمة الله وتيسيره ، ثم بالملائكة الموكلة بأمر الله بتقسيم شئون الخلق من رزق ، وحياة وموت ، وصحة ومرض .. ويذكر القرآن - في هذا المقطع الأول - الخراصين المنكرين للبعث والحساب والجزاء ، وبعدهم يذكر المحسنين وما ينتظرهم في الآخرة من جنات وعيون ، جزاء إيمانهم وإحسانهم .

ثم يبدأ المقطع الثاني بقوله تبارك وتعالى : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ وتتلو هذه الآية موضوع البحث : ﴿ .. وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ فهما مرتبطتان متصلتان لفظاً ومعنى وموضوعاً :

وموضوع الآيتين وما بعدهما هو دعوة القرآن للناس جميعاً وبخاصة المشركين المكذبين المنكرين للبعث والجزاء .. إلى تأمل آيات الله في الأرض .. من جبال وشجر وحدائق ، وأنهار وبحار ، وشمس وقمر ، وليل ونهار ، وآيات أخرى في أنفسهم من أسماع وأبصار وأفئدة ، وأيد وأقدام ، وأجهزة هضمية وعصبية داخل أجسامهم ، يأكلون بها ويشربون ويتحركون .

لقد تحدث القرآن كثيراً إلى الناس ، عما أنعم الله به عليهم في أنفسهم حتى سألهم أخيراً سؤال تحدي واستنكار لكفرانهم بألوهيته ، وجحودهم لنعمه التي لا تحصى : ﴿ قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وابصاركم وختم على قلوبكم ؟ من إله غير الله يأتيكم به ؟ أنظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون ﴾ (١) .

فكما قال لهم عز وجل : - في سورة الذاريات - : ﴿ وفي

(١) سورة الانعام/ ٤٦ .

الأرض آيات للموقنين ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾
ثم استمرت السورة إلى آخرها تعطف على هاتين الآيتين ، فقالت
بعد قصة ضيف إبراهيم عليه السلام :

- ﴿ وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسطان ميين ﴾

- ﴿ وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾

- ﴿ وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ﴾

- ﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين .. ﴾

- ﴿ والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون .. ﴾

- ﴿ والأرض فرشناها فعم الماهدون .. ﴾

- ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون .. ﴾

وفي كل هذه الآيات من سورة الذاريات عبر وعظات عن
الأقوام الغابرة ، وعن بناء السماء وفرش الأرض ، وخلق زوجين
من كل شيء .

فأين نظرية «النقد الذاتي» في هذه الآية : ﴿ وفي أنفسكم أفلا
تبصرون ﴾ وفي سياق الآيات قبلها وبعدها ؟ .

إن اللغة العربية وحدها لا تكفي لفهم القرآن وتفسيره ، بل لا
بدَّ معها - كما اسلفنا - من مؤهلات كثيرة لمن يحاول فهم القرآن ،
وتفسير آياته البليغات المعجزات ، ويحضرنا هنا قول الخليفة الراشد
الأول أبي بكر رضي الله عنه : «أى سماء تُظِلني ، وأى أرض تُقِلني
إذا قلت في كتاب الله برأى» مع أنه الصحابي الأول ، والذي رافق
رسول القرآن ﷺ ، طوال حياته .. يسمع منه القرآن ، ويتلقى
عنه تفسيره ، كما يتلقى عنه سنته وأدبه وحكمته .

حول مفهوم الآية :

﴿إن كيدكن عظيم﴾

وكتب الأستاذ العواد نفسه في جريدة محلية حول الآية القرآنية ﴿إن كيدكن عظيم﴾ مقالاً يمجّد فيه النساء .. ثم ذهب يعلّل إعطاء المرأة نصف ميراث الرجل في الشريعة الإسلامية بأن الرجل أضعف منها وأنها أقوى منه بدليل القرآن في قوله : ﴿إن كيدكن عظيم﴾ من سورة يوسف حيث دلت الآية في رأيه على ضعف الرجل وقلة احتياله ، فهو لأنه أضعف من المرأة كيداً وأقل احتيالاً قد استحق ضعف الميراث ..

وقال الأستاذ العواد : إن هناك اكتشافاً علمياً حديثاً يؤكد أن المرأة أكثر احتمالاً من الرجل للشدائد ، وأطول صبراً عليها .. فهي تحمل وتضع ، وللحمل والوضع والرضاع ورعاية الأطفال في البيت متاعب ومصاعب ثقال لا يقوى على حملها الرجال !
والرد على صاحبنا فيما فهم مخطئاً من آيات القرآن وتفسيرها ومقارنتها بالاكتشافات والنظريات الحديثة يسير وقريب .. نوجزه في الفقرات التالية :

□ أولاً : نسي صاحبنا أن هناك آية صريحة محكمة من قول الله عز وجل مباشرة - وليست كتلك حكاية عن عزيز مصر - وهي قوله

تبارك وتعالى : ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما انفقوا من أموالهم﴾^(١) فالله هو الذى حكم بهذه القوامة للرجل على المرأة وعلّلها بمؤهلاتٍ طبيعية تكوينية فى نفس الرجل وعقله وجسمه ، وبمؤهلات كسبية ، يمتاز بها الرجال على النساء .

وفى الحديث النبوى تأييد وتأكيد لهذا الامتياز الطبيعى : « ما رأيت من ناقصات عقلٍ ودينٍ أغلب لذى لبّ منكن - قالت امرأة منهن : يا رسول الله وما نقصان العقل والدين ؟ قال أما نقصان العقل فشهادة إمرأتين تعدل شهادة رجل ، فهذا من نقصان العقل ، وتمكث الليالى ما تُصلى ، وتُفطر فى رمضان ، فهذا من نقصان الدين »^(٢)

قلت : والقرآن يوضح نقصان العقل بقوله : ﴿أن تفضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾^(٣) ومن أصدق من الله قىلا ؟ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟

□ ثانياً : إن الرجل هو الذى يؤدى الصداق إلى المرأة حين نخطبها ، ويتفق عليها بعد أن يتزوجها وعلى أولادها منه ، وهى ليست مطالبة بالنفقة على نفسها ولا على زوجها ولو كانت ذات مال ومتاع ، كما أنها ليست مسئولة عن نفقة أقاربها الذين ترثهم ، فى حين أن الرجل مسئول كما جاء فى الآية نفسها : ﴿وبما انفقوا من أموالهم﴾ .

(١) سورة النساء/ ٣٤ .

(٢) رواه البخارى وابن ماجه .

(٣) سورة البقرة/ ٢٨٢ .

□ ثالثاً : لقد فرض الجهاد على الرجال دون النساء ، لأنه يحتاج إلى قوة نفس ، وقوة جسد ، وكذلك جعل الطلاق في يد الرجل لأنه أضيّط لأعصابه وأكثر تحكماً في سلوكه من المرأة ... التي لو جعل إليها الطلاق لطلقت زوجها في اليوم ألف مرة ، وورد في الحديث النبوى : (إنهن يكفرن العشير ، لو أحسنت إليهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت ما رأيت منك خيراً قط) . وقوله ﷺ : (إنهن خلقن من ضلع أعوج ، وأعوج ما في الضلع أعلاه ، فلو ذهبت تقيمه كسرته) وقوله أيضاً : (استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان لديكم) أى أسيرات ضعيفات .

□ رابعاً : إن العلم الحديث ما يتعلق منه بالنفس أو تكوين الأعضاء أو وظائفها أثبت - عكس ما ادعاه الأستاذ العواد - أن الرجل أقوى من المرأة نفساً وجسداً ، وأسلم عقلاً وتفكيراً ، وأقوم خلقاً وسلوكاً ، والواقع المشهود الذى يمتدّ عبر الأجيال الماضية والحاضرة يؤيد ذلك ويؤكدده .

وقد لاحظ التشريع الإسلامى هذا الاختلاف التكويني بين الجنسين ، فهو وإن فرض عليها الصلاة والصوم والحج - كما فرضها على الرجل - إلا أنه خفف عنها فلم يوجب عليها قضاء الصلوات التي تفوتها في أيام الحيض والنفاس ولا ألزمها الجمعة والجماعة ، ونبه إلى أن صلاة المرأة في بيتها أفضل ، ليقيا مساوىء الازدحام والافتتان ، واشترط الحرم لوجوب الحج عليها ، ولم يساوينها وبين الرجل في كيفية الإحرام .. كما لم يوجب عليها الجهاد في سبيل الله .

□ خامساً : أما القول بأن الرجل أضعف كيداً وأقل مكرّاً من

المرأة بدليل قول العزيز : ﴿إِنْ كِيدُكُنْ عَظِيمٌ﴾ - فالاحتجاج بذلك ليس في صالح الدعوى بل هو ضدها ، فالمرأة كما ثبت علمياً ومُخلّقياً وواقعياً تلجأ إلى الكيد والمكر لأنها «ضعيفة» لا تقدر على المواجهة والمجابهة كما يفعل الرجل .. ولا يكيد من الرجال الا «الضعيف» الجبان العاجز عن مواجهة الخصوم ..

ولو تأمل صاحبنا قصة امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام ، ومثلها قصة بلقيس ملكة سبأ مع سليمان عليه السلام كما جاءتا في القرآن الكريم ، لأدرك أنها أى القصتين ، تتبھان بالتدليل والتأكيد على حقيقة ضعف المرأة وقوة الرجل تفكيراً وتديراً وسلوكاً .

فيوسف اعترف - ابتداءً من أول مرة وبدون مراوغة ومحاولة منه لتغطية الموقف - بقوله : «هى رواد تنى عن نفسى»^(١) .

أما هى فعلى عادة النساء فى إلقاء الاتهامات على الغير رمت بالتهمة يوسف عليه السلام ، وعلى الرغم من شهادة شاهد من أهلها بكذبها وصدقہ أصرّت على الإنكار الا بينها وبين زائراتها من بنات جنسها ، على عاداتهن أيضاً فى كشف الأسرار ، وفضح العورات فيما بينهن ، حيث قالت لهن : (فذلكن الذى لمتنى فيه .. ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) .

وقد أصر يوسف عليه السلام على ألا يخرج من السجن الذى دخله مظلوماً حتى تعلن براءته ، وحتى تحيى شهادة صديقات

(١) سورة يوسف/٢٦ .

زليخا : ﴿حاشا لله ما علمنا عليه من سوء...﴾^(١) وحتى تعترف
 هى بعد هزيمتها أمام قوة يوسف الرجل وطهارته وإيثاره السجن على
 الفاحشة : ﴿الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه .. وأنه لمن
 الصادقين﴾^(٢) وكذلك تفعل النساء أبداً . بل كذلك يفعل الرجال
 الضعفاء المشبهون بالنساء .

أما بلقيس فتتجلى طبيعة الأنوثة الضعيفة المتأثرة بالمهادنة فيها -
 عندما تلقت دعوة سليمان عليه السلام لها إلى الاسلام ، فأرسلت
 إليه هَدِيَّةً تحاول بها مجاملته ومهادنته ومعرفة سره ، ثم عندما يبهرها
 الصرح الذى حسبته لجة فكشفت عن ساقها فقال لها إنه صرح
 مُمرّد من قوارير .. وكذلك النساء تعجبهن المظاهر والزينات
 والزخارف ، وتأخذهن قوة الرجل وقدرته وجلال مكانته :
 ﴿قالت رب إني ظلمت نفسى ، وأسلمت مع سليمان لله رب
 العالمين﴾ .

وهناك - فى القرآن أيضاً - اعتراف امرأة عمران التى نذرت
 حملها ليكون إذا جاء ذكراً سادناً للكنيسة : ﴿فلما وضعتها قالت
 رب إني وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر
 كالأنثى ..﴾^(٣) أى لا تستطيع القيام بعمل الرجل الذى يمتاز عليها
 بالقوة والقدرة والخبرة .

وهكذا يَصْدُقُ القرآن ، لأنه كتاب الحقائق ، فى تقرير ضعف
 الأنوثة ، وقوة الرجولة لحكمة التناسب والتناسق فى نظام الزوجية

(١) سورة يوسف/ ٣٢ .

(٢) سورة يوسف/ ٥١ .

(٣) سورة آل عمران/ ٢٦ .

الذى شرعه الإله العليم الحكيم .. وكل ميسر لما خلق له ، كما قال
الرسول الكريم ؟

حول مفهوم الآية :

﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾

كتب الشيخ محمد عبدالرزاق حمزة - رحمه الله - تعقياً على مناقشتنا للأستاذ سيد قطب ينتقد فهمي لهذه الآية : ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ ، وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ بأن المؤمن به هو العذاب ، وأن التناوش إنما هو تناوش الملائكة لهم وسحبهم إياهم على وجوههم إلى النار الخ قائلاً . إن هذا تفسير بالرأى ، وهو حرام وفيه تهديد ووعيد .. وأن تفسير ابن جرير الطبري هو العمدة ، وذكر أنه قال : أى أنى لهم تناول الإيمان من مكان بعيد وهو الآخرة ، وإنما مكان الإيمان والتوبة الدنيا الخ ^(١) .

وقد بدأ الشيخ الفاضل كلامه بأسلوب التجهيل والتغفيل ، ومن حق أن أعتب عليه في ذلك ، واكتفى أن أذكره بهذه الحقائق الموجزة :

□ الأولى : أن الأدلة على جواز تقليب وجوه الفهم في القرآن كثيرة منها قوله تبارك وتعالى ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِ الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ وقوله أيضاً : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ وقوله : ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ

(١) جريدة البلاد السعودية ١٣٩٧هـ . ومناقشتها للأستاذ سيد قطب سبقت في الجزء ٢/من هذا الكتاب .

ليدبروا آياته وليتذكروا أولو الألباب ﴿ وفي حديث ابن عباس - بإخراج أبي نعيم - : (القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن وجوهه) وعن علي بن أبي طالب : انه سئل هل عندكم شيء من الوحي الا ما في كتاب الله ؟ قال : (لا والذي خلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه الا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن) (٢) .

وعلى هذا ذهب الأصوليون إلى أن لازم المنع من التفسير بالفهم باطل ، إذ معنى ذلك إلغاء كثير من الأحكام ، ووجه الملازمة أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يفسر كل آية من القرآن .

□ الحقيقة الثانية : إن الخلاف بين المفسرين القدماء في فهم كلمة أو آية أو آيات مشهور .. والخلاف كذلك بين روايتهم في ذلك أشهر ، وليرجع الشيخ الفاضل إلى تفاسير الطبرى وابن كثير والبعغى ، ليرى إختلاف فهم ابن عباس ، ومجاهد وعطية العوفى ، وقتادة ، والضحاك والطبرى ، والبعغى ، وابن كثير أنفسهم ، في تفسير ﴿ وأخذوا من مكان قريب ﴾ من الآية السابقة للآية موضوعة البحث من سورة سبأ وفي صدد القصة نفسها .

□ الحقيقة الثالثة : أن تقليد وجوه الفهم في القرآن إنما يذم إذا أدّى إلى تفسير المتشابه الذى لا يعلمه إلا الله ، أو إلى جعل المذهب أصلاً والتفسير تابعاً ولو كان ضعيفاً ، أو إلى الجزم بأن مراد الله كذا من غير دليل ، أو إلى التفسير بالاستحسان والهوى ، أو كان فهماً بغير حصول علوم القرآن ، وليس في فهمى للآية المذكورة - بحمد الله - إتجاه من هذه الاتجاهات الخائفة .

(٢) أخرجه البخارى في كتاب العلم .

□ الحقيقة الرابعة : إن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، (وخير ما فسرته بالوارد) كما يقول الأصوليون ، وقد كنت في تعقيباتي على كتاب المشاهد^(١) أنظر إلى القرآن وحدة متكاملة متكافئة في التعبير والتفسير ، وكذلك فعلت في فهمي لهذه الآية : ﴿وقالوا آمنا به وأنتى لهم التناوش من مكان بعيد﴾ فقد نظرت إلى آيتين أخريين من القرآن إحداهما : ﴿واذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾^(٢) وهناك آيات أخرى مثيلات تصرّح بأن الكفار كانوا يكذبون بعذاب الله ويستعجلونه سخرية وتعجيزاً ، وثانية الآيتين قوله تبارك وتعالى : ﴿يوم يُدْعَوْنَ إلى نار جهنم دعاً﴾^(٣) واخواتها كثيرات وجميعها تدل على أن الكفار يسحبون يوم القيامة إلى جهنم على وجوههم مغلّين مكبلين .. ونظرت مع ذلك إلى اللفظ القرآني «التناوش» ففهمته على حقيقته اللغوية ؛ وهذا ما توجه أصول التفسير في هذا المقام ، فاتّبيت إلى ما اسلفت من فهم للآية لا يخالف نصّاً ، ولا يجانف عقيدة ، ولا يفضى إلى تحريم حلال ، ولا تحليل حرام .

□ الحقيقة الخامسة : من الوجوه التي يقبل فيها تقلاب الفهم في القرآن الا يتعارض مع النقل كلياً ، وليرجع الشيخ الفاضل إلى اختلاف القدماء في فهم : ﴿الصراط المستقيم﴾ على أربعة وجوه تتغاير ولا تتنافى ، وفهم قوله عز وجل : ﴿فمنهم ظالم لنفسه ،

(١) كتاب «مشاهد القيامة في القرآن» للاستاذ سيد قطب رحمه الله .

(٢) سورة الانفال/٣٢ .

(٣) سورة الطور/١٣ .

ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴿ على سبعة وجوه تتغير ولا تتنافى أيضاً . وفهمى للآية المذكورة على أن ﴿آمنا به﴾ معناه العذاب وإن كان يغاير فهم غيرى بأنه الإيمان أو القرآن أو النبى الخ .. الا انه لا ينافى الحقيقة المقصودة بذلك وهى الإيمان والتصديق حيث لا ينفع الإيمان والتصديق .

إيمان الكفار بالعذاب فى الآخرة :

بقى أن نأتى على نقداً الشيخ الفاضل الأخرى :
 □ أولاً : قال الشيخ «كيف يؤمن الكفار بالعذاب يوم القيامة وقد رأوه وإنما يكون الإيمان بالغيب» . وقد عجل الشيخ بانكار الإيمان بالمشهود ، ولو رجع إلى بعض صفحات المصحف لوجد فيه هذه الآية : ﴿قالوا من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ وهى تقرر إيمان الكفار بوعد الرحمن وصدق المرسلين بعد أن شهدوهما ممثلين فى البعث من القبور ، وقد كانوا مكذبين به من قبل ، وهذه الآية : ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم ..﴾ فإن فى قولهم «نعم» وقد كانوا من قبل يقولون «لا» تصريحاً بإيمانهم بما رأوه رأى العين من العذاب الموعود الذى كانوا يكذبون به ويسخرون منه ، وهذه الآية : ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ فإنها تقرر إيقان الكفار - بعد شكهم فى الدنيا - بما رأوه فى الآخرة من موعود الجزاء - وهذه الآية : ﴿هل ينظرون الا

تأويله ؟ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق .. ﴿ فإنها تؤكد أن الكفار في الآخرة يتذكرون مانسوه في الدنيا ، ويؤمنون بما كفروا به ، ويستيقنون ما جحدوه .. وغير هذه الآيات كثيرة في القرآن وهل تدل دلالة صارخة على أن الإيمان بالمشهود يوم القيامة الموعود به في الدنيا : حقيقة من حقائق أخلاق الكافرين .

عودة الضمير على غير مذكور :

□ ثانيا : قال الشيخ : «ولا ذكر للملائكة في الآية ولا في ما قبلها فكيف يستند التناوش إليهم» وحسبنا أن نورد خمس آيات قرآنية اسندت أو أضيفت فيها أفعال إلى غير مذكور ، كما هو صحيح في اللغة وبلاغتها ؛ أولا هن : ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ والثالثة : ﴿فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب﴾ والرابعة : ﴿ولئن أرسلنا ريحا فأروه مصفرا﴾ والخامسة : ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ فان الأرض والشمس والزرع والقرآن لم يسبق لها ذكر في الآيات ... ولا فيما بعدها أيضاً ..

العبرة بعموم اللفظ في تفسير القرآن :

□ ثالثاً : قال الشيخ : إن آية ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ لم تنزل في تدبر القرآن ، وإنما نزلت في أرجاف المنافقين بأخبار غزوات المسلمين . وهذه

حقيقة لا يعلمنا الشيخ إياها ، فنحن وهو نعلم أيضاً أن العبرة عند المفسرين بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، على أن آيات أخرى من القرآن قد أيدت احتمال هذه الآيات مطالبة المسلمين بالتدبر والتفكير والاستنباط في القرآن ، وقد استدل سلف الأصوليين بها على تقلاب وجوه الفهم في القرآن فنحن في الاستدلال بها إنما اتبعنا وما ابتدعنا ..

القرآن يفسر بعضه بعضاً :

□ رابعاً : أنكر الشيخ قولى : إن القرآن «وحدة متكاملة متكافئة في التعبير والتفسير» مدعياً أن هذا كلام عصرى لا يجيزه السلف ، وأن نصيب الضئيل من قواعد اللغة قد خانتى في إطلاقه ، ونحن نسأل الشيخ ما الفرق بين تعبيرى هذا ، وتعبير سلف الأصوليين «القرآن يفسر بعضه بعضاً ، وخير ما فسرته بالوارد» فإنما أردت بقولى قولهم ، وعنت معناتهم ، بل أتبع تعبيرى هذا بتعبيرهم توضيحاً وتوكيداً .

نقول هذا للشيخ إن كان الشيخ يعنى بمعارضته لرأينا في تكامل القرآن وتكافله معارضة لفظية ، أما إن كان إنكاره للمعنوية فيه ، فليستمع معنا إلى هذه الآية من القرآن : ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾^(١) ثم إلى هذه الآية : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ مِمَّنْ كُنتُمْ ثُمَّ مِمَّنْ كُنتُمْ ثُمَّ مِمَّنْ كُنتُمْ آيَةُ الْبَقَرَةِ تَفْسِيرُ الْحَيَاتَيْنِ وَالْمَوْتَيْنِ فِي آيَةِ غَافِرٍ ، وَكَيْفَ فَصَلَّتْ وَرَبَّتْ

(١) سورة غافر/ ١١ .

(٢) سورة البقرة/ ٢٨ .

الآية الثانية ما أجمل في الآية الأولى ، وهذا ما عيناه بالتكامل
وليقرأ معنا أيضاً آية البقرة : ﴿فَتَلَقَى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ
عَلَيْهِ..﴾^(١) ثم إلى آية الأعراف : ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ
تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢) ليعرف حقيقة تكامل
القرآن تعبيراً وتكافله تفسيراً .

□ خامساً : رجعنا أخيراً إلى تفسير الامام البروسوى ، أحد علماء
القرن الثاني عشر الهجرى ، فوجدناه يقول بعد قوله تبارك وتعالى :
﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ : أى محمداً أو العذاب . وإذا كان
المكفور به فى الدنيا فى منطوق هذه الآية محمداً أو العذاب ، فالقول
بأن المؤمن به يوم القيامة فى الآية السابقة لها موضوع الجدل :
﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ محمد أو العذاب الزم لتحقيق المقابلة اللفظية
والمعنوية بين الآيتين المتتابعتين .

وبعد فنحب أن نختم جدالنا للشيخ الفاضل بقولنا : إن
الإسلام ليس النصرانية ولا اليهودية ، وإن علماء المسلمين ليسوا
الكهان والرهبان والأحبار والقساوسة الذين يزعمون أنهم وسطاء
الناس إلى ربهم فى فهم أسرار كتبه وحل رموزها ، وتفسير
إشاراتنا . بل الإسلام دين التدبّر والتفكّر والتعقل والاتصال المباشر
بين الخالق والمخلوقين ، وكتابه ميسر للذكر والفهم والاعتبار عن
طريق الدليل والاقتناع ، وصدق الله منزل القرآن إذ قال عز وجل :

□ ﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ.. فَهَلْ مِنْ مَدَّكِرٍ؟﴾

□ ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ؟ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ؟﴾

(١) سورة البقرة/ ٢٧ .

(٢) سورة الأعراف/ ٢٣ .

حول مفهوم الآية :

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾
عاد الأستاذ «أحمد حسن الباقورى» - فى مجلة «العربى» العدد (١٦٩) فى شوال ١٣٩٢ هـ إلى القول باباحة الحكم بغير ما أنزل الله^(١) ، محاولاً نفي الخرج عن حكام المسلمين الذين يحكمون دولهم وشعوبهم بالقوانين الوضعية .. مستنداً إلى اختيار «الفخر الرازى» فى كتابه «مفاتيح الغيب» لرأى عكرمة صاحب ابن عباس رضى الله عنها ، فى تفسير قول الله عز وجل : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الكافرون﴾ بأن الآية لا تتناول الا من أنكر بقلبه وجحد بلسانه .

«فأما من عرف بقلبه أن هذا الحكم حكم الله ، وأقر بلسانه أنه حكم الله ، ثم أتى بما يضادّه ، فإنه على ذلك حاكمٌ بما أنزل الله ، وإن كان تاركاً له ، فلا يلزمه دخوله تحت هذه الآية ، واعتباره كافراً .

ثم قال الأستاذ «الباقورى» : إن هذا الرأى الذى قال به

(١) توفى الاستاذ الباقورى فى شهر ذى الحجة ١٤٠٥ - رحمه الله وغفر له - وقد كتب هذا الفصل فور نشر المرحوم لوجهة نظره التى نرد عليها ...
وتذكر الاستاذ الباقورى حديثه هذا فى اذاعة لندن بعد نشره فى مجلة «العربى» التى تصدر بالكويت .

عكرمة . وزكاه صاحب المفاتيح ينفي حرجاً عن الأمة لا قبل لها به ، ولا خيرة لها فيه ، إذ يستطيع القائلون به أن يتعلقوا بقضية العموم في الآية ، فيرموا بالكفر حكام امتنا الذين يستمدون القوانين واللوائح والاشتراعات من قوانين عالمية لا صلة لها بالإسلام . وأورد الشيخ «الباقورى» ثلاث آيات من القرآن الكريم ، زعم أن الناس تركوا الحكم بها ، دون أن يتعرضوا بهذا الترك للحكم عليهم بأنهم كفرة أو فجرة !

□ الآية الأولى : ﴿وَإِذَا حضر القسمة أولو القربى والمساكين ، فارزقوهم منه ، وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ .

□ الآية الثانية : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَذِنَكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ : مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ، وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ ، وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ..﴾ .

□ الآية الثالثة : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ .

يقول الشيخ «الباقورى» إن الناس قد تركوا أحكام هذه الآيات الثلاث ، فلم يؤدوا حق ذوى القربى واليتامى والمساكين من القسمة لهم إذا حضروها ، كما أنهم تهاونوا في الاستئذان عليهم من ممالكهم وخدمهم وأولادهم في الأوقات المذكورة - وإن النبي ﷺ قد أمر بتزواج السادة والموالى ، ومع ذلك لم ينزل المسلمون على حكمه فهم يأنفون من تزويج بناتهم لمواليهم الخ ..



ولعل القارئ قد لاحظ أني قلت في فاتحة حوارى هذا مع الشيخ «الباقورى» إنه «عاد ..» إلى القول باباحة الحكم بغير ما أنزل الله ، وقد قصدت ذلك قصداً ، لأن الأستاذ «الباقورى» سبق أن أعلن الرأى نفسه عام ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م عندما كان وزيراً للأوقاف فى حكومة الرئيس عبدالناصر ، فقد سئل : لماذا لا تطبق الدولة القائمة فى بلدها أحكام الشريعة الاسلامية ، ورجالها الحاكمون يقرأون قول الله تبارك وتعالى : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ - وفى آية ثانية : ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ وفى آية ثالثة : ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ ؟!

فأجاب : «إن هذه الآيات لا يقصد بها جاعة المسلمين ، لأن المسلم مادام يشهد أن الله خالق هذا الكون ، وأن القرآن كلام الله وان محمداً رسول الله ، فلا يخرج به بعد ذلك من الإسلام شىء الا إذا أنكر من الدين معلوماً بالضرورة ، فاذا لم يعمل المسلم ببعض تشريعات الاسلام ، فغاية ما يحكم به عليه هو أنه مذب ، ولا يجوز عليه الحكم بالكفر والخروج من الدين» !

ثم قال : «إن حكام البلاد الاسلامية اليوم هم فى حالة الضرورة التى تبيح بعض المحظور ، على أن يرتقبوا الوقت المناسب حين تكون للأمة قوة تحمى بها تقاليدها وشرائعها ومدنيتها ، والاسلام نفسه سلك هذا المسلك فعلم أولاً على تكوين العقيدة فى الأمة ، ثم على تكوين شريعتها ، والقرآن مكيه ومدنيه يؤيد ذلك» !

وقد علّقت على كلام الشيخ «الباقورى» يومذاك مجلة «الدعوة»

التي كان يديرها الأستاذ صالح عشاوى - رحمه الله - بقولها :
«كان الشيخ الباقرى فى إجابته سياسياً ودبلوماسياً .. أكثر منه عالماً
وفقيهاً» !!

أقوال المفسرين ونقولهم :

ونبدأ الآن حوارنا مع الشيخ «الباقرى» بإيراد موجز من أقوال
فريق من المفسرين والمحدثين ونقولهم عن بعض الصحابة والتابعين :
□ أولاً : الامام الطبرى ينقل فى تفسيره «جامع البيان» رواية عن
ابن عباس : «ان الحكم بغير ما أنزل الله كفر به .. وليس كفراً بالله
وملائكته وكتبه ورسله ؛ ورواية عن الشعبي : أن المقصود
«بالكافرون» المسلمون «وبالظالمون» اليهود «وبالفاسيقون» النصارى -
ورواية عن جماعة الفقهاء : أن المراد بالآيات جميع الناس
مسلموهم وكفارهم ؛ ورواية أخرى عن ابن عباس والسدى : «أن
من لم يحكم بما أنزل الله وتركه عمداً وهو يعلم ، فهو من
الكافرين» .

ومع ما هو واضح من معانى الآيات ، ومقاصد نزولها ،
وحقيقة شمولها ، ومع ما أورده الطبرى من مذاهب الأئمة والفقهاء
والعلماء ؛ جاء رأيه أخيراً بأن الآيات : «إنما نزلت فى كفار أهل
الكتاب ، فكونها خبراً عنهم أولى» ! .

ونحن نجل الامام الطبرى ونعرف له مكانته فى تفسير القرآن
الكریم ، ولكننا مع ذلك نرى أنه برأيه فى تفسير هذه الآيات ، إنما
أراد أن يتهرب من مسئولية تقرير حكم حاسم فى مفهومها الصريح ،

والا فلماذا بدأ هو نفسه الكلام في تفسيرها ، وروى من آراء الصحابة والتابعين ما يدل دلالة واضحة على أن وصم القرآن لأهل الكتاب بالكفر والظلم والفسوق كان حكماً عليهم لاقترافهم إبدال عقوبة وضعية بعقوبة سماوية قررتها التوراة وصدقها الانجيل .. إزاء القتل والزنا مع علمهم بحكم الله ، واتفاقهم على التحريف والتبديل ، كما يفعل اليوم فقهاء القانون الحديث ، في بعض الدول الاسلامية - بل معظمها - من إلغاء الحدود الشرعية ، كحد السرقة والزنا والقتل العمد ، بدعوى قسوتها ووحشتها وعدم ملائمتها لحضارة القرن العشرين بزعهم !

وعلى ذلك نرى أنه لا يلزم للحكم بالكفر على من لم يحكم بما أنزل الله : أن يكون جاحداً للشرائع الإلهية .. فاليهود فيما مضى وقد نزلت فيهم الآية وفقهاء القانون الحديث من المسلمين - لم يحدوها ولكنهم استفظعوها .

ولو فرضنا - جدلاً - أن الآيات خبرٌ عن أهل الكتاب كما يرى الطبرى : فهل جاءت أخبار القرآن عبثاً ومسلاة أم جاءت للعظة والاعتبار ؟ وكيف نقف إزاء الآيات القرآنية المحكمة ، والأحاديث النبوية الصحيحة التي تنذرنا عاقبة الاقتداء بأهل الكتاب فيما فعلوه من اغفال الشرائع الإلهية ، وإبدالها بدساتير وضعية ؟ وما هي قيمة رسالة الاسلام إذا كان ظهورها لم يُطهر العالم من جهالات أهل الكتاب وأرجاسهم ؟ بل ما قيمتها إذا لم تفصح من مخازيهم مستوراً ، وتشر من فضائل دينهم مقبوراً ؟ ثم ما هو « امتياز » الاسلام على اليهودية والنصرانية ؟ وما هو « فضل » المسلمين على

اليهود والنصارى .. إذا تساوا معهم في الحكم بغير ما أنزل الله ؟
أليسوا إذن سواء .

□ ثانياً : الامام الألوسي يرى في تفسيره (روح المعاني) : «أن الآية عامة شاملة لكل من لم يحكم بما أنزل الله تعالى ، فيدخل الفاسق المصدّق أيضاً لأنه غير حاكم وعامل بما أنزل الله تعالى ، فإن الحكم : هو التصديق ، ولا نزاع في كفر من لم يصدّق بما أنزل الله تعالى ، ولا شك أن من لم يحكم بما أنزل الله تعالى يكون غير مصدّق ، ولا نزاع في كفره» ! ونقل الألوسي عن ابن عباس قوله : «إن الآية خطاب عام لليهود وغيرهم ، وإنه ليس كفراً ينقل من الملة ، ولكنه كفر دون كفر» !

□ ثالثاً : الامام القرطبي نقل في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» عن ابن مسعود والحسن قولهما : «إن الآية عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار - معتقداً ذلك مستحلاً له ، أما من فعل ذلك وهو معتقد حرمة فهو من فساق المسلمين» .

□ رابعاً : الامام الزمخشري نقل في تفسيره «الكشاف» عن ابن مسعود أن الآية عامة في اليهود وغيرهم - وعن حذيفة ابن اليمان قوله : أتم أشبه الأمم سيمّا بنى اسرائيل لتركبن طريقهم حذو النعل بالنعل !

□ خامساً : السيد رشيد رضا يروى في تفسير «المنار» مقالة حذيفة ابن اليمان بنصها وهي : إن هذه الآية ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ ذكرت عند حذيفة ، فقال رجل : إن هذه الآية في بنى اسرائيل ؛ فقال حذيفة : نعم الإخوة

لكم بنو اسرائيل .. إن كان لكم كل حلوة ولهم كل مرة .. كلا والله لتسلكن طريقهم قدر الشراك» أى سير النعل .

قلت : فى مقالة حذيفة ردُّ على الإمام الطبرى الذى يرى أن الآيات خبرٌ عن أهل الكتاب .. أى أن لنا كل حلوة ولهم كل مرة كما قال حذيفة مستنكراً وساخراً ممن يفهم هذا الفهم العجيب !!

ونقل السيد رشيد رضا مثل مقالة حذيفة عن ابن عباس كأنه يرى ذلك حاصلاً فى المسلمين ، ثم قال السيد رضا : «فمن أعرض عن الحكم بحد السرقة أو الزنا أو القذف لاستقباحه إياه وتفضيل غيره من أوضاع البشر عليه ، فهو كافر قطعاً ، ومن لم يحكم به لعلّة أخرى فهو ظالم إن كان فى ذلك إضاعة الحق ، وترك العدل ، والمساواة فيه . والا فهو فاسق فقط ، إذ لفظ الفسق أعم هذه الألفاظ ، فكل كافر وكل ظالم فاسق ، ولا عكس» .

□ سادساً : نجد العالم الشهيد «سيد قطب» رحمه الله فى تفسير «الظلال» يبحث المسألة بعمق وشمول ، ناظراً فيها كقضية كلية وفى كل ما ورد فى القرآن عنها . إنه يرى أن القرآن يقرر «حتمية» الحكم بما أنزل الله .. وأن السياق القرآنى لهذه الآيات يقرر أولاً : توافق الديانات التى جاءت من عند الله كلها على تحميم الحكم بما أنزل الله وإقامة الحياة كلها على شريعة الله ، وجعل هذا الأمر مفرق الطريق بين الإيمان والكفر .. فالتوراة أنزلها الله فيها هدى ونور .. والإنجيل آتاه الله عيسى ابن مريم مصداقاً للتوراة ، وهدى وموعظةً للمتقين ، والقرآن أنزله الله على رسوله محمد ﷺ مصداقاً لما بين يديه من الكتاب ، ومهيماً عليه وقال له : ﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله ،

ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق» .

ثم يرى الأستاذ سيد قطب : أن المسألة خطيرة ، والتشدد فيها على هذا النحو «أى برمى من لم يحكم بما أنزل الله بالكفر والظلم والفسوق» يستند إلى أسباب خطيرة كذلك ، ويفصل هذه الأسباب ، فيذكر أن الاعتبار الأول فى هذه القضية : هو أنها قضية الإقرار بالوهمية الله وربوبيته وقوامته على البشر بلا شريك - أو رفض هذا الإقرار ومن هنا كانت قضية كفر أو إيمان ، وجاهلية أو اسلام !

ويتحدث الأستاذ قطب عن الاعتبارات الأخرى - بما لا يتسع المجال هنا لایراده - كأفضلية الحكم بما أنزل الله لأنه منهج قائم على علم الله بحقيقة الكائن الحى وحاجاته - وهو قائم أيضاً على العدل الألهى المطلق - ومتناسق مع نواميس الكون كله - وهو منهج يحرر الانسان من العبودية لغير الله . «ولذلك فالحكم بغير ما أنزل الله معناه الشر والفساد والخروج فى النهاية عن نطاق الايمان بنص القرآن» !

هذه أقوال بعض المفسرين القدامى والمتحدثين ، ونقولهم عن الصحابة والتابعين ، ويتضح منها :

١ - رأى ابن عباس وابن مسعود والحسن والسدى رضى الله عنهم : أن الآيات خطاب عام لليهود وغيرهم ، وأنها عامة فى كل من لم يحكم بما أنزل الله ...

٢ - قول الألوسى : إن الآية شاملة لكل من لم يحكم بما أنزل الله .. وان من لم يحكم بما أنزل الله يكون غير مصدق ، ولا

نزاع في كفره .

٣ - قول رشيد رضا : إن من أعرض عن الحكم بما أنزل الله مستقبحاً إياه ومفضلاً لغيره عليه من قوانين البشر فهو كافر قطعاً ، والا فهو ظالم أو فاسق ، والفسق يشمل الكفر والظلم !

٤ - رأى سيد قطب : أن القرآن كله ، وليست هذه الآية وحدها .. يحكم بكفر من يحكم بغير ما أنزل الله !

٥ - سخرية الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان ممن فهم أن الآية تعني اليهود وحدهم وقوله : لتسلكن طريقهم حذو النعل بالنعل !!

آيات أخرى ملزمة بالحكم بما أنزل الله :

وهناك آيات قرآنية صريحة ... لا تحتل التأويل ، ولا اختلاف الآراء حولها وحول حكمها الصارم بوجوب الحكم بما أنزل الله ، ونفى الإيمان ممن لا يقبل بشريعة الله حكماً ؛ من ذلك قوله عز وجل :

□ ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله...﴾

□ ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسلياً...﴾

□ ﴿فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول .. إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر...﴾

□ ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ..﴾ ؟

□ ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ...﴾

□ ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِ الْحَقُّ ، وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ...﴾

□ ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ . ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ..﴾

□ ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ، لَهُ الْحُكْمُ .. وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ..﴾

□ ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ ..﴾

□ ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ : أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا . وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .﴾

ونلاحظ في الآيتين (٧ و ٨) وغيرهما مما لم نذكره - أن الله عز وجل حين يفرض عبادته وحده دون الآلهة الأخرى الباطلة .. يفرض أيضاً في الآية نفسها الاحتكام إلى شريعته ، فكما لا تجوز عبادة غيره لا يجوز كذلك الحكم بغير ما أنزل من شريعة عادلة فاضلة .

ويؤيد اعتبار الحكم بغير ما أنزل الله من شريعة عبادةً لغيره - سبحانه - حديث عدى بن حاتم الذي قال فيه : «أتيت النبي ﷺ ، وفي عتقي صليب من ذهب . فقال : ما هذا يا عدى ؟ أطرحتك هذا الوثن .. وسمعت يقرأ : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فقلت : يا رسول الله ما كنا نعبدكم فقال : ألم يكونوا يحرمون عليكم ما أحل الله فتحرمونه ، ويحلون لكم ما حرم

الله فتحلونه ؟ قلت : بلى قال : فتلك عبادتهم»^(١)
 وفى قوله عز وجل : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ نذير بأن من أطاع غير الله فيما يشرع مخالفاً لشرع الله
 يكون مشركاً مع الله غيره ..
 وللعلماء - من مفسرين وفقهاء - تعليقات على الآيات القرآنية
 التى اثبتناها آنفاً ..

يقول الامام ابن القيم : أقسم سبحانه بنفسه على نفي الإيمان
 عن العباد حتى يحكموا رسوله فى كل ما شجر بينهم من الدقيق
 والجليل ، ولم يكتف فى إيمانهم بهذا التحكيم بمجردة حتى يتنى عن
 صدورهم الحرج والضيق بقضائه وحكمه ، ولم يكتف منهم بذلك
 أيضاً حتى يسلّموا تسليماً وينقادوا انقياداً»^(٢)

ويقول الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب : من نواقض
 الاسلام الاعتقاد بأن غير هدى الاسلام أكمل من هديه ، وأن
 حكم غيره أحسن من حكمه ، وكذلك اعتقاد بعض الناس أنه
 يسعه الخروج من شريعة محمد ﷺ .^(٣)

وافتى الإمام ابن تيمية فى مسألة عن قتال التتار - مع تمسكهم
 بالشهادتين وزعمهم أنهم متبعين لأصل الاسلام : فقال : «كل
 طائفة ممتعة عن التزام شرائع الاسلام الظاهرة المتواترة من هؤلاء
 القوم وغيرهم .. فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه ، وإن كانوا
 ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه كما قاتل أبو بكر والصحابه

(١) أخرجه الترمذى .

(٢) أعلام الموقعين ج١/ص ٥١ .

(٣) كتاب التوحيد/ ٢٧٨ .

رضوان الله عليهم مانعى الزكاة ، وعلى ذلك اتفق الفقهاء بعدهم» .

ويقول ابن حزم ، فى الملل والنحل ، تعليقاً على الآية : ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ هذا نص لا يحتمل تأويلاً ، ولا جاء نص يخرججه عن ظاهره أصلاً ، ولا جاء برهان بتخصيصه فى بعض وجوه الإيمان» .

ويرى ابن كثير ، فى تفسيره أن الآية : ﴿فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ .. تدل على أن من لم يتحاكم فى محل النزاع إلى الكتاب والسنة ، ولا يرجع إليها فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر» .

ويقول الزركشى ، فى البرهان ، فى قوله : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ؛ وفى الثانية : فأولئك هم الظالمون ؛ وفى الثالثة فأولئك هم الفاسقون﴾ الكافر والظالم والفاسق كلها بمعنى واحد ، وهو (الكفر) عبّر عنه بألفاظ مختلفة لزيادة الفائدة واجتناب صور التكرار .

ويقول الأستاذ سيد قطب : إن النص القرآنى يسوّى فى الوصف بالشرك واتخاذ الأرباب من دون الله .. بين اليهود الذين قبلوا التشريع من أحبارهم واطاعوهم واتبعوهم وبين النصارى الذين قالوا بالوهمية المسيح اعتقاداً ، وقدموا إليه الشعائر فى العبادة ، فهذه كتلك فى اعتبار فاعلها مشركاً بالله الشرك الذى

يخرجه من عداد المؤمنين ويدخله في عداد الكافرين .^(١)
كما يقول الأستاذ سيد أيضاً : جاءت كلمتا (الظالمون
والفاسقون) في القرآن وصفاً للكافرين .. في قوله عز وجل : ﴿إِنَّ
الشُّرَكَاءَ لِلظَّالِمِ كَظَمٍ عَظِيمٍ﴾ وقوله أيضاً : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ
بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ كما وصف القرآن الكريم
بالفسق إبليس : ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ ووصف
بالفسق أيضاً أهل الكتاب الذين كفروا بمحمد ﷺ : ﴿وَلَوْ كَانُوا
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ
فَاسِقُونَ﴾ وفي قوله عز وجل : ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ حِكْمَةُ رَبِّكَ عَلَى
الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

ويقول الأستاذ سيد : أن صفة الألوهية لا تتحقق لله كاملة إلا
أن يكون حاكماً أيضاً ، فافراده بالحاكمة جزء من إفراده بالعبادة
وذلك بمقتضى التوحيد الخالص ... وكما قال عز وجل : ﴿وَمَنْ لَمْ
يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ يقصد الحاكمين قال
سبحانه - يقصد المحكومين : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يَحْكُمَوكَ
فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسَلِّمُوا
تَسْلِيمًا﴾^(٢)

قلت : وفي قوله تبارك وتعالى : ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ
وَأَطَعْنَا .. ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾
تأكيد لنفى الإيمان عمن لا يحتكم إلى الشريعة الإسلامية كما جاء في

(١) في ظلال القرآن ج/١٠ ص/٢٠٣ .

(٢) في ظلال القرآن ص ٣٢/ج ١٣ .

الآيتين : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ و ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ..﴾ وذلك في قوله تبارك وتعالى : ﴿وَمَا أَوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ إذ أنهم قالوا بأفواههم آمنا بالله وبالرسول وأطعنا .. ثم تولوا عملياً وسلوكياً عن تطبيق شريعته .

تبريرات الشيخ الباقورى :

يرى الأستاذ «الباقورى» أن حكام البلاد الاسلامية الذين لا يحكمون بما أنزل الله هم اليوم في حالة الضرورة التي تبيح المخطور ، وأنهم يرتقبون الوقت المناسب حتى تكون الأمة قوية بعد خروج العدو من أرضها ، فتستطيع أن تحمي تقاليدها وشريعته . ولا ندرى كيف نسي الأستاذ «الباقورى» النذير النبوى : (ما حكم قوم قوم يغير ما أنزل الله الا سلط عليهم عدوهم فاستنفذ ما عندهم) ؟

وفي رواية أخرى : (ما حكم قوم بغير كتاب الله وتخيروا فيما أنزل الله عليهم الا جعل الله بأسهم بينهم) . وكيف نسي أيضاً موعظة الإمام الشهيد «حسن البنا» رحمه الله : (أخرجوا المستعمر من نفوسكم يخرج من أرضكم) .

وصدق الإمام الشهيد .. فعلى الرغم من خروج المستعمر من البلاد الاسلامية - خلال ربع القرن الماضى - فإن قوانينهم وثقافتهم ومناهج تعليمهم وتربيتهم ، واقتصادهم وإعلامهم من صحافة وإذاعة وتلفاز .. كل أولئك مازالت محكومة بأفكار المستعمر ونظرياته وتقاليده وتشريعاته .

وإن ضعف الأمم العربية ، والاسلامية عامة ، مع هذا «الاستعمار الفكرى ، والأخلاقى ، والتشريعى ، والاقتصادى ، والتربوى الذى تخضع له راضية طائعة - سببه الوحيد الفريد : هو أن المستعمر لم يخرج - بعد من قلوبها وعقولها .. وهى نفسها لا تريده أن يخرج .. متعمدة قاصدة مصرة على هجرها لأحكام الاسلام وآداب المسلمين .

ومادام خروج المستعمر مادياً وعسكرياً قد تم ، ولم يعد الأحكام المسلمون إلى شريعة الله يحكمونها فيما بين شعوبهم وأممهم لأن استعماراً فكرياً وخلُقياً قد خلفه عليهم .. فإنه لا بدّ من احلال (الاسلام) محل هذا الاستعمار الفكرى والأخلاقى ليغادرهم إلى غير رجعة .. والا فسوف ننتظر مع الشيخ الباقورى حتى يلج الجمل فى سم الخياط .

إن واقع الدول الاسلامية الآن يؤكّد بوضوح : أنها ليست مرغمة على البقاء فى تشريعات مستعمرها السابقين ، وقد قامت بوضع دساتير جديدة للحكم فيها .. تهربت فيها من القول بأن المصدر الرئيسى للتشريع هو الاسلام ، وجعلته أحد مصادر التشريع فقط !!

ومع ذلك يرى الشيخ (الباقورى) أنهم فى حالة ضرورة تبجح المحذور ، وانه لا يجوز أن نفهم الآية على عمومها لثلا نضعهم فى موقف حرج ، لا قبل لهم به !!



أما قول (الباقورى) أن الاسلام بدأت دعوته بتكوين العقيدة

أولاً ، ثم انتهت بالتشريع ثانياً ، وعلينا أن نمهل الحكام المسلمين حتى ينتهوا من تربية رعاياهم على العقيدة الاسلامية وعندئذ نطالبهم بالحكم بين الرعايا بشريعة الاسلام ، فهذا قياس مع الفارق البعيد .. فالشعوب الاسلامية اليوم لا تعيش جاهلية كجاهلية العرب الأولى قبل ظهور الاسلام ، وإن كانت تعيش جاهلية عصرية نقلتها عن الحضارة الغربية !

والشعوب الإسلامية هي التي تطالب اليوم حكامها بتطبيق شريعة الله في أحكامها المدنية والجنائية وليست هي (المانع) من التطبيق ، وإنما هو الاستعمار الفكرى والأخلاقي والسياسي - كما أسلفنا - الذي يمنعهم عن الحكم بما أنزل الله من كتاب .

والشعوب الاسلامية يعرف معظم أفرادها أركان الاسلام وأركان الإيمان ، ويؤدون الفرائض وقيمون الحدود ، ومن يهمل منهم شيئاً من ذلك فبسبب جهله أو إهمال حكومته لواجب الإرشاد والتوجيه ، والأخذ على أيدي المقصرين بالعقاب والزجر . وهذه الجوامع والجامعات والمدارس والمعاهد والهيئات والجمعيات الاسلامية ، وهذه الكتب والموسوعات والبحوث والصحف ، والمجلات والإذاعات .. أليست منابر ومعارض ومجاهر للإسلام عقيدةً وشريعةً وخلقاً ! وهل نحن حديثو عهد بالاسلام حتى نبتدىء الآن بتكوين عقيدتنا ، ونهمل شريعتنا ؟ .



أما الآيات الثلاث التي أوردها الشيخ (الباقوري) والتي تتضمن بعض الآداب الاسلامية : (وهي الاستئذان في الأوقات الثلاثة

والقسمة لأولى القرني والمساكين والايتام وتزويج الموالى من بنات السادة) وقوله : إن المسلمين لا يطبقونها ومع ذلك لم يتعرض لهم أحدٌ بأنهم كفرة أو فجرة !!

.. فان ما تضمنته الآيات من آداب ووصايا هي كالآداب والوصايا التي يوجهها القرآن والسنة النبوية عن قول الصدق ، والصبر ، والوفاء بالعهد ، وبر الوالدين ، والاحسان إلى الجيرة ، وترك الظن السيئ الخ .. وإذا كان هناك بعض الأفراد في المجتمعات الاسلامية لا يلتزم بها .. فهي أخطاء وذنوب فردية يكاد لا يسلم منها إلا القليل .

وبين مخالفة هذه الآداب والوصايا ، وعدم الحكم بما أنزل الله فرق فارق - لأن الحكم بغير كتاب الله يعنى الدولة والمجتمع كلها ، ويعنى إهمال شريعة الله كلية بما فيها من حدود وعقود ، نص القرآن والأمة والحديث النبوى على وجوب التزامها ومن أجلها أرسل الرسول ، وأنزل القرآن . ومن أجلها كذلك أرسل موسى وعيسى وأنزلت التوراة والانجيل ، ولذلك حكم القرآن على من لم يحكم بما أنزل الله أنه كافر ، أو وظالم ، أو فاسق .

ويقول الامام الغزالي في «المستصفى - ٤٢/١ : «إن خطاب الشرع إما أن يرد باقتضاء الفعل أو اقتضاء الترك ، فان اقترن بالأول إشعار بالعقاب كان واجباً وإذا لم يقترن كان ندباً .. وإذا اقترن بالثاني إشعار بالعقاب فهو حظر والا فهو كراهية ..» .

وقد خلت آيات الاستئذان والقسمة والمساواة بين السادة والموالى من إشعار بعقاب ، وهي تتضمن خطاباً يقتضى الفعل ،

فتكون إذن للندب والترغيب .

وإذا رجعنا إلى تفسير الآيات الثلاث وما روى عن السلف فيها تبين لنا أنها كما قلنا من قبيل الندب والترغيب ، وليست أحكاماً كأحكام الزواج والطلاق وحدود الزنا والسرقة وأمثالها .

□ فمثلاً .. آية القسمة : يقول الإمام القرطبي في كتابه «الجامع لأحكام القرآن» : بين الله أن من لم يستحق شيئاً إرثاً وحضر القسمة ، وكان من الأقارب واليتامى والفقراء الذين لا يرثون : أن يكرموا ولا يحرموا إن كان المال كثيراً ، والاعتذار إليهم إن كان عقاراً أو قليلاً لا يقبل العطاء - قاله ابن عباس ، وروى عنه أيضاً أنها منسوخة بآية الميراث والوصية . ومن قال بنسخها أبو مالك وعكرمة والضحاك - قال النحاسي : أحسن ما قيل في الآية أن يكون على الندب والترغيب في فعل الخير الخ ..

□ أما آية الاستئذان فقد فصل القول فيها الإمام ابن القيم في كتابه «زاد المعاد في هدى خير العباد» وأورد أقوال عدد من العلماء : منها أنها منسوخة - أو أنها أمر ندب - أو أنها خاصة بالنساء ، وقالت طائفة إنها محكمة - ثم قال ابن القيم : والصحيح أن الحكم فيها معلل بعلّة قد أشارت إليها الآية فإن كان هناك ما يقوم مقام الاستئذان من فتح باب فتحه دليل على الدخول ، أو رفع ستر ، أو تردد الداخل والخارج ونحوه ... أغنى ذلك عن الاستئذان ، وإن لم يكن ما يقوم مقامه فلا بد منه ، فإذا وجدت العلة وجد الحكم ، وإذا انتفت انتفى .

ومما نقله ابن القيم - في موضوع الآية - قول لابن عباس : إن

الناس لم يكن لبيوتهم ستور ، فربما دخل الخادم أو الولد أو يتيمة الرجل ، والرجل على أهله .. فأمرهم بالاستئذان في تلك العورات الثلاث ، ثم جاءهم الله بالستور والخير فلم أر أحداً يعمل بذلك بعد» .

قلت : وإذا كان الله جاء بالستور في عهد ابن عباس فقد جاء الله عز وجل الآن بالقصور ، وغرف النوم الخاصة والحمامات المقفلة !!

□ أما تزويج السادة بناتهم لمواليهم أو عدمه ، فهناك من فعله ومن لم يفعله أو استنكره قديماً وحديثاً .. بل في عهد الرسول ﷺ ، وقصة زينب بنت جحش معروفة لا تحتاج إلى سرد ، فقد انفقت وانف أخوها عبد الله من زواجها بزَيْد بن حارثة مولى الرسول ﷺ ، وهي ابنة عمته .. وعاشت معه على كره حتى طلقها . وهي مسألة اختيارية ، وليست فرضاً ، لأن الاسلام أعطى الحق للمرأة في قبولها بمن يخطبها ، أو رفضه ، وكما كرهت زينب الزواج من زيد .. كره الرسول ﷺ أن يتزوج على ابن أبي طالب - على ابنته فاطمة الزهراء - ابنة أبي جهل ، وقال عليه الصلاة والسلام : إن فاطمة بضعة مني ، وإني أخاف أن تفتن في دينها ، وإني لست أحرم حلالاً ولا أحل حراماً ، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله تحت رجل واحد^(١) ، ومع أن تعدد الزوجات مباح فلا الله ولا رسوله أوجب تزويج بنات السادة للموالى ، ولا أوجب القسمة على الحاضرين من غير الورثة ، ولا أوجب الاستئذان في

(١) اخراج الحديث البخارى ومسلم وأحمد وأبو داود .

البيوت إيجاباً كأحكام الحدود والعقود . وإنما هي آداب ، وأخلاق
ووصايا ، يخطيء الناس فيها ويصيئون .



وبعد فالقرآن كله يأمر بالحكم بشريعة الله المنزلة في كتابه ، وعلى
لسان رسوله ﷺ ، وحسبنا هذه الآية منه :

□ ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة﴾ أى الاسلام ، فلا
يجوز بل لا يقبل أن تؤمن ببعض ونكفر ببعض !

وإذا كان القرآن يقول لأهل الكتاب من يهود ونصارى : ﴿قل
يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما
أنزل إليكم من ربكم﴾ أى القرآن عقيدةً وشريعةً .. فنحن أولى
بالقرآن منهم ، ولسنا على شيء من الاسلام إذا لم نحكم به .
والله يقول الحق ، وهو يهدى النسييل ..

حول المفهوم القرآني للإمداد بالملائكة

هل هو حقيقة مادية .. أم تقوية معنوية ؟

كتب الدكتور وهبه الزحيلي عميد كلية الشريعة بدمشق في مجلة (حضارة الاسلام) الدمشقية^(١) عن الإمداد بالملائكة في غزوة بدر .. هل كان حقيقة مادية أم تقوية معنوية ؟ انتهى فيه الى القول : بأنه كان مجرد تقوية معنوية ، واعتمد على ما ظنه حجة له .. من الاستدلالات التالية :

□ أولاً : قال : إنه ليس في القرآن الكريم على أن الملائكة قاتلت بالفعل نصٌ قاطع - وإن الظاهر من الآيات مجتمعةً هو أن اشتراك الملائكة في معركة بدر كان عملاً روحياً - وأن بعض العلماء أنكروا قتال الملائكة يوم بدر ، فهم لم يقاتلوا فعلاً ، وإنما كانوا يكثرّون السواد ، ويثبتون المؤمنين ، والا فملك واحد كافٍ في إهلاك أهل الدنيا كلها ..

□ ثانياً : قال : وأما الروايات المنقولة عن اشتراك الملائكة في القتال فعلاً فلم يصح سندها - ومن أضعفها رواية الربيع ابن أنس فهي دعوى تناقض الحس ، إذ من الذي يستطيع قتل أحد من

(١) العدد الصادر في ربيع الاول ١٣٨٩ هـ .

الملائكة ، ورواية الربيع هذه هي قوله : كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوا بضرب فوق الأعناق ، وعلى البنان ، مثل سمة النار قد احرق به .

□ ثالثاً : ذكر الدكتور الزحيلي الآية القرآنية : ﴿إِذْ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان﴾^(١)

ثم قال : إن قوله سبحانه : ﴿سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب﴾ . من تمة خطاب الله للمؤمنين - وهو يقتضى أن قوله ، بعد ذلك - ﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ خطاب للمؤمنين وليس للملائكة ! .

□ رابعاً : قال : هل إذا خاضت الملائكة المعركة فعلاً يتحقق المقصود الشرعى من تكليف الناس بالجهاد الحق ؟ ثم قال : والخلاصة إن الأطناب بذكر اشتراك الملائكة فى القتال يوم بدر لا يتفق مع ما ثبت من مواقف البطولات لصحابة الرسول عليه السلام !

هذه هي الاستدلالات الرئيسية فى بحث الدكتور وهبه الزحيلي عن (الإمداد بالملائكة ..) وهناك فى ثنايا البحث آراء واستدلالات أخرى قد نشير إليها بعد استكمال التعقيب على ما انتهى إليه الكاتب الفاضل من أن الامداد بالملائكة كان لجرد تقوية المسلمين روحياً ، وليس هو إمداداً فعلياً اشتركت فيه الملائكة بالقتال مع المسلمين :

(١) سورة الانفال/ ١٢ .

النص القرآني موجود :

فأما قول الدكتور الزحيلي : إنه ليس في القرآن نص قاطعٌ على أن الملائكة قاتلت بالفعل إلى جانب المسلمين في غزوة بدر الخ . فإن الآية (١٢) من سورة الأنفال التي أوردتها هو نفسه في مقاله تعتبر نصاً قاطعاً على اشتراك الملائكة بالقتال . ففيها : ﴿فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان﴾ والخطاب أو الأمر موجهٌ هنا إلى الملائكة ، لا إلى المؤمنين كما وهم الدكتور ، لأن جملة الآية خاصة بخطاب الملائكة : ﴿إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألنى في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ .

فجملة ﴿سألنى في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ معترضة وهي خبر أو وعد من الله للملائكة وللمؤمنين معاً بأن الله سيلقى في أفئدة الكافرين الخوف من قتال المسلمين ، وجاء قبلها قوله : ﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾ وهو خطاب أو أمر للملائكة بشيبت المؤمنين ثم جاءت بعد الجملة الاعتراضية - الجملة المتفرعة عن الجملة الأولى الموجهة إلى الملائكة وهي قوله : ﴿فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان﴾ وهي حتماً خطابٌ وأمرٌ للملائكة بضرب الأعناق وضرب البنان الكافرين .. بل هي بيان لنوع (الثبوت) المأمور به في الجملة لأولى ، والملائكة - كما يصفهم القرآن الكريم - ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾^(١) .

(١) سورة التحريم/٦ .

وليس في الآية - كما يلاحظ القارئ المتفهم - قرينة لفظية أو معنوية تحول سياق الخطاب عن مقتضاه ، وتدل على إنهاء خطاب الله للملائكة وتوجيهه إلى المؤمنين ، فوجب اعتبارها كلها خطاباً للملائكة .

ويؤكد هذا المفهوم - باشتراك الملائكة فعلاً في القتال ما جاء في الآيتين التاليتين (١٣ و ١٤) من نفس السورة من قوله عز وجل تعليلاً وبياناً لايحائه أو أمره للملائكة بالقتال مع المؤمنين : ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾ وقوله أيضاً : ﴿ذلكم .. فذوقوه وإن للكافرين عذاب النار﴾ .

والمعنى الواضح الذي لا يحتاج إلى تأويل - هو أن هذا العقاب الشديد الذي أنزله الله بالكافرين إنما كان جزاء لهم على أنهم شاقوا الله ورسوله ، وأنه - أي العقاب الشديد - هو هذا الإمداد بالملائكة ليقاتلوا مع المؤمنين ، فيضربوا فوق الأعناق - ويضربوا منهم كل بنان .

ثم يقرعهم ، أي الكافرين ، ويؤيخهم ويشنى صدور قوم مؤمنين بقوله : ذلكم - أي قتال الملائكة مع المؤمنين وهو ما لا طاقة لهم به - فذوقوه .. في الدنيا ولكم في الآخرة أيضاً : عذاب النار ! .

نصوص قرآنية أخرى :

أما النصوص القرآنية المثبتة لإمداد الله وأصحابه بالملائكة في

غير بدر ، فآية الأحزاب واحدة منها ، وهى قوله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم : إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم رجلاً وجنوداً لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾ (١) .

وفى غزوة حنين يقول الله عز وجل من سورة التوبة : ﴿ لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضائق عليكم الأرض بما رحبت ، ثم ولّيم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴾ (٢) .

وفى هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام مع صاحبه أبى بكر رضى الله عنه إلى المدينة يقول تبارك وتعالى : ﴿ إذ أخرجه الذين كفروا ثانى إثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه ، وأئده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم ﴾ (٣) .

فهذه نصوص قرآنية صريحة على الإمداد المادى بالملائكة ، فى غير معركة بدر ، ولو كانت الملائكة نازلة أو منزلّة لمجرد التشييت والتحريض والتقوية المعنوية - كما يذهب الدكتور الزحيلي - لكفى عنها إنزال السكينة على الرسول وعلى أصحابه ، الوارد فى الآيتين (٣٦ و ٤٠) ولكانت الريح كافية عن جنود الملائكة ، الواردة فى

(١) الاحزاب/٩ .

(٢) التوبة/٢٥، ٢٦ .

(٣) التوبة/٤٠ .

الآية (٩) .

وهناك آية أخرى عامة في إمكان نزول الملائكة لتأييد المسلمين الصادقين على مدى الدهر ، وهي قوله عز وجل : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا : رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا ، وَلَا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ والآية التي تليها تؤكد معناها بقوة : ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾^(١) . وفي ذلك ردٌّ على الدكتور الزحيلي في قوله : «فلا ينتظر أحد من المسلمين اليوم حدوث مثل له في حروبنا» .

ولله جنود السموات والأرض :

هذا وقد وردت في القرآن الكريم نصوصٌ على أن لله جنوداً يسلطها بتأييد عباده المؤمنين ، وتحذيل الكافرين كقوله عز وجل : ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢) وقوله : ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^(٣) .

والتعبير بلفظة (جنود) يعنى القوة المادية ، سواء أكانت ممثلة في ملائكة أم في جن أم في ريح أم في طوفان ، ولو كان ذلك يعنى مجرد التأييد الإلهي روحياً أو نفسياً لكنفى فيه - كما أسلفنا - إنزال السكينة على قلوب المؤمنين ، أو إنزال النعاس أمانة عليهم - كما جاء في سورة آل عمران - أو إرسال الريح على المشركين لتشريدهم - كما جاء في سورة الأحزاب .

أما قول الدكتور : إن ملكاً واحداً يكفي لهلاك أهل الدنيا كلهم - فقد أنسى أصلح الله باله : أن جبريل عليه السلام كان ينزل

(١) سورة فصلت/ ٣٠، ٣١ .

(٢) سورة الفتح/ ٨، ٩ .

(٣) سورة المدثر/ ٣١ .

إلى النبي ﷺ في صورة بشرية ولم يره على شكله الملائكى الا مرتين^(١) . كما تمثل جبريل (المريم) عليها السلام (بشراً سوياً) عندما أرسل إليها ليهب لها : (غلاماً زكياً) في قصة ولادة المسيح عليه السلام من غير أب .

وقد جاء ملك الجبال مرة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام في فترة تكذيب المشركين له في مكة ، واستأمره أن يطبق عليهم الأخشبين ، فامتنع الرسول عن الإذن له ، وقال ما معناه : إني لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً . إذن فليس ضرورياً أن يشترك الملائكة مع المؤمنين في قتال الكافرين ، وهم على هيئاتهم وقدراتهم الملائكية . بل لعله من أسباب وعوامل ووسائل تثبيت المؤمنين واطمئنان نفوسهم : أن يكون الملائكة في أشكال بشرية ، ليأنسوا إليهم ، إذا اتفق لبعضهم أن يروهم ، كما جاء في بعض الروايات . ولا يمتنع رؤية بعض المسلمين لبعض الملائكة في بدر ، ما جاء في قوله عز وجل في القرآن (لم تروها) في الأحزاب وحنين وهجرة الرسول .

بعض ما جاء في الحديث والسيرة :

أما قول الربيع بن يونس : (كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوا بضرب فوق الأعناق وعلى البنان ..) فقد أساء الدكتور الزحيلي فهمه ، حين رأى انه ادعاء يناقض الحس والمعقول إذ من البذى يستطيع قتل أحد من الملائكة ؟ .

لقد فهم الدكتور من قوله : - يعرفون قتلى الملائكة - أى من

(١) كما جاء في حديث عائشة الذى رواه الشيخان والترمذى .

قتلهم المشركون من الملائكة ، وهذا غير وارد ، وغير مقصود ، إنما المفهوم الواضح والمقصود حقاً هو من قتلهم الملائكة من المشركين ، وهو من قبيل إضافة المفعول إلى فاعله - كما يقال صرعى الغوانى أى من صرعهم حب الغوانى !!

وفى تفسير الإمام ابن كثير قوله : (جاء فى الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يوم بدر فى العرش مع الصديق أبى بكر رضى الله عنه وهما يدعوان - وكان من دعاء الرسول : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد ؛ فأخذت الرسول سنة من النوم ، ثم استيقظ متبهاً فقال : أبشراً أبا بكر .. هذا جبريل آخذ بعنان فرسه على ثناياه النقع ، ثم خرج من العرش وهو يتلو قوله تبارك وتعالى : ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعَ وَيُولُونُ الدُّبُرَ﴾ (١) .

وفيه أيضاً قوله : (ثبت فى الصحيحين عن سعد بن أبى وقاص أنه قال : (رأيت يوم أحد عن يمين النبى وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه أشد القتال ما رأيتها قبل ذلك اليوم ولا بعده) (٢) .

وفى صحيح البخارى : (جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال : ما تعلون أهل بدر فيكم ؟ قال : من أفضل المسلمين ؛ قال جبريل : وكذلك من شهد بدرأً من الملائكة) .

وروى عن النبى ﷺ أنه قال : (ما روى أبليس ادحر ولا أخزى من يوم بدر - قالوا : وما رأى يوم بدر ؟ قال ﷺ : رأى جبريل يزع الملائكة أى يقودهم ويوجههم فى معركة بدر .

(١) ج/٢/ص/٢٩٠ .

(٢) ج/١/ص/٤١٥ .

وفي هذه الأحاديث تأييد لقول الربيع بن يونس الذي استبعده واستنكره الدكتور الزحيلي .

ونَدَّعُ الروايات الكثير التي تؤيد إشتراك الملائكة في القتال مع المسلمين في معركة بدر ، والتي تصف الملائكة بأرديتها وعمائمها البيض أو الصفر الخ ونذكر للدكتور الزحيلي ما يثبت إشتراك الملائكة مع المؤمنين في القتال في واقعه الأحزاب ، فقد روى أن جبريل عليه السلام أتى الرسول ﷺ وهو يغتسل في دار أم سلمة بعد عودته من غزوة الخندق ، وقال له : وضعت سلاحك يا رسول الله ؟ قال : نعم ؛ قال جبريل : ولكن الملائكة لم تضع أسلحتها ! ثم أبلغه أمر الله عز وجل بالتوجه إلى بني قريظة لتصفية الحساب معهم .

فقلوه : (ولكن الملائكة لم تضع أسلحتها) حجة ظاهرة على أن الملائكة التي أنزلت لتأييد الرسول والمسلمين في غزوة الخندق كانوا مزودين بالسلاح ، وأن لم يحدث قتال في هذه الغزوة ، ومعنى - أنها لم تضع أسلحتها - أنها مستعدة للقتال مع المسلمين للناقضين لعهودهم من بني قريظة إذا عزموا على قتال الرسول ومن معه من الصحابة - أي أن الملائكة كانت تنزل لمساندة الرسول ﷺ والمسلمين في كل حروبهم وغزواتهم مساندةً ماديةً مُسلَّحةً .

وفي الحديث - بالإضافة إلى آيات قرآنية سندكرها فيما بعد - ردُّ على الدكتور الزحيلي بما جزم به من أن الإمداد : حَدَّثَ فقط في معركة بدر - فقد ثبت حدوثه في غزوة الخندق وغزوة بني قريظة وإن كانت الأولى قد انتهت بهزيمة الأحزاب بما سلَّط الله عليهم من

ريح ومن ملائكة ، وانتهت الثانية بما حَكَمَ في بني قريظة سعد بن معاذ - وهو حليفهم ، وقد ارتضوا تحكيمه وحكمه - بقتل الرجال منهم وسبي النساء والذرية .

بين المد والإمداد :

وفَرَّقَ الدكتور وهبه بين كلمة - مدٌّ - الثلاثية و - أمدٌ - الرباعية ، فقال : إن الأولى لزيادة العدد ، والثانية للإعانة - وأن القرآن استعمل كلمة الإمداد لا المدَّ العددي ، وعلى هذا يكون المراد من الإمداد هو ما يزيد في قوة القوم لا في عددهم الخ . ونحن نرى أن القرآن الكريم قد استعمل - الإمداد للزيادة العددية في قوله عز وجل : ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ - أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾^(١) وفي قوله أيضاً : ﴿وَيَعِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾^(٢) في حين استعمل - المدَّ - للزيادة المعنوية في قوله سبحانه : ﴿وَنُؤَمِّدُ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مِدًّا﴾^(٣) وفي قوله أيضاً : ﴿وَإِخْوَانَهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَىِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾^(٤) .

فالإمداد بالأنعام والأموال والبنين : زيادة عددية ، ومد العذاب أو مد الغي : زيادة في قوة كل منها - أى إطالته أو توسعته ، وذلك عكس ما ذهب إليه الدكتور الزحيلي !

(١) سورة الشعراء/١٣٢، ١٣٣ .

(٢) سورة نوح/١٢ .

(٣) سورة مريم/٧٩ .

(٤) سورة الأعراف/٣٠٢ .

الإمداد بالملائكة وبطولات الصحابة :

أما ما توهّمه الدكتور وهبة من أن القول بإمداد الله للرسول وأصحابه بالملائكة إمداداً فعلياً ليشتركوا معهم في القتال لا يتفق مع ما ثبت من بطولات الصحابة وتضحياتهم - فلا محل له ، ولا اعتداد به ، فكل البطولات والتضحيات البشرية - على مدى التاريخ الإنساني - إنما كانت بتوفيق الله ، وإمداده المعنوي والمادى وصدق الله العظيم إذ يقول :

- ﴿وما النصر الا من عند الله﴾ .
- ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾ .
- ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ .
- ﴿ولو شاء الله لسأطهم عليكم فلقاتلوكم﴾ .
- ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعم الشيطان الا قليلا﴾ .
- ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لهت طائفة منهم أن يضلوك﴾ .

والخطاب في هذه الآية للرسول عليه الصلاة والسلام وهو من هو كمال إيمان ، وعصمة من الخطأ والضلال ، وصدق الشاعر المؤمن الحكيم إذ يقول :

إذا لم يكن عون من الله للفتي فأول ما يخني عليه اجتهاده
وحتى الاكتشافات العلمية - وهي نوع من البطولات العقلية -
وكان آخرها الصعود إلى القمر .. إنما هي بتوفيق الله وإذنه .
والرسول عليه الصلاة والسلام - والأنبياء الذين سبقوه مثله ،
وهو في الذروة من طاقات الروح والعقل والجسد - محتاج إلى تأييد

الله بالملائكة تأييداً مادياً ومعنوياً - كما ثبت بالنصوص القرآنية في
حادثة الهجرة ، غزوة الأحزاب وغزوة بني قريظة ، وفي عودته من
الطائف حين جاءه مَلَكُ الجبال ليطبق الأخشبين على أعدائه من
المشركين والكافرين إذا أراد .

ومع ذلك لم يقل أحد إن ذلك نَقَص أو قَلَل من عظمة مواقفه
البطولية عليه الصلاة والسلام في كل من مجال سلمه وحرره ، بل
إن كاتباً غريباً غير مسلم - مثل توماس كارليل - عده نموذجاً رائعاً
للبطولة الانسانية بكل معانيها ومجالاتها في كتابه : «الأبطال» .
وحسان بن ثابت - رضى الله عنه - هل أضعف من قوة شعره
وروعته : أن روح القدس - وهو جبريل عليه السلام - كان يؤيده
ويلهمه في دفاعه عن الاسلام ورسوله ؟ فقد رَوَى الحاكم وابن
مردويه : أن النبي ﷺ قال : من يحمي أعراض المسلمين ؟ فقال
له حسان : أنا يا رسول الله - فقال النبي : قم فاهجم وروح
القدس معك !

وإذن فالبطولات البشرية - على اختلاف أنواعها ومجالاتها - لا
ينقص شيئاً منها : أن تتأيد بإمداد الله لها معنوياً أو مادياً .

رأى الطبرى لا يتعرض لنوعية الإمداد :

أما ما نقله الدكتور الزحيلي عن تفسير الطبرى - ج ٧ ص
١٨٠ - حول الإمداد بالملائكة في بدر وأحد .. فهو لا يتصدى
لنوعية الإمداد أكان مادياً أو معنوياً ، وآخر عبارة الطبرى :
«فالصواب فيه من القول : أن يقال كما قال تعالى ذكره» أى بدون

تأويل ولا تحريف للكلام عن موضعه .

بل إن الملاحظ في عبارة الطبرى : « غير أن في القرآن دلالة على أنهم أمِدُّوا يوم بدر بألف من الملائكة ، وذلك قوله : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبْ لَكُمْ أَنَّى مَدَدَكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴾ ^(١) نقول ان الملاحظ في كلام الطبرى هذا انه يثبت - الإمداد - مطلقاً دون تعيينه مادياً أو أدبياً في غزوة بدر ، وهو حجة على واقعية الإمداد ، ولا حجة لأصحاب التأويل - نفاة الإمداد القعلى - من كتاب ولا سنة ، ولا من عقل يحيل كون الإمداد فعلياً ، لأن الله على كل شيء قدير ، ولأن ظاهر النص القرآن يثبته في الآية (١٢) من الأنفال : ﴿ إِذْ يُوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنَّىٰ مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، سَأَلَنِ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ - فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ، وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ .

ولا داعى - كما اسلفنا - لاعتبار الخطاب في - إضرِبُوا - موجَّهاً للمؤمنين ، فالخطاب في الآية كلها موجَّه إلى الملائكة كما هو واضحٌ مبين . كما يجب أن يلاحظ أن القرآن الكريم في آية الأنفال السابقة وفي آيتين من سورة آل عمران يحدد عدد الملائكة بألف مرة وثلاثة آلاف مرة ثانية وبخمسة آلاف مرة ثالثة .

بين رشيد رضا وسيد قطب :

لم ينقل الدكتور الزحيلي أن أيّاً من علماء السلف قال بعدم اشتراك الملائكة فعلاً في القتال مع المؤمنين ، ويبدو أنه متأثر - في رأيه - ببعض الاتجاهات الحديثة في تفسير القرآن الكريم ، عن طريق التأويل لبعض الخوارق والمعجزات المادية إلى معان روحية ..

(١) سورة الانفال/٩ .

ونحن ننقل له تعقيب شهيد الإسلام الأستاذ سيد قطب - في كتابه «في ظلال القرآن» - على السيد رشيد رضا في قوله : «إنه ثبت أن الملائكة لم تشترك في المعركة يوم بدر الا بمخالطة أرواح المؤمنين وتثبيتهم» .

قال سيد قطب : «إن الملائكة اشتركت في المعركة كما قال لهم سبحانه وتعالى : ﴿فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان﴾ وان كنا لا ندرى كيف تضرب الملائكة الأعناق وكل بنان ، ولكن جهلنا بالكيف لا يدعونا إلى تأويل هذا النص عن مدلوله الظاهر ، وهو ان هناك أمراً بالضرب من الله عز وجل إلى الملائكة ، وان الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون - وليس كما قال المرحوم السيد رشيد رضا من أنه ثبت أن الملائكة لم تشترك في المعركة يوم بدر الا بمخالطة أرواح المؤمنين وتثبيتهم ، فهذا مخالف لظاهر النص ، والنص أولى بالاتباع» .

وقد أطلال الأستاذ سيد رحمه الله في تخطيطه مدرسة الشيخ محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا التي تذهب إلى تأويل أكثر غيبات القرآن الكريم ، وربطها بأسباب غير مادية ، وتفسير أفعال الملائكة بأنها مجرد ملازمة لأرواح المؤمنين ، وتفسير فعل الشيطان بأنه ملازمة لأرواح المشركين ، ومثاله تأويل - الطير الأبائيل - بأنها : ميكروبات الجدري - واعتبر الأستاذ سيد هذا كله مبالغة في تأويل النصوص المتعلقة بأمور غيبية ، حيث لا ضرورة لهذا التأويل ، وليس هناك ما يمنع من الدلالة الصريحة للألفاظ فيها الخ ...

وأضيف على تعقيب الأستاذ سيد قطب سؤالاً استنكارياً : من أين للسيد رشيد رضا رحمه الله وعفا عنه الحجة في قوله : «انه ثبت أن الملائكة لم تشترك في المعركة» وأين هذا الثبوت ؟ مع ما قدمناه من نصوص قرآنية ومن الحديث النبوي وآثار الصحابة تثبت العكس ؟ ! على أن الامداد بالملائكة وبجنود الله مطلقاً للمجاهدين في سبيله على مر الأيام والعصور قد ثبت الآن في وقتنا الحاضر بما سجله المشاهدون للمعارك القائمة بين المجاهدين الأفغان وبين القوات الروسية .. وانتصار المجاهدين الأفغان على قلة عددهم وضعف سلاحهم على قوات روسيا واسلحتها الحديثة .



وبعد .. فهذا ما يسره الله ووفق إليه من التعقيب على موضوع الإمداد بالملائكة ، مع احترامي للدكتور الزحيلي واجلالى لعلمه ورأيه وفضله .

نقد كتاب : (الفن القصصى فى القرآن)

هذا الكتاب (الفن القصصى فى القرآن) هو رسالة تقدّم بها الأستاذ محمد أحمد خلف الله إلى الجامعة المصرية سنة ١٣٦٦هـ لنيل شهادة الدكتوراة ، ولكنها رفضت من الجامعة ، وكان استاذہ الشيخ أمين الخولى هو المشرف على الرسالة : اختياراً وتوجيهاً ودفاعاً عنها .

ومما قاله الأستاذ الخولى - فى تقديم الرسالة - إن عرض القرآن لأحداث الماضين ووقائع حياتهم ، والحديث عن تلك الوقائع والأحداث : هو عرض فنى ، وليس عرضاً تاريخياً ، وعلى هذا الأساس يستطيع المثقف الراقى حين يتدين أن يعتقد فى تسليم مطمئن بحديث القرآن الفنى فى قصصه ، ومع ذلك يحق له أن يحلل فى عمق ووضوح تأريخ تلك الأحداث وأشخاص أصحابها ، وينتق من ذلك وينتق مطمئناً إلى أن ذلك لا يصادم العرض الفنى الآخر ، وإن هذا العرض الفنى مهما يقل التأريخ فى أحداثه لن يمس سلامة القرآن وصدقه !

هذا هو رأى الأستاذ المشرف : «الخولى» .

وجاء الكتاب كله من أوله إلى آخره مؤيداً ومدلاً عليه بقلم

تلميذه الأستاذ خلف .. فخلاصة مذهبه الذى ذهب إليه عن القصص القرآنى : أنه يجب أن يفهم ويدرس على أساس أدبى بلاغى ، لأن الفهم التاريخى أنتج مشكلات وقف عندها المفسرون ، كما أصبح مجال اعتراض هاجمه منه المستشرقون .. بينما يستبعد الفهم الأدبى هذه المشاكل كلها ، وهو يتناسب مع غاية القرآن من الدعوة إلى الاسلام ، ومن التوجيهات الدينية والخلقية !!

وقد عارض كل من الدكتور أحمد الشايب والأستاذ أحمد أمين هذه الرسالة قبل أن تصدر فى كتاب ، وأصر الشيخ الخولى على صوابها وسلامتها من كل عيب . وعندما اشتدت معارضتها من داخل الجامعة وخارجها^(١) كتب الدكتور عبد الوهاب عزام عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية : (بأن هذه الرسالة رفضتها لجنة الفحص ، وقد عرفت اللجنة المؤلف خطأه ، وقد جاز رأى المؤلف عن القصد ، وحاد به اجتهاده عن الصواب ، وأرى أن الأمر لا يعدو أن يكون غلطة تلميذ اجتهد فُردَّ عليه رأيه ، ولم يؤذن له أن ينشر هذا رأى أو يتقدم به إلى الامتحان) ومع ذلك صدرت الرسالة فى كتاب ، وهذا يعنى إصرار المؤلف وتأييد استاذة - أمين الخولى - له على نشرها بين الناس !

وللأستاذ محمد سعيد الكيلانى رأى فى الأستاذ وتلميذه .. نقله عن تذييل لكتاب «الملل والنحل - للشهرستانى» كتبه تحت

(١) عارضها علماء الأزهر أيضاً كما يذكر ذلك الشيخ على الطنطاوى فى مذكراته التى نشرها فى جريدة «الشرق الأوسط» سنة ١٤٠٦ هـ .

عنوان (بين الكفر والإيمان) يقول فيه :

«وظل أمر الأستاذ الخولى مستوراً أثناء تدريسه في كلية الآداب بالجامعة المصرية لا يدري أحد في خارج الكلية ما يلقيه لتلاميذه من أنواع الضلال .. حتى كانت سنة ١٩٤٧م حيث تقدم أحد تلامذته «محمد أحمد خلف الله» برسالة عن القصص الفنى في القرآن لنيل الدكتوراة ، وكان أمين الخولى هو المشرف على هذه الرسالة ، والمرجع للطالب فيما كتبه .. وقد رفضت الرسالة ، فرجع الطالب الأمر إلى وزير المعارف الذى أحالها إلى الشيخ محمود شلتوت - عضو جماعة كبار العلماء للنظر فيها وإبداء الرأى فقدم الشيخ شلتوت تقريراً عنها جاء فيه قوله : «ولا ريب أن الأسس التى بنى عليها الكاتب بحثه أسس فاسدة ، فإكان القرآن يخضع فيما قصه من الأنباء لما زعموه من تأريخ ، ويناقض أو يخالف الحقيقة .. وأن القرآن إذا استقبلت دراسته على هذا النحو من الخُطْط والخُط ، فقد اقتحمت قدسيته ، وزالت عن النفوس روعة الحق فيه ، وزلزلت قضاياه ، فى كل ما تناوله من عقائد وتشريع وأخبار ، ثم ختم الشيخ شلتوت تقريره بقوله : هذا هو الرأى فيما تجرأ به مؤلف هذه الرسالة على كتاب الله عز وجل ، وانه لشر مستطير من شأنه أن يفتح أبواباً من الفتن إذا مكّن لها اجتاحت الدين والعقيدة والقرآن .. وهى الحالقة» .



هذا تقديم موجز عن الرسالة وواضعها والمشرّف عليها .. نكتفى به ، ونبدأ الآن فى عرض وجهات نظر المؤلف والرد عليها .. والله

هو الموفق والمستعان :

من أعجب الدعاوى ... وأكذب الحديث : أن يَجْزَأَ أمروء ما على ثوب ليس له فيخلعه على نفسه ، أو على صبغة ليست لعمله فيدعيها له ، أو على وصف يناقض خُلُقَه فيسبغه عليه ؟ .

ولئن كانت هذه الفعلة ترتكب فيما دون كتاب الله الكريم الحكيم وآياته الجلائل ، فتعد معيبة ذميمة ، فهي بالنسبة إلى «القرآن» الخالد الماجد ، وآياته الرفيعة المنيعة أعيب وأذم ..

لقد استهل مؤلف «الفن القصصى فى القرآن» غلاف الكتاب الأول بهذه الآية (هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) وليس أبعد من كتاب صاحبنا عن البصيرة والرشد .. ولا أبعد منه عن الحق والصدق .. ولا أبعد منه عن الدعوة إلى الله سبحانه .. الذى يقول الحق وهو يهdy السبيل .

أما موضوع الكتاب فهو فنية القصص القرآنى .. وأما مهمة المؤلف .. فهي زعمه الجهد العنيد أن قصص القرآن - وهو كلام الله سبحانه - يستوى هو وما كتبه ويكتبه القُصَّاص والرواة فيما يجوز عليه من خيال وشعر وفن ، وأباطيل وأساطير ، ومجازاة المخاطبين ، ومعاملة مشاعرهم ، وموافقة معارفهم .. وقد وضع المؤلف قصص القرآن وقصص بنى الانسان فى ميزان واحد ، واخضعها معاً لأحكام واحدة !!

وأما أسانيده وأدلته فى دعواه فنية القصص القرآنى .. ففهم خاطئ ، ونقل غير أمين ، وعذر أقبح من جريرة ! .. لقد فهم الأستاذ محمد أحمد خلف الله بعض قصص القرآن فهماً لا بينة له

فيه . ونقل عن بعض المفسرين القدامى والمحدثين آراء وشبهاً حملها ما لم تحمل من مقاصد ، واعتذر عن ارتكابه إثم دعواه فنية القصص القرآني بأنه إنما يفعل ذلك إنقاذاً للقرآن من اتهام كتاب الفرنجة ومؤرخي التوراة لأخبار القرآن بتناقضها مع أخبار كتبهم المقدسة - بزعمهم - !



يقول المؤلف في مقدمة الكتاب رداً على من احتج عليه بقول الله تبارك وتعالى : ﴿إِنْ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ وقوله أيضاً : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ : إن هذه المسألة التفت إليها المفسرون لأنها جاءت مع الأمثال في قوله تبارك وتعالى : ﴿إِنْ اللَّهُ لَا يَسْتَحْيَ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ . . .﴾ والأمثال لا يلزم أن تكون من الحقائق الثابتة فقد تكون من المتخيلات ومن الأساطير والأوهام . واستند المؤلف على تفسير المنار (ج/ ١ ص/ ٢٣٦ - ٢٣٧) فروى عنه كلاماً في «المثل» وأنه الشبهة والشبهة . . . وأنه حق لأنه مبين للحق ومقرر له ، وسائق للأخذ به لما له من التأثير في النفس الخ . ثم قال : وهذا الذي يقال في المثل يقال في القصة ، وقد صرح القرآن في كثير من المواطن بأن أخبار الأنبياء والمرسلين لم ترد فيه إلا على أساس أنها من الأمثال فالقرآن جرى في أقاصيصه على أساس أن القصة إنما توصف بالحق لأنها تشرح الحق وتقرره لا لأنها في ذاتها حقيقة ثابتة ، وليس أدل على هذا من قصة أصحاب الكهف التي قصها القرآن وقال عنها : ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ إذ

الذى نظمئن إليه وقال به بعض المفسرين : أن القرآن الكريم لم يذكر في هذه القصة الحقيقة التاريخية ، وإنما ذكر ما كان يعرفه أهل الكتاب عن عدد الفتية وعدد السنين»
ثم حاول المؤلف أن يبحث عن حجة له ، أو أن يفتعل حجة ..
فقال إن قصة أصحاب الكهف جاءت ردّاً على سؤال بعض المشركين للنبي عليه الصلاة والسلام باعاز من اليهود ، واختباراً لصحة نبوته : وكان طبيعياً أن تجيء إجابة القرآن موافقة لما يعرفه اليهود ، وذكره للمشركين ، غير قاصدة الحقيقة القصصية !
واخيراً اعتمد على تفسير الراغب الأصفهاني والقاضي عبد الجبار لمعنى كلمة (الحق) وأنه يراد بها الفعل أو العمل الذى يجيء على مقتضى الحكمة ، أو ما يجيء للإنذار والتخويف كقصة المباهلة .. فيوصف بالحق الخ ...

الأمثال في القرآن :

وهنا نقف بعض الوقت لتردّد على المؤلف في فهمه عن «المثل» في القرآن ..

لقد فاتته أن يدرك أن المثل في القرآن قسمان : الأول ضربه القرآن على سبيل التأثير في فهم القارىء ، وإيضاح المقاصد له ، وهذا القسم لا يلزم منه بطبيعة الحال أن يكون قد وقع فعلاً أو سيقع مستقبلاً ، على أن عدم وقوعه لا يعنى أنه غير حق أو غير صدق من حيث معناه ومعزاه .. ومن ذلك هذه الآيات :

□ ﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا

رزقاً حسناً ، فهو ينفق منه سرا وجهراً .. هل يستون ! ﴿١﴾ ،
وقد ضُرب مثلاً للحرية والعبودية المعنويتين .. فهنا قيود الجهل
والوثنية والشهوات ، وهناك انطلاقات التوحيد والمعرفة والأخلاق
الفاضلة ، تنفع وتنفع .

□ ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ، ورجلاً سَلماً
لرجل هل يستويان مثلاً؟﴾ ﴿٢﴾ ، وقد ضربه الله للفرق بين من يعبد
آلهة عدة ، ومن يعبد الله وحده ..

□ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِثْلُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ : إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذَّبَابُ شَيْئاً
لَا يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ ﴿٣﴾ ، وقد ضُرب
للتأكيد عجز الآلهة التي يتخذها المشركون من الحجر أو الشجر أو
المدر ، عن حماية نفسها من إيذاء الذباب لها ، أو سلبه شيئاً مما
كانوا يعلقونه عليها من هدايا ، ويقرّبونه بين يديها من قرايين اللحم
والحلوى ، فهي إذن أعجز من أن تخلق هذا الذباب !

أما القسم الثاني من أمثال القرآن فهو قصص وقعت ، وأخبار
حدثت ، وهي صدق وحق - كقوله تبارك وتعالى : ﴿واضرب لهم
مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين﴾ .. إلى آخر القصة المروية في
سورة الكهف . وقوله عز وجل : ﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب
القرية إذ جاءها المرسلون﴾ .. إلى آخر القصة المروية في سورة يس .
وقوله : ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، وتبين لكم

(١) سورة النحل/ ٧٥ .

(٢) سورة الزمر/ ٢٩ .

(٣) سورة الحج/ ٧٣ .

كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال» في سورة إبراهيم .
وهكذا يتضح أن المؤلف خلط بين معاني الأمثال القرآنية ومقاصدها ، وزعم أن الأمثال كالقصاص في القرآن ، وأن كليهما لا تعني أنها حوادث وقعت فعلاً ، وإنما تحتل ما يحتمله القصاص البشري من خيالات وأوهام ، وشعروفت ، وإن الغاية من ورودها في القرآن هو العظة والعبرة ، دون أن يكون لها واقع وتاريخ .
ونحن نعجب كيف يلغى المؤلف عقله إلى حد يفوته فيه أن العظة أو العبرة تتبع القصة التي تتضمنها ، وأنه لا عبرة حقة في قصة مفتراة ؟!



القصاص القرآني : تأريخ وعبرة :

وفي ص/ ٢٢ وما بعدها يقول المؤلف : «إن المسلمين حرصوا كل الحرص على فهم القصاص القرآني على أساس من التأريخ - ومن هنا رأيناهم يعمدون إلى الثقافة التاريخية وإلى الاسرائيليات وإلى الفروض النظرية لعل ذلك كله أو بعضه يزيل عن القصاص القرآني ما به من غموض وإبهام تأريخي من حيث الزمان والأشخاص .. ولو أنهم أعرضوا عن هذا الأساس ، وحاولوا فهم القرآن على أساس من الفن الأدبي أو البيان البلاغي لأغلقوا هذا الباب التي جاءت منه الريح ، ولسدوا على المشركين والمبشرين السبيل ، وحالوا بينهم وبين الطعن في النبي ﷺ وفي القرآن » .
وأضاف في ص/ ٥١ وما بعدها : «أن المعاني التاريخية ليست

ديناً يُتَّبَع .. وليست هي مما حماه القرآن مادام لم يقصدها .. ومن حق العقل البشرى أن يهمل هذه المعاني التاريخية أو يخالفها أو ينكرها» .

أما مستنداته في ذلك من منقولة ومفهومة من آراء الأولين والآخرين ... فهي :

□ أولاً : ما ذهب إليه صاحب تفسير المنار من أن ما روته قصة هاروت وماروت في سورة البقرة عن السحر ، وعن زعم من زعم كفر النبي سليمان عليه السلام .. لا يلزم أن يكون ذلك صحيحاً ، وما قاله الشيخ محمد عبده من أن القصص القرآني جاء للموعظة والعبرة لا لبيان التاريخ ، لأن القرآن يحكي من عقائد الغابرين وعاداتهم الحق والباطل ، والصادق والكاذب والنافع والضار !!

□ ثانياً : ما قاله الرازي في تفسيره والنيسابوري على هامش الطبري من أن المشركين حينما زعموا أن قصص القرآن هي اساطير الأولين لم يعرفوا أن المقصود منها ليس هو نفس الحكاية ، وإنما الغرض بيان قدرة الله على التصرف في هذا العالم ونقل الأمم من العز إلى الذل !

وأخيراً يرى المؤلف أنه قد حل .. (المشكلة الخالدة القائمة على أساس أن بالقصص القرآني أخطاء تاريخية) بدعوته للناس إلى أن يفهموا حقيقة الصلة والعلاقة بين الأدب والتاريخ ، وما يصنعه الأول حين يستغل الثاني في أداء رسالته في هذه الحياة . وهو يعنى أن القرآن في سبيل البلاغة الأدبية والفن القصصي لم يلتزم الصدق والحق في رواية أخباره ، وإنما قصد إلى التأثير البلاغي وما يقتضيه

من شعر وخيال وأوهام !

ومن هنا نبدأ الرد على سوء فهم المؤلف ، ومصدر خطئه .. فهو يريد أن ينهج بكلام الله منهج كلام الناس ، فيتحدث عما بين الأدب والتاريخ من علاقات استغلالية على حساب الحق والصدق ، ويضيف إلى ذلك أن المسألة مسألة خلق فني غير مقيّد بحقائق ولا وثائق ، ويضرب لذلك مثلاً شكسبير ، وبرناردشو ، وشوق .. وتصرفهم في التاريخ عند وضعهم القصص الروائية المعروفة باسمائهم ، وعدم التزامهم الصدق والدقة ، وخلقهم شخصاً من العدم ، وإنطاقها بما شأؤوا من أقوال ، وذكرهم أحداثاً لم تقع ، وكذلك القرآن فعل !

كبرت كلمة تخرج من فم رجل لم يفقه كلام الله ولم يتله حق تلاوته ، ولم يتدبره حق تدبره : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ﴾ القرآن ، أم على قلوب أقفاها ؟

إن ما قصده المفسرون القدامى والمحدثون من قولهم : إن القصص القرآني جاء للاعتبار والتوجيه الديني ، واستنباط الحقيقة الدينية منه ، هو الا يلتفت المسلمون عن هذه الغاية السامية إلى البحث عن تفاصيل هذه القصص كلون كلب أهل الكهف وعددهم ، وأوصاف ذى القرنين ، وأسماء بعض الشخصيات التي لم يذكرها القرآن ، والأزمنة والأمكنة التي حدثت فيها هذه الأحداث .. مما اختلفت فيه آراء المفسرين والمؤرخين . ولكنهم لم يفتقدوا أن الحقائق التاريخية للقصص القرآني قابلة للنقد وللخلاف . وللاإتكار كما زعم المؤلف الجريء ..

وكذلك ما رواه القرآن من معتقدات الغابرين وأخلاقهم
وشرائعهم لا يعنى كونه صحيحاً أو باطلاً ، وسليماً أو زائفاً : أنه لم
يقع تأريخياً ، أو أن القرآن رواه متزيداً فيه ، أو منتقصاً منه ؛ كما
زعم المؤلف الجري ..

إن القرآن ينقل لقرائه مزاعم المشركين في المشيئة في قولهم :
﴿لو شاء الله ما أشركنا﴾ الآية - وفيما جعلوه من أنعامهم وحرثهم
نصيباً لله - سبحانه - ونصيباً لشركائهم ، وما جعلوه حلالاً منها
لذكورهم وحراماً على إناثهم .. وينقل كذلك مزاعم المبطلين في
فعلهم الفاحشة ، بأن الله - تعالى عن ذلك علواً كبيراً - «أمرهم
بها» فهل يصح اعتبار كون هذه المزاعم غير صحيحة اعتقاداً وغير
مشروعة عملاً : دليلاً على كونها غير صحيحة من حيث الوقوع
التأريخي ؟!

ألا يقع اليوم .. بين أيدينا وعلى مرأى ومسمع منا .. وقائع
وأحداث يرفضها العقل الراشد ، وتأبأها الشريعة العادلة ، وتمقتها
الطبيعة الفاضلة ؟ .

واذن فلا دلالة بذلك على كون قصص القرآن جميعه لا يراد به
الواقع التأريخي ، ماضياً ومستقبلاً ، كما يزعم المؤلف الجري .
وقد فاته أن يدرك الفرق الفارق بين ما يرويه القرآن من مزاعم
المشركين والمبطلين ، ورفضها ويرد عليها ، ويعظ المسلمين بها ،
وبين ما يقصّه هو من عنده من قصص الأنبياء والصالحين وما ينشأ
بحدوثه مستقبلاً من عبر وعقوبات .

وإن تعجب فعجب أن يكون المبطلون المشركون في عهد نبي

الاسلام صلوات الله وسلامه عليه قد اتهموه بأنه مفتر للقرآن الذى هو فى نظرهم إفك وسحر وشعر وأساطير .. وبأتى صاحبنا هذا فى القرن الرابع عشر لظهور رسالة الاسلام ، وثبت صدق كتابها الماجد الخالد ، فيزعم أن فى القرآن خيالات وأوهاماً ومخالفات للحق والواقع والتأريخ .. وان الله - سبحانه - هو الذى اختار ذلك على أساس بلاغى ، مسايرة لتطورات البيئة ومعارفها الظنية من التأريخ !

أليس هذا عجباً ؟ بلى ... وإلى القارىء ما هو أعجب وأكذب :

العقل الاسلامى المتهم البريء :

لقد كرر المؤلف فى كثير من صفحات كتابه اتهام «العقل الاسلامى» بكل عوراء منكرة ، فى محاولته فهم القصص القرآنى ، وفى تعليل بعض القضايا الدينية واللغوية منه ، فقال مرة : (حاول العقل الاسلامى أن يجيب على هذه الأسئلة فلم يهتد .. الخ - وقال أخرى : ولو أن العقل الاسلامى أقام فهمه للقصص القرآنى على أساس فنى .. الخ . وقال أيضاً : ونُحِيل للعقل الاسلامى الخ - وقال : عجز العقل الاسلامى عن فهم الصلة بين هذه الأوثان وبين نوح الخ - وقال أخيراً : هذه الوقفات الطويلة وهذا التفكير المستمر جعل العقل الاسلامى يقرر أخيراً : أن التأريخ ليس من مقاصد القرآن ، وأن التمسك به خطر أى خطر على القرآن ونبي القرآن ، بل هو جدير بأن يدفع الناس إلى الكفر بالقرآن .. كما كفروا بالتوراة من قبل)

مسكين هذا «العقل الاسلامى» الذى اتهمه المؤلف فى ماضيه بالعجز والجمود عن الفهم الصحيح للقصص القرآنى .. واتهمه فى حاضره بالتحجر فى فهم هذا القصص بحيث لا يتمسك بواقعية الأحداث المصورة فيه ، وبحيث يهرب خطر هذا التمسك الذى قد يؤدى إلى الكفر بالقرآن كما كفر بعض الناس بالتوراة ..
يا له من عقل مظلوم .. بل عقل لا وجود له إلا أن يكون عقل المؤلف وحده ، وعقل المشرف على رسالته ، والمؤيد له فى كل ما ذهب إليه فيها من أباطيل !!

إن العقل الاسلامى الصحيح يدرك أن القرآن كلام الله ، وكله من ألفه إلى يائه : حق وصدق وعدل ، من حيث قصصه وأخباره ، ومن حيث أحكامه وآدابه ، والعقل الاسلامى الصحيح يدرك أيضاً أن ما أتى به القرآن من اشارات علمية ، وقصص تاريخية ، وقواعد تشريعية هى المثل الأعلى ، وهى الحجة الثابتة ، وهى التجربة الواقعة .. على مر العصور والدهور .. لا خيال فيها ولا تجميل ولا مجاملة .

ولكن المؤلف الذى يزعم أنه يدعو إلى الله على بصيرة ، يرمى «العقل الاسلامى» بدائه وينسل ، وبتهمه بذنبه ويتبرأ ..

فى القرآن : إعجاز تأريخى !

وقال المؤلف فى ص/ ٤٨ : «التحدى إنما يقوم على قوة التأثير وسحر البيان .. ومن هنا لا نستطيع أن نعد الأخبار التى جاءت فى القصص القرآنى إحدى المعجزات» واتكأ المؤلف على غير متكأ فى

قولٍ للإمام الرازى عن فصاحة اللفظ القرآنى كلون من ألوان
اعجازه البلاغى . ولم يتعرض الرازى لإعجاز القرآن التأريخى بنى
أو إنكار .. وختم المؤلف كلامه بقوله : (ولعله من هنا كان القرآن
يتحدى العرب بالسور المفتريات) !

ولعل المؤلف يعنى أن القرآن لم يتحدَّ العرب برواية الأخبار
الماضية ، ومن هنا علم أو فهم - ويا بش ذلك من علم أو فهم - أن
أخبار القرآن ليست معجزة ، وهى - فى زعمه - غير واقعية ، ولا
تحتوى حقائق ولا وثائق من التأريخ القديم للغابرين ..

إن الرازى كما أسلفنا لم ينف عن القصص القرآنى إعجازه
التأريخى .. والمؤلف يحشر فى ثنايا مزاعمه الباطل آراء ومذاهب
لبعض المفسرين القدماء ، ليوهم القراء أنه يعتمد على آراء قديمة
حكيمه لأئمة التفسير ..

ولو سلمنا - جداً - أن الرازى أو أكثر من الرازى نقى عن
القرآن اعجازه التأريخى فما نحن له بمذعنين .. فالقرآن نفسه يقرر
إعجازه التأريخى بأسلوب قطعى لا مجال فيه للشبهة أو الظن أو
الاجتهاد .. يقرره حين يقص على نبي الاسلام - عليه الصلاة
والسلام - قصص الأمم الغابرة ، وقصص إخوانه الأنبياء
السابقين ، ثم يختم هذه القصص بالمنّ عليه بأنه لو لا إخبار القرآن
له بها ما كان يعلمها قاصداً بذلك أنه الوحي الإلهى الذى لا يأتيه
الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقاصداً فى الوقت نفسه : تقرير
الإعجاز بهذا العلم التأريخى .. الذى سمّاه المبطلون «أساطير
الأولين» وجاراهم المؤلف على زعمهم ، فقال ما قالوه عن قصص

القرآن ..

ولنستمع الآن إلى تقرير الإعجاز التاريخي في بعض نصوص القرآن :

□ ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾^(١)

□ ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ..﴾^(٢)

□ ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك .. وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾^(٣)

□ ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين﴾^(٤)

□ ﴿وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا﴾^(٥)

□ ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾^(٦)

دعوى الحرية الفنية في القرآن :

وحاول المؤلف في ص (٥٩) وما بعدها أن يفتعل الأدلة على زعمه وجود «الحرية الفنية» في قصص القرآن .. في قصة لوط

(١) سورة آل عمران/ ٤٤ .

(٢) سورة هود/ ٤٩ .

(٣) سورة يوسف/ ١٠٢ .

(٤) سورة القصص/ ٤٤ .

(٥) سورة القصص/ ٤٥ .

(٦) سورة القصص/ ٤٦ .

وورودها مختلفة الأسلوب في عدة مواضع من القرآن ، وفي إسناد القرآن بعض الأحداث أو الأقوال لشخص في موضع ثم إسنادها لشخص آخر في موضع غير الأول .. كصدور اتهام موسى بأنه ساحر عليم من فرعون مرة ومن ملئه أخرى - وكذلك بشرى الملائكة بالغلام لإبراهيم تارة ولسارة تارة - كما حاول أن يدل على دعواه «الاختلاف الفني» في القصة القرآنية باختلاف التعابير في قصة موسى إذ جاء في موطن : «فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة» وفى موطن آخر : «فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها» وفى ثالث : «فلما أتاها نودى يا موسى إنى أنا ربك» .

كذلك عد المؤلف الترادف اللفظى فى القرآن من دلائل «الحرية الفنية» فى قصصه كقوله تعالى : ﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾ وقوله فى آية أخرى : ﴿فانبجست منه اثنتا عشرة عينا﴾ .. وأخيراً اعتمد المؤلف فى مذهبه إلى القول بالاختلاف الفني فى قصص القرآن ، على ما خيل إليه من إنطاق القرآن لبعض أشخاص قصصه بما لم يقولوه كما جاء فى سورة النساء : ﴿وقولهم : إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله﴾ فاليهود - كما يقول المؤلف «ينكرون رسالة عيسى ، ومن أجل ذلك قتلوه فكيف يُقرّون بأنه رسول الله ؟ واذن - كما يزعم المؤلف - فالدلالة على وجود الحرية الفنية التى يمنحها الأدباء البشر لأنفسهم ، فى قصص القرآن : قوية واضحة» ..

هذا هو مبلغ علمه وفهمه وحكمه .. عن القرآن ككتابٍ عربى

مبين ، وهو علم وفهم وحكم .. عن اللغة العربية ، وبلاغتها وآدابها عامة ، فهل أعجب من كلام كهذا الكلام ؟ .

لو كان الأمر - فيما ذهب إليه المؤلف - مسألة وجود حرية أدبية في قصص القرآن لكان استنباط ذلك بطريقته السليمة ، دون أن تحتقر عقلاً ، أو نهدم عقيدة .. ولكن المؤلف يتكلف فوق جهده ، ويصطنع بذلك الأدلة ليؤيد نظريته الباطلة القائلة بوجود أخطاء تاريخية وأساطير وأوهام في قصص القرآن واخباره عن الغابرين . ونحن لا نعرف عن التَّقدِّةِ الثَّقةِ القدامى والمحدثين من يزعم أن اختلاف ترتيب جزئيات القصة الواحدة في عدة مواضع ، يعنى الحرية والانطلاق من تحرى الصدق وتدوين الواقع - كما زعم المؤلف ذلك في قصة لوط ..

ولا نعلم مانعاً عقلياً ولا تاريخياً من أن يكون فرعون وملؤه قد تبادلوا القول عن موسى عليه السلام بأنه ساحر عليم .. أو رددته الملائكة بعد فرعون مجاملة ونفاقاً ، كما تفعل بطانة السادة والرؤساء اليوم ، وقبل اليوم وإلى الأبد ..

ولا نعلم أيضاً مانعاً عقلياً أو تاريخياً من أن تكون الملائكة قد بشرت بإسحاق إبراهيم عليه السلام وامراته معاً أو أحدهما بعد الآخر .. ثم جاء القرآن يذكر بشراهم لإبراهيم في سورة منه ، وبشراهم لسارة في سورة أخرى ..

ولا نعلم أخيراً بأى مقياس نقدى ، أو ميزان بلاغى ، يحكم المؤلف بأن المترادفات اللفظية ، أو الإجمال في مقام والتفصيل في مقام آخر - في القصة الانسانية بله القصة القرآنية - يعنى

«الاختلاف الفنى» أو عدم تحرى الصدق وتدوين الواقع .
 لم نسمع بذلك كله فى المذاهب النقدية قديمها وحديثها على
 سواء .. ولكن المؤلف يرينا العجب من علمه وفهمه وحكمه ، ثم
 يرينا العجب العجائب من أدبه وسلوكه إذ يضع كلام الانسان فيما
 يقص أو يروى ، وكلام الرحمن - وكله صدق وعدل - فى ميزان
 واحد !

أما ما خيل للمؤلف من أن القرآن أنطق بعض أشخاص
 قصصه بما لم يقولوه ، واستدلالة بهذا الخيال ، أو هذا الضلال على
 احتمال وجود الكذب فى اخبار القرآن - فزده بأصل أدبى .. يعرفه
 نقاد الأدب وكتاب البلاغة ولا ينكرونه ، ويحملونه محمل الصدق
 ولا يكذبونه .. ذلك (الأصل البلاغى) هو تأكيد الذم بما يشبه
 المدح بقصد السخرية والتحدى ، ومن أمثلة ذلك فى القرآن
 نفسه : قوله تبارك وتعالى .. للكافر المترف المنعم فى الدنيا .. عندما
 يحاسبه ويعاقبه يوم القيامة : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾^(١)
 وأين العزة والكرامة منه يومذاك ؟ إنما هو منتهى الإذلال له ، وغاية
 السخرية به ..

كذلك قول اليهود - من حكاية القرآن - عن عيسى عليه السلام :
 ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾^(٢) إنهم يريدون بذلك
 إعلان سخرتهم بنبوة عيسى ، وتأكيد إنكارهم لرسائله ، فهم
 يقولون «رسول الله» تحدياً وتعدياً وفرحاً مكذوباً بما خيل إليهم إنه

(١) سورة الدخان/ ٤٩ .

(٢) سورة النساء/ ١٧٥ .

حجة لهم ، وهو استطاعهم قتله ، مما ابطال - بزعمهم - دعوى رسالته ، إذ لو كان رسولاً لامتنع عليهم مسه بسوء ..

وشبيه بهذا قول فرعون - في حكاية القرآن - عن موسى عليه السلام : ﴿إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾^(١) وهو ينكر رسالته ، ولكنه هنا يسخر ويستهزئ .

كذلك قول القرآن حكاية عن مشركي مكة : ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ نَتَّخِظُ مِنْ أَرْضِنَا﴾^(٢) وهم لا يعرفون بأن رسالة محمد (هدى) !! وعلى العكس من ذلك تأكيد المدح بما يشبه الذم كقوله : (قل لا تسألون عما أجرمتنا) من باب الاستهزاء وإرخاء العنان للخصوم .

أما الأمثلة من كتب الأدب والبلاغة ، وأقرها مقررات المدارس .. فالمفروض لا الواقع - أن المؤلف كان يعلمها في أيام الدراسة ! على أن المؤلف هنا لا ينسى طريقته في حشر أقوال بعض المفسرين في أثناء مزاعمه ، فهو يروي رأياً للأئمة القدامى : الزمخشري ، والرازي ، والنيسابوري ، وأبي حيان ، في تعليل إيراد عبارة «رسول الله» في الآية القرآنية بأنها من كلام الله .. وأنه يجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح في الحكاية عنهم .. ومعنى هذا في رأى المؤلف أنه عملية إنطاق الأشخاص بما لم ينطقوا به ، وأنه يدل على أن القصص القرآني عرض أدبي فني للأحداث والأقوال وليس عرضاً تاريخياً لها .

(١) سورة الشعراء/٢٧ .

(٢) سورة القصص/٥٧ .

لقد أوضحنا نهج القرآن - ككتاب عربى مبين - فيما آتخذ من أساليب بلاغية لا غبار على صحتها وفصاحتها ، وفيما يتفق مع قدسيته ككلام إلهى لا يجوز عليه ما يجوز على كلام الناس من تخيل وتهويل ..

زعمه أن فى القرآن أخطاء تاريخية :

واورد المؤلف فى ص (٦٤) وما بعدها قصة أصحاب الكهف ، وجعل منها دليلاً على وجود أخطاء تاريخية فى قصص القرآن ، فالقصة - بزعمه - ترددت فى ذكر العدد الحقيقى للفتية بين ثلاثة وخمسة وسبعة ، وقالت بعد ذلك : « قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل » ، كما ترددت فى عدد ما لبثوا من سنين إذ جاء فى ختامها : « قل الله أعلم بما لبثوا » بعد قوله تعالى : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ ، ثم قال المؤلف النابغة : إنما فعل القرآن ذلك ليطابق أقوال اليهود ، فلا يكذبوا محمداً فيما يوحى إليه . وحاول المؤلف كدأبه فى اختطاف أقوال المفسرين القدامى أن يؤيد فهمه وينصر زعمه بما رواه الامام الطبرى - رحمه الله - عن مدة لبث الفتية إذ قال : « فقال بعضهم ذلك خبر من الله ، ذكره عن أهل الكتاب ، ولو كان ذلك خبراً من الله عن قدر لبثهم فى الكهف لم يكن لقوله : ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ وجه مفهوم وقد أعلم الله خلقه مبلغ لبثهم فيه .



وهكذا لا يكتفى المؤلف بأن يزعم وجود الأوهام والأساطير فى

القرآن فيضيف إلى ذلك أن القرآن يجارى أهل الكتاب في معارفهم التاريخية التماساً لتصديقهم نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، ولو كانت هذه المعارف كواذب أو خواطىء !! .

ولو كانت هذه سبيل القرآن لآمن به اليهود والنصارى والمجوس من أول مرة .. ولكن سبيل القرآن كانت على العكس من ذلك .. كانت تواجههم بالحقائق والوثائق التي يعرفونها ، ولكنهم يخفونها إصراراً على الكفر بنبي القرآن ﷺ ، وحسداً لما أوتيهم وقومه العرب من شرف ظهور الإسلام فيهم .

إن القرآن رسالة حق وصدق وعدل - جاءت لتطهر الكون والبشر من أرجاس الباطل والظلم والوثنية ، ولتصحح كثيراً من العقائد والمعارف الخاطئة السفهة ، والله سبحانه قبل ذلك وبعده - غنى عن العالمين ، من شاء منهم فليؤمن ومن شاء فليكفر ..

أما تفصيل الرد على المؤلف فهو كما يلي :

أولاً : لو كان القرآن يجاىي أهل الكتاب ويدارهم طمعاً في إسلامهم - كما زعم المؤلف - لفعل ذلك في مواقف أحق بالحجابه والمداراة من موقف أصحاب الكهف .

■ فقد زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه - فرد عليهم القرآن :

﴿بل أنتم بشر ممن خلق﴾ .

■ وزعموا أن المسيح ابن الله - فكذبهم القرآن ، واتهموا

موسى بتهمة نكراء ، فبرأه الله مما قالوا .^(١)

(١) اتهموه بأنه آدر - أى كبير الخصيتين - وقد نزل في ذلك قول الله عزوجل : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ، وكان عند الله وجهاً﴾ الاحزاب/ ٦٧ .

■ وزعموا أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً ، فكذبهم القرآن ، لأن يعقوب هو أول من تسمى بإسرائيل ، وهو حفيد إبراهيم ، ولأن اليهودى ينسب إلى يهودا رابع أبناء يعقوب ! ■ وقالوا : لن يدخل الجنة الا من كان هوداً أو نصارى ، فقال لهم القرآن : ﴿هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ . ■ ثم زعموا أنهم قتلوا المسيح وصلبوه فردَّ عليهم القرآن : ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ .

■ وعندما خبث نياتهم فى تحية نبي الاسلام ومحاطبته فقالوا له : «السام عليكم» وقالوا له : «راعنا» فضح القرآن سرائرهم !! ■ وزاد القرآن ، فوصفهم بأنهم أكَّالون للسحت ، سَمَّاعون للكذب .. ثم دمغهم بوصمة الدهر ، وصمهم بتحريف التوراة والانجيل عن معانيهما ومقاصدهما ، بل وألفاظهما فى سبيل رضى الرؤساء ، وأخذ رشايا الأغنياء ! .

والقرآن بعد ذلك يقول بصراحة ناصعة : ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ ^(١) ويقول أيضاً : ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾ ^(٢) واخيراً .. لو كان القرآن يجامل أحداً فى سبيل الإيمان به على حساب الحقائق التاريخية - لجامل المتعنتين من أهل الكتاب والمشركين الذين ارهقوا رسول الله عليه الصلاة والسلام بمقترحاتهم فى طلب المعجزات فى قدرة الله العزيز متسع لتحقيقها . !! .

(١) سورة البقرة/١٢٠ .

(٢) سورة البقرة/١٤٥ .

ثانياً : يقف قارئ القرآن وهو يتلو فضائح أهل الكتاب في تحريف كتبهم وإنحرافهم عن أحكامها وأخلاقها وأخبارها الصحيحة إلى نقائضها أمام تأكيد يقتل كل رب ، وتقرير يمنع كل إلحاد .. تقرير إلهي بأن القرآن جملة أنزل بعلم الله ، وتأكيد إلهي بأن قصصه رويت بالحق ، ولتقف مع قارئ القرآن هذه المواقف الرائعة التي تدع الجاهل عالماً ، والحائر راشداً ، والزائع عن عمد وعناد مبهوتاً بقوة الحجّة ووضاحة البيان :

- ﴿إن هذا هو القصص الحق﴾^(١)
- ﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق﴾^(٢)
- ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق﴾^(٣)
- ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾^(٤)
- ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾^(٥)
- ﴿ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم﴾^(٦)

ومعنى قوله عز وجل : ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ أنه ليس فيما قصصنا على محمد في القرآن باطل فيما كان قبله ، ولا فيما هو كائن بعده في الدنيا والآخرة .^(٧)

(١) سورة آل عمران/ ٦٢ .

(٢) سورة القصص/ ٣٥ .

(٣) سورة الكهف/ ١٣ .

(٤) سورة الانعام/ ١١٥ .

(٥) سورة فصلت/ ٤٢ .

(٦) سورة الاعراف/ ٦٢ .

(٧) ابن جريج في فهم القرآن ...

ثالثاً : إن تعقيب القرآن بقوله : ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ بعد قوله : ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً﴾ لا يعنى إبطال تحديد المعداد ، ولا يستلزم تأويل التحديد بأنه من قول اليهود .. وذلك من جهة أولى .. لأن سياق الآيات لا يساعد على هذا التأويل ، ولا يهيج للقارىء مدخلاً إلى الزعم بأن : ﴿ولبثوا في كهفهم﴾ الخ من مقول اليهود ..

ومن جهة ثانية .. لأن آية ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ ومثيلاتها في القرآن كآية : ﴿قل ربي أعلم من جاء بالهدى من عنده﴾ وآية : ﴿قال ربي أعلم بما تعملون﴾ وآية : ﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم﴾ وآية : ﴿إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ وآية : ﴿إن ربك هو أعلم بالمعتدين﴾ .. إن هذه الآيات القرآنية لا تقتضى نسخ ما يسبقها من مقررات ، ولا هى تعنى نقي هذه المقررات أو حمل القارى على التردد فى الأخذ بها ، أو على الذهاب فى تأويلها كل مذهب كما فعل المؤلف وذلك «البعض» المجهول الذى نقل عنه الطبرى ..

إنفراد الله بالأعلمية المطلقة :

وإنما هى آيات بينات جاءت تعقيباً لتقرير انفراد الله سبحانه بالأعلمية اللانهاية المطلقة ولحمل المخاطبين بالقرآن على التسليم بمقرراته ، والتأدب مع الله بالكف عن المجادلة والمارة فيما يقدمه القرآن من أخبار وأحكام ووصايا ، وبالتجافى عن الغرور بعلومهم ومعارفهم .. فما أوتوا من العلم الا قليلا ، وفوق كل ذى علم عليم .

ولنأخذ - مثلاً - آية : ﴿قُلْ رُبِّي أَعْلَمُ مِنْ جَاءِ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ﴾ ثم لنسأل المؤلف النابعة : هل تعنى التردد في الإيمان بما سبقها من تقرير رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، بناء على أنه لو كان محمد جاء بالهدى فعلاً لم يكن لهذه الآية وجه مفهوم .. على حد فهم المؤلف وذلك «البعض» المجهول الذي نقل عنه الطبري ؟ . وهل تعنى آية : ﴿قَالَ رُبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ التردد في الحكم على ما يأتيه قوم شعيب عليه السلام من باطل وإثم بناء على أنهم لو كانوا على باطل وإثم لم يكن لهذه الآية وجه مفهوم .. على حد فهم المؤلف وذلك «البعض» المجهول الذي نقل عنه الطبري ؟ .

ثم هل تعنى آية : ﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ التردد في الأخذ بوصاية الله سبحانه ببرّ الوالدين اعتماداً على ما في النفوس من حب لها .. دون المعاملة الحسنة معها .. بناء على أنه لو كانت الرعاية العملية والبرّ الفعلي واجبين لم يكن لهذه الآية وجه مفهوم .. على حد فهم المؤلف وذلك «البعض» المجهول الذي نقل عنه الطبري ؟ .

واخيراً هل تعنى آية : ﴿إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ مِنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ التردد في ما قرره القرآن قبلها : ﴿وَإِنْ تَطَعُوا لَخَيْرٌ مِنْهُمَا وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وعدم التزام وصية الله بالا تطاع أهواء الناس .. ولو كانوا أكثر كاثرة بناء على أنه لو كانت آراء أكثرية الناس ضالة مضلة لم يكن لهذه الآية وجه مفهوم ، على حد فهم المؤلف ومن أخذ عنه ؟ .

لا .. أيها «الفهماء» إنما هي آيات بينات تأتي تعقيباً بقصد تقرير

انفراد الله بالأعلمية المطلقة اللانهاية .. ولا تعنى بفهم من المفهوم إهمال الأخذ بما سبقها من أوامر ونواه ، ولا تعنى أيضاً التردد في استيقان صدق ما سبقها من قصص وأخبار .



الجن عند العرب وفي حديث القرآن :

وفي ص (٦٦) وما بعدها يقول المؤلف : إن القرآن يجري في فنه البياني على أساس ما كانت تعتقد العرب وتتخيل لا على ما هو الحقيقة العقلية ، ولا على ما هو الواقع العملي .. وهو يجري على هذا المذهب حيث يتحدث عن الجن ، وعن عقيدة المشركين فيهم ، وأنهم كانوا يستمعون إلى السماء ليعرفوا أخبارها ، ثم يقومون بعد ذلك بالقاء هذه لأخبار على الكهنة .. الخ .. وقد أورد المؤلف قولاً للامام الزمخشري في الكشف .. عند كلامه على هذه الآية : ﴿ لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴾ إذ يقول الزمخشري : لا يقومون إذا بعثوا من قبورهم الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان أى المصروع .. وتخط الشيطان من زعمات العرب .. يزعمون أن الشيطان يخط الانسان فيصرع ، فورد على ما كانوا يعتقدون ، والمس : الجنون ، ورجل ممسوس .. وهذه أيضاً من زعماتهم .. وان الجنى يمسسه فيختلط عقله ، ورأيت لهم في الجن قصصاً وعجائب وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات .

وعندى أن كلا الكلامين - كلام خلف الله وكلام الزمخشري -

عجيب ، وخطأ .. وارتجال ، بل هو من مزلق الفتنة والردة عن الاسلام .. إذ كيف يجراً مؤمن مسلم على أن يظن به أن يعتقد - أن الله سبحانه - يتحدث إلى الناس ويضرب لهم الأمثال على مقرراته الإلهية من آداب وعقاب .. بالمزاعم الباطلة مجاملة لعقائدهم الضالة ؟ .

ومن أين للذاهبين إلى ذلك : الحجة العقلية والبرهان الواقعي ؟ من أين لهم الحجة العقلية أو البرهان الواقعي على أن خبط الشيطان للإنسان عقيدة جاهلية باطلة ، أو خرافة لا أساس لوجودها ؟ إن الحجة العقلية والبرهان الواقعي معاً ، يقومان بين أعينهم ، وعلى مسمع منهم قبل أن ينزل القرآن .. وبعدما نزل إلى اليوم .. وإلى أن تقوم الساعة ، ويشهدان بحقيقة وجود الجن والشياطين ، وبحقيقة صلة الجن - والشياطين هم كفارهم وفساقهم - بالإنس صلة إحياء ، وصلة إيذاء .

وهذه قصص ومشاهد المصايين بحُط الشياطين ومس الجن .. على مرأى ومسمع من المنكرين كل يوم .. بل هذا القرآن يزيد قيام هاتين الصلتين تأكيداً وتأيداً فيقول :

- ﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾^(١)
- ﴿وان الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾^(٢)
- ﴿ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقبُص له شيطاناً فهو له قرين﴾^(٣)

(١) سورة الاعراف/ ٢٧ .

(٢) سورة الانعام/ ١٢١ .

(٣) سورة الزخرف/ ٣٦ .

- ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ، وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ۖ﴾ (١)
- ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ ۖ﴾ (٢)
- ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادَهُمْ رَهَقًا ۖ﴾ (٣)
- ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۖ﴾ (٤)
- وفي القرآن آيات كثيرة عن تسخير الشياطين لخدمة سليمان عليه السلام ، وتزيينهم للكفار أعمالهم وإيقاعهم العداوة والبغضاء بين الأحياء ، وأن النجوم جعلت زينةً للسماء ورجوماً للشياطين حين يسترقون السمع - وآيات أخرى عديدة تحذرننا من كيدهم ونزغهم ووسوستهم .. الخ ..
- ثم هذه الأحاديث والآثار تؤكد صلة الجن بالإنس :
- (ما من نبي آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً
إلا مريم وابنها) (٥)
- (إذا استعجن الليل فكفوا صبيانكم ، فإن الشياطين تنتشر حينئذ .. واغلق بابك واذكر اسم الله ، واطفيء مصباحك واذكر الله ..) (٦)

(١) سورة الانعام/ ١٢٨ .
(٢) سورة الانعام/ ١٠٠ .
(٣) سورة الجن/ ٦ .
(٤) سورة البقرة/ ٢٧٥ .
(٥) رواه الامام البخارى .
(٦) المصدر السابق .

- (وفى حديث مكحول : انه مر برجل نائم بعد العصر فركضه برجله .. وقال : إنها ساعة مخرجهم وفيها يكون الخطبة) .

- (وفى حديث المفقوذ الذى اختطفته الجن فى عهده عليه الصلاة والسلام قال «جاءنى طائر كأنه جمل فتعثر فى» الخ ..

وقد علق الإمام الاسكندرى فى (الانتصاف) على كلام الزمخشرى بقوله : «هذا القول على الحقيقة من تحبط الشيطان بالقدرية فى زعماتهم المردودة بقواطع الشرع .. وإنما القدرية خصماء العلانية ، فلا جرم أنهم ينكرون السحر ، وخبط الشيطان ومعظم أحوال الجن ، فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون» .

أما حديث المؤلف عن عقيدة المشركين فى «الجن» وفى استراقهم لأنباء السماء ، وزعمه أن القرآن تكلم عن هذه المسألة على أساس معتقدات العرب وتخيلاتهم ، لا على أساس الواقع والحقيقة - فهو خطأ وزلل ، بل هو أيضاً من مزالق الفتنة والردة عن الاسلام . ذلك لأن القرآن تحدث فى مسألة استماع الجن إلى أخبار السماء بلسان الجن أنفسهم ، لا بلسان العرب ولا بالحكاية عنهم ..

ويبدو أن المؤلف لم يقرأ سورة الجن التى تقرعه بالحجة الدينية الساطعة ، والبرهان التاريخى الدامغ بأسلوب صريح ولهجة حاسمة : ﴿قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن : فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً ، يهدى إلى الرشd فآمنا به﴾ .

ثم يضى القرآن فى رواية ما قاله الجن ، إلى أن يأتى على قلوبهم : ﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ، وإنا كنا نعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً

(١) للإمام ابن تيمية تفصيل وتأكيد لتلبس الجن بالإنس ، وصرعهم لهم فى الفتاوى ج/١٩ ص/٣٥ وما بعدها .

رَصْدًا ﴿١٠﴾ .

وفى سورة الشعراء حجة أخرى .. على الحقيقة التاريخية لاستراق الشياطين لأنباء السماء فهذه آياتٌ منها تقول : ﴿هل أنبئكم على من تنولُ الشياطين ، تنزل على كل أفَّاك أثيم ، يلقون السمع واكثرهم كاذبون﴾ .
فهل يُبنى القرآن عن خرافة وباطل ، أم يُبنى عن حقيقة وتأريخ ؟ .

وفى سورة الأحقاف تقريرٌ قاطع لحقيقة وجود الجن : ﴿واذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولّوا إلى قومهم منذرين﴾ .
ماذا بعد كلام القرآن عن حقيقة الجن ، واستماعهم إلى أنباء السماء الا باطل المؤلف وضلاله .. على أنه إن شاء مزيداً من الحق والهدى ، فأمامه وثائق الحديث النبوى - فى هذه المسألة - وأمامه أيضاً تأريخ الكهانة والكهان .

النسخ فى الأخبار : مستحيل وباطل :

نأتى بعد ذلك إلى جراءة أخرى من جراءات المؤلف ، بل إلى جهالة جديدة من جهالاته العديدة ، فهو يروى فى ص (٧٠) عن الامام الرازى بعض ما وجَّهه المبطلون من طعون وشبهات .. إلى ما ورد فى القرآن من جعل الله سبحانه الكواكب رجوماً للشياطين كقول بعضهم : لم لم يمنع الله الشياطين إبتداءً من الصعود إلى السماء حتى لا تحتاج فى دفعهم عنها إلى هذه الشهب ؟ وكقول

الآخرين : إن هؤلاء الشياطين لو كان يمكنهم نقل أخبار السماء إلى الكهنة ، فلم لينقلوا أسرار المؤمنين إلى المشركين ؟ .

ثم يعقب المؤلف العبقري على ذلك بقوله : «لوفطن الرازي من أول الأمر إلى أن القرآن إنما يحارب عقيدة الرجم بأسلوبه الخاص القائم على فكرة التدرج كالتدرج في التشريع لتحريم الخمر وغيرها ، لما أتعب نفسه وغيره في هذه الوقفات الطويلة ، ولقال : إن القرآن إنما يأخذ الناس بتصوراتهم ، وإنه في هذا الموقف سلم بهذه العقيدة لا لأنها صدق وحق ، وإنما يريد أن يهدمها تدريجياً كما كان يفعل في أمور التشريع .. الأمر الذي من أجله كان النسخ في التشريع . وقد زل المؤلف فيما رواه عن الامام الرازي ، وفيما استنبطه منه .. وفيما زعمه من عندياته - هذه الزلات الثلاث :

□ الأولى : أنه لم ينقل عن الرازي تعقيباته على مطاعن المبطلين وشبههم ، حول كون النجوم رجوماً للشياطين ..

□ الثانية : زعمه أن القرآن بما يقصه عن هذه الرجوم ، إنما يقصد عدم واقعته ويرمى إلى محاربته ..

□ الثالثة : فهمه العجيب لقاعدة التدرج في التشريع الإسلامي . وتعليله الأعجب لقيام النسخ فيه ، وخلطه بين النسخ في التشريع - وهو ممكن وواقع - والنسخ في الأخبار - وهو مستحيل وغير موجود في القرآن ..

فأما مسألة الكواكب .. فالقرآن بأسلوب جازم حاسم يقرر أن الله سبحانه قد تعلقت إرادته وحكمته في خلقها بخصائص ثلاث الأولى : كونها مصابيح لهداية سراق الليل بالأرض ، والثانية :

كونها زينة للناظرين إلى السماء ، والثالثة : كونها رجوماً لِسَرَقَةِ
الوحي من الجن والشياطين ..

وليتدبر قارئ القرآن معنى ما جاء في الآيات التوالى : من كلمة
«جعلناها» وكلمة «حفظناها» وما تعنيانه من تقرير حقيقة تكوين
الكواكب بخصائصها الثلاث المذكورات آنفاً :

□ ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ، وَجَعَلْنَاهَا رَجُومًا
لِّلشَّيَاطِينِ﴾^(١)

□ ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ، وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ
شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾^(٢)

□ ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا .. ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ﴾^(٣)

□ ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ، وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ، وَحَفِظْنَاهَا
مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ الْإِنَّمَا اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مَبِينٌ﴾^(٤)
وأما كلامه عن قاعدة «التدرُّج في التشريع الاسلامي .. وعن
النسخ ، فقد كان دليلاً جديداً على ما يتمتع به من علم وفهم ،
ذلك أن التدرُّج في التشريع الاسلامي جاء - مثلاً - في تحريم الخمر
على النحو التالي :

أولاً : لفت القرآن نظر شاربيها لفتاً خفيفاً إلى أنها ليست من
الرزق الحسن فقال : ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ

(١) سورة الملك/٥ .

(٢) سورة الصافات/٧ .

(٣) سورة فصلت/١٢ .

(٤) سورة الحجر/١٦ - ١٨ .

سكراً ورزقاً حسناً» .

ثانياً : تقدم القرآن خطوة أخرى فأشار إلى أن مآثمها أكبر من منافعها ، فقال عنها وعن الميسر : ﴿وإنمها أكبر من نفعها﴾ ، ومنافع الخمر والميسر منافع مادية بحتة ، وهى أرباح المتاجرة بصناعة الخمر وبيعها ومكاسب الميسر مثلها ..

ثالثاً : جاءت خطواته الثالثة لتحريمها على القائمى إلى الصلاة ، فقال : ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ . رابعاً : أقدم القرآن أقدامه الأخير فى تحريم الخمر مطلقاً فقال : ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلمكم تفلهون﴾ .

فأين فى هذه الآيات - كمثال على قاعدة التدرج فى التشريع الاسلامى - ما يزعمه المؤلف النابغة من أن القرآن يأخذ الناس بعاداتهم ومعتقداتهم ، ويسلم بها أولاً ، ثم يأخذ فى هدمها مستعيناً بالزمن ؟ .

ثم أين وجه الشبه بين هذا المثال من قاعدة التدرج القرآنى فى التشريع وبين ما تخيله المؤلف من وجود قاعدة تدرج قرآنى فى رواية الأخبار وحكاية القصص عن الجن والشیاطین وصلتهم بالإنس ، والنجوم وكونها رجوماً لمسترقى أنباء السماء ؟ !

أما النسخ .. فلا يقع فى الأخبار^(١) الا ما جاء منها بمعنى الطلب . ويقع النسخ فى الأمر والنهى ولو جاء بلفظ الخبر كنسخ

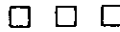
(١) يقول الحارث المحاسنى فى كتابه (فهم القرآن) : لا يجوز النسخ فى أخبار القرآن ولا فى أسماء الله وصفاته .. ومن قال بذلك فقد كفر .

آية النجوى ، ونسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة ،
ونسخ حبس الزانى بالحد ، ونسخ النهى عن القتال في الأشهر
الحرم بآية : ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُوكُمْ كَافَّةً﴾ .
وإنما جاء النسخ في هذه الأمور لأنها إنشائية : أمرٌ ونهىٌ
وإباحة .. على أن مسألة النسخ في التشريع الإسلامي مثار اختلاف
بين العلماء والفقهاء - قديماً وحديثاً - ويقول منكروه .. ليس هناك
نسخ إنما هو تخصيص عام ، وتقييد مطلق ، وتفصيل مجمل ، وضم
حكم إلى حكم مراعاةً لمقتضيات الظروف أو الأحوال .
وعلى القول بالنسخ .. لا نرى ما يمنعه في الأحكام عقلياً
وتشريعياً ، لأن الله سبحانه أدرى بما يصلح خلقه ، واعلم
بدخائلهم وإمكانياتهم ، وأحكم في معالجة نفوسهم ، ومجتمعاتهم
بمختلف أحكامه وآدابه تدرجاً مع استعدادهم وامدادهم ،
وتصديقاً لقوله تبارك وتعالى : ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ
مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ (١)

ولكن يمتنع عقلياً وتأريخياً أن ينسخ الله سبحانه - في القرآن
خبيراً بخبر أو قصة بقصة .. لأن هذا يعنى عدم صحة الخبر الأول ،
وعدم واقعية القصة الأولى ، وذلك ما يريد أن يلتبس المؤلف
الأدلة والأمثلة عليه لتأييد دعواه وجود الأساطير والأخطاء التاريخية
في أخبار القرآن .. وهو مقصد لا يتحراه من يؤمن بالله إلهاً تمت
كلمته - أى القرآن - صدقاً في الأنباء ، وعدلاً في الأحكام كما
يقول عز وجل : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا .. لَا مَبْدَلَ

(١) سورة البقرة/١٠٦ .

لكلماته ، وهو السميع العليم^(١)



بقى أن نتصدى للشبهتين اللتين أوردهما المؤلف نقلاً عن الامام الرازى دون أن ينقل رده عليهما :

إن الامام الرازى يقول فى الرد على الشبهة الأولى : «لعل الله أقدرهم - أى الشياطين - على استماع الغيوب من الملائكة ، وأعجزهم عن ايصال أسرار المؤمنين إلى الكافرين ، ويقول رداً على الشبهة الثانية : «إن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد»

وبالحق أن رد الرازى على هاتين الشبهتين لا يغنى قليلاً ، ولا يشفى غليلاً ، وكأنه كان - رحمه الله - يريد أن يوجهها بإيمانه دون عقله ، وهذا لا يكتفى فى مجادلة قوم يلقون شبههم فى اسلوب قائم على الجدل الفكرى وحده ، بعيد كل البعد عن الايمان .. أما أنا فأرى دحضاً لأحدى الشبهتين : أنه لا يلزم من تمكين الله سبحانه وتعالى للشياطين من استراق بعض أنباء السماء : ان يمكنهم أيضاً من معرفة أسرار خلقه فيما بينهم ، وإفشائها خلاصهم .. وذلك لأن إرادته سبحانه قد تعلقت - فى إمكانهم من ختلاس بعض غيوب السماء - بوجود السحرة والكهان الذين تنزل عليهم الشياطين بالأنباء السماوية .. مزيدة أو محرقة .

ولا يجوز لعاقل - فضلاً عن مسلم - أن يسأل لماذا أوجد الله طائفة الكهان والسحرة ؟ إلا إذا جاز له أن يسأل لماذا أوجد الله الأئمة والأشرار فى الدنيا ، ولم لم يستغن الله سبحانه وتعالى بعدم

(١) سورة الانعام/ ١١٥ .

إيجادهم عن إيجاد العقاب والعذاب في الآخرة ؟ .. وفي هذا ردُّ على الشبهة الأخرى التي تقول : لماذا لم يمنع الله الشياطين ابتداءً من الصعود إلى السماء ؟ .

إن إرادة الله سبحانه وتعالى قد تعلّقت في عمران الكون ، وخلافه البشرية على الأرض وتنظيم شئونها حياةً وموتاً ونصراً وهزيمةً - بعدم تمكين الجن والشياطين من معرفة أسرار الانس^(١) وبعدم امكانهم من افشائها بينهم على فرض علمهم ببعضها - والا لما انكمتم للناس سر .. ولما قضيت لهم حاجة .. ولاضطربت أمورهم اضطراباً .. ولخربت ديارهم خراباً وكان قيام الخليقة - على هذه الصورة - عبثاً غير مفهوم المبادئ والغايات ؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

اتهام الأنبياء بالوثنية :

وفي ص (٨٠) يتهم المؤلف أنبياء الله ورسله بأنهم كانوا في بداية حياتهم ، وقبل أن يندبوا للدعوة إلى الله كدأب أقوامهم .. يدينون بدينهم ، ويعبدون آلهتهم ، ويقلدونهم في كل ما يقال ويفعل . وأسانيده في هذا الاتهام الجريء البذيء : فهم سىء لبعض آيات القرآن ، وجهل أسوأ بقواعد اللغة ، ومجازات البلاغة ، وأصول التفسير .

- فهو يذكر قول فرعون عن موسى عليه السلام : ﴿ أَلَمْ نَرْبِكْ فِينَا وَلِيداً .. وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عَمَرِكِ سِنِينَ ، وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي

(١) نستثنى من ذلك إتصال بعض الشياطين من الجن بالسحرة والكهان وكشفهم لأسرار الكائدين من الانس لإخوانهم نفثاً أو عقداً .

فعلت وأنت من الكافرين !

- ويذكر قول الملائ من قول شعيب عليه السلام : ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا﴾ .
- ويذكر قول يوسف عليه السلام : ﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله﴾ .

- ويذكر قول نبينا محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي﴾ .
ولو كان المؤلف من الباحثين عن الحقائق في معاني هذه الآيات وألفاظها لوجدها ناصعة ساطعة داحضة لكل ما فهم وما زعم .
فليس هنالك في تربية موسى في بيت فرعون دليل على أن موسى كان على شاكلة فرعون .. بل هنالك الدليل الأقوى على ما ينقض مذهب المؤلف في اتهام الأنبياء الأبرياء .. هنالك امرأة فرعون ، وهي عشيخته ووثيقة الصلة به أكثر من موسى ، كانت مؤمنة قانتة : ﴿إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله﴾ (١)

وهنالك أيضاً كون امرأة فرعون هذه هي التي اتخذت موسى وليداً ، وهي التي حضنته وربته حتى سلمته إلى أخته وهو رضيع .
أما (الفعلة) التي فعلها موسى ، وذكره بها فرعون ، فهي قتله لقبطي اعتدى على إسرائيل ، وكان القتل خطأ فلم يلبث موسى من فوره أن توجه إلى الله نادماً مستغفراً وهو يقول : ﴿هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ، قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي

(١) سورة التحریم/ ١١ .

فغفر له انه هو الغفور الرحيم ﴿١﴾ .

فن أين فهم المؤلف أن موسى كان على شاكلة فرعون ؟؟
أمن قول فرعون نفسه عن موسى : ﴿وفعلت فعلتك التي فعلت
وأنت من الكافرين﴾ ؟ وهل يكنى هذا ليحكم على موسى بما
حكم ؟ إذن كان يكنى أى قارئ للقرآن أن يحكم على نبي الاسلام
محمد عليه الصلاة والسلام بأنه كان - وحاشاه - ساحراً وشاعراً
لأن أعداءه اتهموه بالسحر والشعر !

على أن فرعون لا يعنى بكفر موسى كفره بالله سبحانه وتعالى ،
ففرعون نفسه كان يدعى انه إله .. وطبيعى أنه لم يفكر فى تعبير
موسى بالكفر بالله الحق .. وإنما كان فرعون يعنى أن موسى كافر به -
أى بفرعون نفسه - أو كافر بنعمته عليه إذ قتل أحد خواصه ، أو
كافراً من جملة القوم الذين يدعى موسى ، حين جاءه بدعوة الله ،
كفرهم بالله ، بناء على ما عرفه فرعون ، من ظاهر حال موسى
يومذاك لاختلاطه بهم ، وعدم إنكاره ما هم عليه من وثنية
أما قول موسى ﴿فعلتها إذن وأنا من الضالين﴾ فالضلال هنا
معناه : الجهل أو النسيان .. أى أن موسى فعل فعلته وهو جاهل
بأن وكزته تأتى على نفس القبطى ، أو ناس أن هذه الفعلة حرام .
وقد ورد لفظ الضلال - فى القرآن - بهذين المعنيين .. فى قوله
﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ ﴿٢﴾ أى جاهلاً بشرائع الله ، وفى قوله

(١) سورة القصص/١٥، ١٦ .

(٢) سورة الضحى/٦ .

﴿إن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾^(١) أى تنسى إحداهما الشهادة الخ .



أما ما فهمه المؤلف من كلمات ﴿أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ و﴿تَوَكَّتْ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فى قصتى شعيب ويوسف وحكم فى ضوئيه عليها بما هما منه براء ؛ فقد دل على جهله بمجازات البلاغة العربية وأصول تفسير القرآن ..

لقد جهل المؤلف قاعدة (التضمين) وهى قاعدة أدبية لا يسع أدبياً عادياً أن يجهلها ، فضلاً عن كاتب ينصب نفسه قاضياً فى الآداب العالمية ، ومقارناً بينها وبين أدب القرآن .. كصاحبنا مؤلف كتاب (الفن القصصى فى القرآن) .

إن الفعل (لَتَعُوذُنَّ) فى آية الأعراف ، وشبيهه فى سورة إبراهيم : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾^(٢) قد ضُمَّتْ معنى الفعل (لَتَدْخُلُنَّ) والإتيان بحرف الجر (فى) بعدهما دليل على إرادة هذا المعنى .. ولو كانت (العودة) واردة على حقيقتها اللفظية ، لجرى بحرف الجر (إلى) .. ثم يجب أن لا ننسى أن الأنبياء معصومون من نشأتهم عن عبادة غير الله ، وقد صنعهم الله على عينه اطهاراً أبراراً ..

والأمثلة فى القرآن الكريم على قاعدة «التضمين» هذه كثيرة منها هذه الآية من سورة البقرة : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِاهُمْ الطَّاغُوتُ

(١) سورة البقرة/ ٢٨٢ .

(٢) الآية/ ١٣ .

يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ»^(١) فالفعل «يُخْرِجُونَهُمْ» مُضَمَّنٌ معنى الفعل «يُصْرِفُونَهُمْ» لأن الكفار لم يدخلوا إلى النور فعلاً ، حتى يُخْرِجُوهُمْ مِنْهُ إِلَى الظُّلُمَاتِ .

وكذلك آية الأنبياء : «وَنُصْرِنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا»^(٢) فالفعل «نُصْرِنَاهُ» مُضَمَّنٌ معنى الفعل «نُجِّنَاهُ» ودليله حرف الجر «من» من حيث اللفظ ، وموافقة الحال من حيث المعنى إذ أن نوحاً عليه السلام لم يكن في حرب مع قومه .. وإنما هي نجاة من عذاب الطوفان الذي نزل بالكافرين منهم .

وكقوله تبارك وتعالى : «لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسْؤَالِ نَعِجَتِكَ إِلَى نَعَاجِهِ»^(٣) فسؤال النعجة مُتَضَمِّنٌ معنى جمعها وضمها إلى نعاجه وكقوله تعالى : «وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوْحِيَنا إِلَيْكَ»^(٤) فقد ضُمِّنَ الفعل «يفتنونك» معنى «يصرفونك» أو «يصدونك» ..



أما ما فهمه المؤلف من هذه الآية الكريمة : «قُلْ إِنْ نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي» من أن النبي محمداً عليه الصلاة والسلام كان - وحاشاه - يعبد ما يدعو من دون الله وأنه لم ينته عن ذلك الا حين جاءته البيِّنات من ربه .. فهو فهم عجيب أفضى بصاحبه إلى إلحاد حائق حارق .. في شخصية محمد عليه الصلاة والسلام وفي حقيقة رسالته .

(١) الآية/٢٥٧ .

(٢) سورة الانبياء/٧٧ .

(٣) سورة ص/٢٤ .

(٤) - سورة الاسراء/٧٣ .

وهو فهم لا يستند على تعليل لغوى ، ولا على وثيقة تاريخية من سيرة النبي الكريم . فقلوه : ﴿لما جاءني البينات من ربي﴾ لا يقتضى أن هذه البينات جاءت متأخرة بعد أن انسلك في مسلك قومه من ضلال ووثنية ، وأن له ماضياً مثل ماضيهم . ولماذا لا تكون هذه البينات جاءت من منذ النشأة ومنذ الطفولة ؟ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يصطفى رسله من الملائكة ومن الناس ، ويصنعهم على عينه وينشئهم حنفاء بُرءاء من الوثنية والضلال !!

وهذا ما تؤيده الوثائق التاريخية من سيرة نبي الاسلام عليه الصلاة والسلام وسير جميع أخوانه من الأنبياء والمرسلين .. فلم يرد عن أحدهم أنه نبت في منابت الوثنية والضلال عن سنن الله ، الذى اصطفاهم لهداية عباده ، وعارة بلاده بالحق والخير والعدل والنور ..



بقى قول القرآن الكريم حكايةً عن يوسف عليه السلام : ﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله﴾ فقد فهم المؤلف العبرى أن (ترك) تعنى ملابسة التارك سابقاً للشيء المتروك وعلى هذا فيوسف - بزعمه - كان على ملة قومه !

وهذا فهم لا نصير له من مرجع لغوى ولا وثيقة تاريخية .. واللغة لا تفرض هذا المعنى ضربة لازب . فالترك يرد على معنى الهجر أو الإهمال أو الامتناع ابتداءً ، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى في القرآن وأشعار العرب ونثرهم :

كقوله تبارك وتعالى : ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾^(١)
وقوله عز وجل : ﴿كَمِثْلِ الْكَلْبِ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكَهُ
يَلْهَثُ﴾^(٢)

ومحضرني حديث هند بن أبي هالة عن أوصاف النبي عليه
الصلاة والسلام أنه (قد ترك نفسه من ثلاث : الرياء ، والإكثار ،
وما لا يعنيه) ، أى منع نفسه وصانها عن هذه الخصال المشينة !
وتأريخ الأنبياء يروى هجرة محمد من مكة إلى المدينة ، وموسى
من مصر إلى مدين ، وعيسى من فلسطين ، وتركهم ملل أقوامهم .
وقد وصف نبينا يوسف بأنه : (الكرم ابن الكريم ابن الكريم ابن
الكرم) فهو ابن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ..
فكيف يحكم المؤلف - بل يظن - أنه كان على ملة قومه ؟ .

حرب الأعصاب في القرآن :

ومن هجمات المؤلف الجريء على واقعية القصص القرآني قوله
في ص (١٢٨) : إن القرآن في هجومه العنيد على أخلاق اليهود إنما
يشنُّ عليهم بذلك «حرب أعصاب» لا أكثر ولا أقل .. إنها الحرية
الفنية أيضاً التي تدفع بالأديب إلى أن يلاحظ الواقع النفسى أكثر
من ملاحظته لصدق القضايا وصحتها .. !

ومعنى هذا أن القرآن الكريم - وحاشاه - قد علّم ساسة
الاستعمار الظالم وتجار الحروب السياسية والعسكرية فنَّ الدعاية

(١) سورة القيامة/ ٣٦ .

(٢) سورة الاعراف/ ١٧٦ .

الكاذبة والالتهام المفترى . فى سبيل كسب المعارك أو القضايا إزاء الأعداء والخصوم ! وهو ما يعرف اليوم «بحرب الأعصاب» التى أصقها المؤلف بالقرآن فى فضحه لأخلاق اليهود !!

ومعنى هذا أيضاً أن اليهود أبرياء من نقض العهود وخيانة المواثيق ، والمتاجرة بأحكام التوراة بأثمان قليلة ، ومعاندة أنبيائهم واغتيالهم للبعض منهم ، وأخذهم الربا ، وأكلهم السحت .. وغير ذلك من سجايا السوء التى سجّلها القرآن عليهم .. وإنما هى «حرب أعصاب» يشنها القرآن عليهم لا أقل ولا أكثر !!

وهو كلام لا ندرى كيف نرد عليه .. بل هو فى الواقع لا يحتاج إلى رد ، وإنما يحتاج إلى فضح قائله بالإشارة إليه كمكذب بآيات الله ، ومنكر لصدق القصص القرآنى ، وكفى !

التجوز والتصرف فى تعبير القرآن :

وللمؤلف فى ص (١٣٦) إلى (١٥١) كلام طويل عن «القصة» وما قيل فى قواعدها وشروطها - ويعنينا منه قوله : «إن فى تعبير القرآن .. كذبت قوم نوح المرسلين - كذبت عاد المرسلين - كذبت ثمود المرسلين الخ تجوزاً وتصرفاً خلافاً للحقيقة التاريخية التى نعلمها .. وهى أن قوم نوح وعاد وثمود لم يكن لكل منهم الا رسول واحد !»

يقول ذلك وهو فى سهو عقلى غارق لم يفتن معه إلى أن تكذيب الأمة الواحدة لرسولها الواحد ، فيما دعاها إليه من توحيد الله سبحانه وتعالى ، تكذيب لجميع الرسل قبله وبعده ، لاتحاد

الدعوة ، واتفاق الدعاة ، ولزوم الايمان بالجميع :

□ ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم .. لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون﴾^(١)

□ ﴿لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾^(٢)

وقد أمرنا نحن المسلمين اتباع محمد ﷺ - في القرآن وحديث الرسول : أن نؤمن بالله وملائكته ورسله جميعاً واليوم الآخر .. ومن لم يؤمن بنبي واحد من الأنبياء فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ .

ومن سهوات المؤلف العقلية الغارقة في الخطأ والخطل أنه رأى في توجيه القرآن الخطاب إلى اليهود بالمن عليهم ، وتذكيرهم بنعمة الله على أسلافهم في قوله : ﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون﴾ مظهراً من مظاهر تجوز القصص القرآني في ذكر الحقائق التاريخية ، إذ يصور ما حدث لأجدادهم في زمن موسى وقبلة ، بالصيغة التي تدل على الحضور والمشاهدة ، كأن الأمر واقع بهم الآن ! وقد فاتته في هذه السهوة السادرة ، أن يدرك أن نجاة اليهود في عهد نبي الاسلام عليه الصلاة والسلام من آل فرعون حقيقة واقعية تاريخية ، منبثقة عن نجاة أسلافهم الذين عايشوا فرعون على ذل واستعباد ، إذ لو لم ينج (الأصل) لا تقرض (النسل) !!

(١) سوية البقرة/١٣٦ .

(٢) سورة البقرة/٢٨٥ .

وفى ص (١٦٦) يورد المؤلف هذه الآية : ﴿حتى إذا بلغ
مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوماً﴾
ثم يقول : إن جلوس قوم في قرب الشمس غير موجود ، وإن
الشمس أكبر من الأرض ، فكيف يعقل دخولها في عين حمئة من
عيون الأرض ؟ ويروى هنا كلاماً للإمام الرازى ، معناه أن يصار
إلى التأويل في مسألة غروب الشمس في العين الحمئة لأنها خلاف
اليقين .. وكلام الله مبرأ من هذه التهمة ؟ .

ونحن نرى أنه لا داعى إلى كلام كثير كهذا أو إلى الذهاب بعيداً
عن مفهوم عبارة القرآن الجليلة الواضحة ، أو بعيداً عن واقع
الشمس وواقع العين ، فالضمير في «عندها» يصح أن يكون عائداً
إلى العين ، لا إلى الشمس كما فهمه المؤلف أو الامام الرازى .
وبذلك لا يستحيل وجود القوم قريباً من العين ، كما يمكن أن يقال
أن غروب الشمس في العين الحمئة ، هو غروب نسبي محلى ، أى
بالنسبة لهذه البقعة من الأرض .. كما هو مشاهد في سواحل البحار
حيث يرى الناس في كل ساحل منها أن الشمس تغرب في بحرهم !
ونظرية «النسبية» صحيحة علمياً ، وتنطبق على كافة الناس في
كل زمان ومكان ، نظراً لطاقت أبصارهم وأسماهم المحدودة .
وقد جاء في القرآن أن للشمس مشرقاً واحداً ومغرباً واحداً ،
باعتبار الوحدة الكونية ، وجاء فيه كذلك أن لها مشرقين ومغربين ،
باعتبار اختلاف شروقها وغروبها صيفاً وشتاءً ، وجاء فيه أيضاً أن
للشمس مشارق ومغارب ، باعتبار اختلاف ميقات الشروق
والغروب في كل بلد من بلاد العالم .. وعلى ذلك فنسبية غروب

الشمس في العين الحمئة حقيقة واقعية لا تحتاج في تلمسها إلى تأويل ..



ويروى المؤلف في ص (١٧١) كلاماً من التفسير القديم عن قصة «ابن آدم» وما قيل من أنها لم يكونا ولديه ، وإنما هما اخوان من بني اسرائيل ، وقد رد بعضهم على هذا الوهم بأن عملية الدفن لم تكن مجهولة في بني اسرائيل ، حتى يبعث الله الغراب ليعلم القاتل كيف يوارى سوءة أخيه . !

وإلى هنا والكلام سليم .. ولكن المؤلف لا يزداد ايماناً بقصص القرآن كما ينبغي وإنما يتخذ من القول الخطأ عن ابن آدم بأنها اخوان من بني اسرائيل مجالاً ليصول فيه بطعن جديد في قصص القرآن ، فهو يقول : إنه لا حاجة إلى هذه النظريات المتضاربة ، فإن القرآن يقصد هنا إلى التصوير والتمثيل .. ويجمع بين تقديم القرين ، وبين ما ترتب عليه من حسد ، وما أدّى إليه الحسد من قتل ثم بعث الغراب .. وهذه هي طريقة القرآن في إختيار مواد متباعدة في الزمن لبناء قصصه على أساس أدبي عاطفي !

وهكذا يبدو المؤلف - لنفسه - فقط ذكياً وفطيناً وقديراً على استنباط الفهم والأحكام الصحيحة التي عجز عن الإتيان بها الأولون والآخرون . وفي سبيل استمتاعه بنشوة هذا الغرور وهذه الكبرياء يقع من حيث يدرى أو لا يدرى في هوة سحيقة من الإلحاد في آيات الله البينات وكلامه المحكم ، فإن معنى كلامه هذا : أن القرآن يجمع في قصة واحدة بين مواد متباعدة في الزمن ،

متناقضة في حقائقها التاريخية .. أى أن «تقديم القربان» أو الجهل بطريقة الدفن ، غير واقعي في قصة إبنى آدم ! ومعنى هذا بالتالى : ان رواية القرآن غير صادقة في تعبيرها عن الواقع التاريخي لبعض قصصه ! مع أن هذه القصة متناسقة الفصول ، لا تنافر بين أبطالها وموضوعها .. شأن القصص القرآني كله بلا استثناء .



وأورد المؤلف في ص (١٨٨) قصة طلب إبراهيم عليه السلام من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ، وجاء بعد ذلك برواية من تفسير الرازى عن أبى مسلم أنه ينكر تقطيع إبراهيم للطير ، ويرى أنه أمر بتمرينها على الإرسال والإقبال ، وان الغرض من ذلك ضرب مثال محسوس على عودة الأرواح إلى أجسادها الخ .. ثم أورد المؤلف قولاً من تفسير المنار بتأييد أبى مسلم في مذهبه الغريب .. ولم يلتفت إلى ما افتتح به الرازى كلامه على هذه القصة من قوله : (أجمع أهل التفسير على أن المراد بالآية قطعهم) .

ونحن لا نجد لهذا المذهب الشطط ، ما يؤيده من وثيقة تاريخية من سيرة إبراهيم أو حجة عقلية أو استحالة واقعية لتقطيع الطير .. وإنا سائلوهم كيف يكون مجرد تمرين أربعة من الطير على عملية الإرسال والإقبال حجةً لله سبحانه وتعالى على إبراهيم في سؤاله برهاناً على كيفية إحياء الموتى ، أو عودة الأرواح إلى أجسادها .. وهل يعد ذلك مثلاً محسوساً كما يرى أبو مسلم - إن صحّت نسبة هذا القول إليه - غفر الله له ؟ .

إن عملية تأنيس الطير وكافة الحيوانات على الإرسال والإقبال

والخدمة ، عملية سهلة يباشرها الناس من القديم إلى اليوم ، واعتقد أنها من التفاهة وقلة الشأن ، بحيث لا يمكن أن تكون برهاناً إلهياً على إحياء الموتى ، وعلى حقيقة البعث ولا يمكن أن يجد إبراهيم فيها شفاءً لقلبه وهدىً لحيرته ، ولا يمكن أن يرى فيها دليلاً جديداً على قدرة الله التى تتوانى بل تتفانى دونها قدر البشر .
 أما من الناحية اللغوية فاللفظ «صُرْهَن» حقيقى واضح ..
 و «بأتينك سعيًا» تدل بمفهومها الصارخ على أن الطير قد أُلقيت قبل ذلك جثثًا هوامد على الجبال .

هل القرآن يبنى قصصه على الأساطير؟

والآن نتقل إلى ص (٢٠٢) وما بعدها من الكتاب لنقرأ كلاماً آخر للمؤلف عن قصص القرآن باعتبارها «أساطير الأولين» فى زعمه وزعم المبطلين السابقين .. فهو يقول هنا : «إن المشركين عندما وصفوا القرآن بهذا الوصف لم يكن ذلك منهم كذباً وادعاء ، بل كان شبهة قوية وعقيدة ثابتة لديهم .. كما أن القرآن نفسه لم ينف وجود الأساطير فيه ، حتى إن ما جاء فى القرآن من قوله : ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا﴾ ، قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً﴾ لا يبنى وجود الأساطير فى القرآن ، وإنما يبنى أن تكون هذه الأساطير من اكتاب محمد ويثبت أنها من عند الله ، وعلى ذلك إذا قلنا فى القرآن أساطير لا نعارض نصاً من القرآن .
 ويناقض المؤلف نفسه ، فيزعم أن القول بالأساطير فى القرآن

إنما كان في الجزء المكي منه بسبب البيئة الجاهلية في مكة ، ثم انقطع ذلك في الجزء المدني منه لأن بيئة المدينة كانت مثقفة بفضل اليهود الذين هم من أهل الكتاب !

أفليس معنى هذا أن المكين وصفوا قصص القرآن بأنه أساطير لأنهم جهلاء بالتاريخ ، وأن المدنيين سكتوا عن هذا الزعم الباطل لأنهم مثقفون ؟ وإذا صح ذلك - وهو صحيح باعتراف المؤلف نفسه - فكيف يصح أن يزعم هو بأن هذه القصص القرآنية أساطير وأوهام ومفتريات تأريخية اقتداء بالمشركين الجهلاء ، مادام أن اليهود المثقفين سلموا بها ؟

أما قوله إن القرآن لم ينف وجود الأساطير فيه ، وإنما نفي اكتاب محمد لها واثبت روايتها من عند الله - فهو على جراءته وبداءته في حق الذات الإلهية المقدسة قول مردود ، فالله عز وجل يقول في القرآن : ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا : أساطير الأولين ، ليحملوا أوزارهم كاملةً يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم - الا ساء ما يزرعون﴾ ^(١) .. ويقول أيضاً : ﴿إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، سنسمه على الخراطوم﴾ ^(٢) . فهل هناك أفصح ردّاً على زعم المشركين وجود الأساطير في القرآن - وهو زعم المؤلف - من ما عقّب به القرآن على هذا الزعم من أنه أوزار ساءت من أوزار ، وإضلال بغير علم ، وما عقّب به أيضاً من أن جزاء هذا الزعم الباطل وسم بالنار على أنف صاحبه

(١) سورة النحل/٢٤، ٢٥ .

(٢) سورة القلم/١٥، ١٦ .

يوم الحساب ؟ .

والعجيب : أن المؤلف أورد آية أخرى تؤكد نفي القرآن لوجود الأساطير ولكنه تجاهلها أو لم يفتن إلى الحجة الدامغة فيها ، أو عميت بصيرته دون بصره عنها ؟ . هذه الآية هي قوله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ بعد قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا أُسَاطِيرَ الْأَوَّلِينَ ﴾^(١)

الا يكتفى دحضاً لذلك الزعم الباطل : أن يقال أن الذي أنزل قصص القرآن هو الله سبحانه الذي يعلم السر في السماوات والأرض .. وماذا بعد السر من علم يطلبه الباحثون عن المعجزات الخوارق ، والباحثون عن أنباء الصِّحاح ؟

وليس ذلك كل جرأة المؤلف وبذاءته .. فقد أحب أن يلطف هذه الجرأة والبذاءة في موقفه من قصص القرآن فقال : إن القرآن ببنائه القصة الدينية على بعض الأساطير قد جعل الأدب العربي يسبق غيره من الآداب العالمية في جعله القصة الأسطورية لوناً من ألوان الأدب الرقيق الرفيع ويكفيها فخراً أن كتابنا الكريم قد سنَّ السنن ، وقَعَدَ القواعد ، وسبق غيره في هذا الميدان ! !

ماشاء الله .. وما أعظم ما فتح به الشيطان على المؤلف العبقري من بهتان ! وما أكذب هذا الفخر وأبطل هذه الدعوى بسبق القرآن لجميع الأدباء والشعراء والقصاص إلى حبك الأساطير والأوهام^(٢) !

(١) سورة الفرقان/٦،٥ .

(٢) الاساطير في معاجم اللغة وكتب التفسير : هي الأحاديث الباطلة ، وما سطره الاؤلون من اعاجيب وترهات لا صحة لها .

لا .. أيها العبقري المفتوح عليه فتوح الشياطين .. ليس القرآن سابقاً إلى شيء من هذا البهتان والزور ، ولا لاحقاً به . إنه كلام الله إلى عباده .. كلام هداية وإرشاد ، عن طريق الأحكام والوصايا التي أنشأها الله إنشاء لهم ، وعن طريق الأخبار التي يروها عن أحوال الأمم الغابرة : رواية لا باطل فيها من زيادة أو نقص ، لتكون موعظةً وعبرةً صادقتين .



نفية للوحدة القصصية في القرآن :

وفي ص (٢١٤) يقول المؤلف باستحالة الجمع بين ما جاء من قصة إبراهيم عليه السلام مفرقاً بين سور «البقرة» و«هود» و«الأنبياء» في وحدة قصصية وكذلك قصص غيره من الأنبياء !! ونحن لا ندري أى معنى يريده المؤلف بالوحدة القصصية ؟ هل يريد غير ما تعارف عليه القصاص من أن «الوحدة القصصية» هي وحدة بطل القصة ، أو وحدة موضوعها ؟

إن وحدة البطل هنا هي «إبراهيم» عليه السلام ..
 ■ هي إبراهيم - في سورة البقرة - في بداية نبوته عندما أراد أن يطمئن قلبه ، فسأل ربه برهاناً على كيفية إحياء الموتى ، البعث ..
 ■ وهي إبراهيم أيضاً - في سورة الأنبياء - عندما أراد أن يضع بين أعين قومه برهاناً على ضلالتهم في عبادة الأصنام : ﴿فَجَعَلَهُمْ جَذَازاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ﴾ وكاد لينجح في مهمته مع قومه ، فيؤمنوا بدعوته .. لولا أنهم نكسوا على رؤوسهم ..

■ وهى إبراهيم كذلك - فى سورة مريم - حينما رأى نفسه عاجزاً عن هداية أبيه وهو أقرب الناس إليه ، وأكرمهم عليه ، إلى الإيمان بدعوته ..

أما وحدة الموضوع فهى - بالجملة - طلب إبراهيم ، وهو مباشر دعوته أن يقتنع بها بينه وبين نفسه ، ثم محاولته أن يقتنع بها قومه ، ثم عجزه عن اقناع أبيه .. وما تحلل ذلك من إلقائه فى النار ، وإقدامه على ذبح ابنه اسماعيل ، ونجاة من النار ، ونجاة ابنه من الذبح ، وهجرته إلى مكة مع زوجته هاجر وبناء الكعبة واخيراً : مشيئة الله وقدرته فى الهداية والارشاد .

هذه هى الوحدة القصصية فى قصة إبراهيم ومثلها فى قصص الأنبياء التى يبحث عنها المؤلف النابغة .. فلا يراها وهى بين عينيه !

هل الأنبياء أبطال عشق وغرام !

ثم تنتقل إلى ص (٣١٤) وما بعدها لنجد غمزاً جديداً فى كلام المؤلف عن قصص الأنبياء غمزاً للأنبياء أنفسهم عليهم السلام ، فهو يقول عن يوسف إنه فتى جميل ، مليح الوجه إلى حد الفتنة والاغراء بحيث تقع فى حبه أولاً امرأة العزيز ، ثم من بعدها جمع من كرائم النساء ثم يقول : إن شخصية يوسف تمثل كثيرين غيره من الاسرائيليين الذين يتركون أوطانهم إلى غيرها حيث ينبه شأنهم ، وينهضون نهضة اقتصادية تمكنهم ، وتجعلهم كما يطلق عليهم «ملوك المال» ..

ويبدو ان المؤلف تحت تأثير مذهبه إلى القول بوجود أخطاء فى

أخبار القرآن أصبح لا يلتفت إلى نصوص القرآن الواضحة ، معترأ بروايات التوراة المحرفة ، فهو لا يقرأ في القرآن نفسه عن يوسف أن امرأة العزيز وحدها هي التي شغفت حباً به ، وراودته عن نفسه فاستعصم ، أما النساء الآخر فقد اعجبين به واكبرنه وقلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ؛ وهو لا يقرأ في القرآن أيضاً أن يوسف عليه السلام لم يذهب متاجراً إلى مصر - كما يفعل اليهود - ولم يصل إلى ما وصل إليه من الملك والسلطان في مصر نتيجة نهضة اقتصادية يهودية .. وإنما كان يوسف ضحية غيرة إخوانه لأبيه .. تأمروا عليه ، وهو غلام فألقوه في غيابة الجب ، ثم باعه الذي التقطه من الجب بثمان بحس دراهم معدودة : ودخل مصر مملوكاً ، وظل فيها سجيناً بضع سنين ، ثم عندما انكشفت براءته ونزاهته وأمانته جعله عزيز مصر أميناً على خزائنها .. إلى آخر ما قصه القرآن عن يوسف والعزيز وامراته - القرآن الذي نصب المؤلف فهمه وعلمه : ميزاناً جائراً لقصصه وأخباره !

.. وعاد المؤلف مرة أخرى إلى غمزه المقيت للأنبياء الله ورسله الأكرمين عليهم السلام .. فهو يقول عن سليمان عليه السلام في ص (٣٢٢) انه احتال لتكشُّف ملكة سبأ عن ساقها ، وقال عن موسى وشعيب عليهما السلام في ص (٤٣٣) : «وتبدأ مرحلة أخرى تصور الاعجاب بالفتى والاحتيال على لقاء الحبيب إذ تتقدم إحدى بتي شعيب إلى أيها وتطلب أن يستأجره .. ومن يستأجر ؟ (إن خير من يستأجر القوى الأمين) وكان الشيخ قد فطن إلى المراد فاسرع إلى تحقيق رغبة الفتاة ، واقدم على الفتى بقوله المؤكد (إني أريد أن

انكحك إحدى إبنتي هاتين) .

فما معنى هذا الكلام

أليس معناه أن المؤلف يجعل من بعض الأنبياء أبطال غرام لهم مغامرات واحتيالات في ميدان الظفر بالحبيب ء إن القرآن كما أسلفنا كتاب لا بد لدراسته من عقيدة صافية ، ومن إدراك كامل للمعارف اللغوية والتأريخية ، ادراك غير جامع في مناهات الظن الآثم والخيال الكذوب .. إدراك يقف به صاحبه عند معالم الحق الواضح ، ولا يتعدها باحثاً عن الظلمات يتخبط فيها ظلماً وعدواناً على الأبرياء .

فسليمان عليه السلام كما أورد القرآن قصته كان صاحب دعوة إلى الاسلام .. وجهها إلى ملكة سبأ ، ولم يكن صاحب مطمع وشهوة في جبال أو متعة جسدية ، وليس في ألفاظ القرآن ومعانيه الخاصة بهذه القصة ما يشير - ولو من بعيد - إلى هذا الظن الأثيم بنبي الله سليمان .. وكل ما في الأمر أنه أوتي عليه السلام ملكاً لم يؤته أحد من بعده وسُحَّرت له الرياح والشياطين ، وكان قصره مشيداً على أجمل وأكمل مثال من الزخرف ، وعندما دخلت الملكة بلقيس عليه ظننت الصرح الممرد من قوارير لجة ماء فكشفت عن ساقبها ، وإن يكن لسليمان عليه السلام مقصد من ذلك فهو امتحان ذكائها وفطنتها ، أو إظهار قوة ملكه ، وسعة سلطانه .. وقد سبق أن هدّد ملكة سبأ بهذا السلطان عندما بعثت إليه بهدية محاولة أن يسلمها ويتركها في ملكها وبين قومها ، فقال للرسول : ﴿ارجع إليهم فلنأتيهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجهم منها أذلة

وهم صاغرون»^(١) .

إن ما يزعمه المؤلف عن احتيال سليمان لكشف ساقى بلقيس .. هو من روايات اليهود في مراجعهم التاريخية .. ولكن هل جهل المؤلف افتراءات اليهود على عيسى ومريم وموسى وداود وغيرهم من الأنبياء ؟ .

أما ما يقوله عن إعجاب بنت شعيب عليه السلام بموسى ، وافتتانها بقوته ، واندفاعها إلى أيها تطلب منه تزويجها به ، بأسلوب الإشارة والتلميح ، ومسارعة الأب إلى تحقيق رغبتها ؛ فكل هذه خيالات وظنون آتمة لا مقرر لها الا في أذهان قُصَّاص الحب والشهوات .

وكل ما في قصة موسى عليه السلام مع شعيب أنه أسدى يداً كريمة إلى ابنتي الشيخ الكبير ، فسقى لها .. (ثم توَلَّى إلى الظل فقال : رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير)^(٢) وعندما أخبرت البنتان أباهما بصنيع موسى معها استدعاه إليه ، ولمست البنت المرافقة لموسى ديانته وأمانته عندما طلب إليها أن تمشي من خلفه أثناء ذهابه معها إلى أيها ، لأن الرياح كانت تلعب بشبابها عندما كانت تمشي أمامه فتبدى مفاتها ، وكانت من قبل قد لمست قوته في عملية السقاية ، وأبوها قبل ذلك وبعده شيخ كبير في حاجة معين . ولعل البنتين قد طال عناؤهما في السقاية ، فبدا لأحدهما أن تقترح على أيها أن يستأجر موسى راعياً لغنمه ، وكان من عادات قوم شعيب أن يمهر الرجل زوجته خدمة أيها عدداً من السنين .

(١) سورة النمل/٣٧ .

(٢) القصة مفصلة في سورة القصص من آية/٢٢ إلى آية/٢٩ .

فكان كل ذلك تمهيداً طبيعياً وعادياً لأن يزوج الشيخ احدى إبنتيه من موسى اعجاباً بقوته وأمانته وما قص عليه من قصص نبوته ، واستعانة به في رعى ماله تعويضاً عن فقدته الذرية من الذكور . أفبعد هذا يقول قائل : إن هنالك قصة حب وإعجاب بين بنت شعيب وموسى ؟ سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم ! .

دعوى مجاملة القرآن للتقاليد العربية ؟

ويقول المؤلف في ص (٣١٧) : إن القرآن عدل عن نسبة الإغواء في قصة آدم وابلis إلى حواء وهي التي أغوت آدم ، وأغرته بالأكل من الشجرة كما تقول التوراة - مجارة لتقاليد البيئـة العربية التي تجعل المرأة تابعة للرجل في كل شيء ! وهذا الفهم الخاطيء ، والتعليل المعوج من المؤلف إزاء قصة آدم ، وإزاء حقيقة المرأة العربية - كلاهما مردود عليه بالتصويب الآتي :

أولاً : إن القرآن إنما جاء محرراً للرجل والمرأة من التقاليد الضالة ، والعادات الجاهلية الظالمة .. عقائدية واجتماعية على سواء ، فليس معقولاً أن يأتي الاسلام بأسلوب ينكره مبدؤه التحريري العام ، الذي رفع به مقام المرأة عَليّاً ، وخلصها من القيود المهيئة التي كانت مفروضة عليها ، وجعلها أنثى ذات كرامة ورسالة وجهاد .

والمعروف أن القرآن جاء ينقض الأباطيل والمظالم الجاهلية

عروة .. عروة فكيف يجارى بعضها فيأتى بأسلوب يوافقها ،
فيناقض بذلك مبدأه من جهة ، ويناقص به الحقيقة التاريخية من
جهة أخرى ؟ .

ثانياً : إن القرآن لم ينسب الغواية إلى آدم حتى يقال : إنه عدل
عن نسبتها إلى حواء .. مجازاة للتقاليد العربية في تبعية المرأة للرجل ،
وإنما نسب الإغواء إلى إبليس حيث قال تبارك وتعالى : ﴿فَدَلَاهُمَا
بَغْرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهَا سَوَاتِحُهَا﴾^(١) وقال أيضاً : ﴿فَأَزَلَّهُمَا
الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾^(٢)

أما آية : ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهَا سَوَاتِحُهَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا
مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾^(٣) فقد نسبت فيها
«الغواية» إلى آدم - وليس الاغواء - بعد أن حذره الله من إبليس
بقوله : ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ ، فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ ،
فَتَشْقَى﴾^(٤) وبعد أن وقع الاغواء فعلاً من إبليس لآدم كما جاء في
الآية التالية : ﴿فَوَسَّوسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى
شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبُلَى﴾^(٥) .

وليس أمام الباحث الصادق ، سليم المقصد الا أن يسلم برواية
القرآن لا رواية التوراة التي آثرها المؤلف ، وذهب يعلى مخالفة
القرآن لها بمجاملته للتقاليد العربية الاجتماعية .. ونحن المسلمون يجب

(١) سورة الاعراف/٢٢ .

(٢) سورة البقرة/٣٦ .

(٣) سورة طه/١٢١ .

(٤) سورة طه/١١٧ .

(٥) سورة طه/١٢٠ .

أن نسلم برواية القرآن ... لأنه آخر كتاب سماوى ، واصل كتاب سماوى ، واسلم كتاب سماوى برىء من التحريف ، كما يقرر الله سبحانه ذلك مراراً فى مواضع متعددة من القرآن ، عندما يندد بمواقف اليهود من توراتهم التى مزقوها تحريفاً وفساداً .

على أنه يجب ألا يفوت قارئ الكتاب : إن تسليم المؤلف برواية التوراة لقصة آدم وحواء ، إنما هو تأكيد جديد منه لدعواه بوجود أخطاء تاريخية فى أخبار القرآن .. هذه الدعوى الباطلة التى يبشها فى كل فصل من فصول كتابه وتحسس الأدلة والأسانيد الواهنة .. إغراء للقارى بتصديقه وتأييده .

وقد فاته أن تاريخ التوراة - التى يجب أن يتخذ منها مرجعاً تاريخياً أقوى - يحدثننا أن العبرانيين إنما بدأوا يكتبون فصولها بعد وفاة موسى عليه السلام بزمان طويل ، ضمّنوها بعض العادات التى كان قضائهم يبنون أحكامهم عليها وأنهم رفضوا بعض أحكام التوراة الأصلية وبدّلوا بعضاً آخر منها كما ضمّنوها كثيراً من شريعة حمورابى ، وشرائع الأمم الأخرى ..

وإذا كان اليهود فعلوا ذلك فيما يتصل بشريعتهم .. فهم إذن اجراً على أكثر منه فى رواية تاريخهم .. بلا جدال .

وعلى ضوء هذه الخيانة التاريخية التى وصفهم بها مؤرخوهم أنفسهم قبل القرآن ، يذهب عجبنا من التناقض الذى نجده بين ما ترويه التوراة من أن ضيف إبراهيم من الملائكة أكلوا من الطعام الذى قدّمه إليهم ، وبين ما يرويه القرآن عن ذلك من أن أيديهم لم تمتد إلى الطعام ، لأن الملائكة لا تأكل ولا تشرب كما هو معلوم من

طبيعة خلقهم ، فأوجس منهم خيفة !!
وامثلة هذه الخيانة التاريخية اليهودية كثيرة .. كزعمهم في التوراة
أن الذبيح هو اسحق حسداً لاسماعيل الذبيح الحقيقي ، لأنه أب
العرب ، وهم يريدون الفخر لأبيهم إسحاق^(١) .
ومنها اختلاف صفة سارة زوج إبراهيم عليه السلام في روايات
التوراة والمراجع اليهودية الأخرى .. بين كونها أخته مرة ، وبنت
أخيه مرة أخرى .

ومع ذلك فالتوراة لم تستوف تأريخ كثير من الأنبياء .. فهي
مثلاً لم ترو حادثة إلقاء النمرود لإبراهيم في النار ولا رحلته إلى
الحجاز ، ولم تتحدث المراجع اليهودية أيضاً بأخبار عاد وثمود ،
وهي بلاد أو أقوام كانت مجاورة لمملكة إسرائيل ، وقد انفرد القرآن
برواية الحقائق التاريخية عن كل ذلك وغيره .

زعمه أن قصص القرآن : كقصص كليله ودمنة :
وفي ص (٣٩٨) ينقل المؤلف عن تفسير الإمام الرازي بعض
طعون المبطلين وشبهاتهم حول قصة الهدهد وسليمان عليه السلام ،
كسؤالهم كيف خفي على سليمان نبأ الملكة ، مع ما يقال من أن الجن
والشياطين كانوا في طاعته ؟ ومن أين للهدهد معرفة الله ووجوب
السجود له الخ .. ويعقب المؤلف العبرى على ذلك بأن المسألة لا
تحتاج إلى أن يقف الرازي وغيره من المفسرين هذا الموقف الحائر أمام
هذه الشبهات والطعون .. فكل ما في الأمر أنها مجرد قصة .. وأنه

(١) تراجع ردنا على قولد تسبير في الجزء الثاني حول زعمه ان اسحاق هو الذبيح .

من الملاحظ في القصص الحديث أن تسند بعض الأدوار الرئيسية إلى الحيوانات كالكلب «لاسى» الذى اضطلع بالبطولة في قصة «لاسى يعود إلى منزله» وكتاب «كليلة ودمنة» .. وختم المؤلف النابغة كلامه بأن سبب حيرة المفسرين أمام مثل هذه القصة هو مذهبهم في عقيدة الخوارق والمعجزات :

وردنا عليه من وجوه أربعة كما يلي :

أولاً : إن الراوى وغيره من المفسرين لم يقفوا حيارى أمام هذه القصة ، وإنما أوردوا شبهات الملحدن ، وطعون المبطلين ، وردوا عليها في تفاسيرهم .

ثانياً : إن عقيدة الخوارق والمعجزات لا ينكر تأريخها الطويل في سير الأنبياء عليهم السلام .

ثالثاً : إن القول بأنه كيف غاب عن سليمان نبأ ملكة سبأ ، وهو من هو ملكاً وسلطاناً .. شبهة تافهة ، لأن الله سبحانه لم يقل عن سليمان إنه أوتى علم الغيب جميعه ، بل أورد القرآن في هذه القصة نفسها أن سليمان احتاج في إحضار عرش الملكة - إلى علم رجل من حاشيته ..

رابعاً : ما الذى يمنع عقائدياً أن يكون اختيار الله للهدد كاشفاً لنبا الملكة ومنكراً لما هى عليه من شرك ووثنية .. إنما هو حجة الله على خلقه من البشر على أن المخلوقات كافة حتى الطير مدينة للمخلوق القادر بخلقها ورزقها ، كما هو تبكىت للمشركين من البشر

بما يريهم - سبحانه - من معرفة الطير لبارئها ، وتوحيدها له ،
 مصداقاً لما قرره القرآن في هذه المسألة نفسها كقوله عز وجل :
 ﴿وإن من شيء الا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون
 تسبيحهم﴾^(١) وكقوله أيضاً : ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في
 السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته
 وتسبيحه﴾^(٢)

أما مقارنة المؤلف لقصص القرآن بكليلة ودمنة .. وقصة الكلبة
 لاسي فذلك أحقر من أن ننصب في الرد عليه .. وجراءته وبذاءته
 في ذلك مفضوحتان ، وخزيه فيه مكشوف صراح .
 وبعد .. فهذا ما فتح الله به ، وأعان عليه .. في رد أباطيل
 «محمد أحمد خلف الله»^(٣) وشبهاته حول قصص القرآن الكريم
 وأخباره .. فله الحمد في الأولى والآخرة^(٢)

(١) سورة النور/ ٤١ .

(٢) محمد أحمد خلف الله - هو غير الدكتور محمد خلف الله أحمد - عميد كلية الآداب
 في جامعة الاسكندرية - وقد سعدت بزمالته في الندوة العالمية للإسلاميات المتعقدة
 في جامعة البنجاب بباكستان عام ١٣٧٧ هـ .

(٣) كتب هذا النقد لكتاب (الفن القصص في القرآن الكريم) حين صدوره سنة
 ١٩٥١م - ١٣٧١ هـ - وقد اصدر المجلس الوطني للثقافة والفنون بدولة الكويت
 طبعة جديدة للكتاب سنة ١٩٨٥م - ١٤٠٥ هـ لم اطلع عليها وإنما قرأت نقداً
 لبعض موضوعاتها في مجلة (الدعوة) السعودية الصادرة في رمضان سنة ١٤٠٥ هـ .

نقد كتاب : (القرآن : محاولة لفهم عصرى)

الدكتور مصطفى محمود .. كان فى بداية حياته الفكرية لا يهتم بالدين ، بل كان معترضاً على فكرة الدين ، وقد كتب مرة - فى مجلة روز اليوسف - قبل نحو عشرين عاماً رأياً يسخر فيه من المتدينين ، ورددت عليه فى إحدى صحفنا المحلية ، واطلع على الرد فكتب تعقيماً فيه سخرية منى .. ونشرته مجلة روز اليوسف .

قدّمت بهذه الجملة بين يديّ ما أريد أن أعلق به على كتابه الجديد : (القرآن : محاولة لفهم عصرى) وقد اعترف هو نفسه - فى ص ٨٤ و ٨٨ من الكتاب - بأنه كان منصرفاً عن القرآن فى شبابه ، بل عن الدين كله .. لأسباب منها : ما قرأه عن أنهار العسل وأنهار الخمر فى الجنة ، وما جاء فى القرآن من آيات العذاب ، وما خطر له آنذاك من أنه - أى العذاب يتنافى مع رحمة الله وعظمته !!

والآن نمضى فى تتبع آراء المؤلف عن القرآن فى عدد من موضوعاته ونعترف بادى الرأى - أن له روائع من الفهم الصائبة لبعض آيات القرآن الكريم ومعانيه .

ونلاحظ عليه - من البداية أيضاً - ثلاثة أمور : الأول أنه يقر تفسير القرآن بالقرآن - ص ١٥٩ - فيقول : وهذا ينتهى بنا إلى

موقف في التفسير لا بد من التزامه .. لتفسير القرآن بالقرآن ظاهراً وباطناً على ألا يتعارض تفسيرنا الباطن مع مدلول الكلمات الظاهر أو يكون منافياً له ، ولا يكون التفسير الباطني مقبولاً إلا إذا كان مؤيداً ومؤكداً للمعنى الظاهر .

يقول ذلك الدكتور مصطفى محمود .. ولكنه يخالف ما قرر الالتزام به من تفسير القرآن بالقرآن - كما سنرى في تعليقاتنا الآتية على وجهات نظره القرآنية - الأمر الثاني : لم يبدأ الكتاب بالبسملة مع أن موضوعه ديني ، وهي مطلوبة في كل أمر ديني وديني : «كل أمر لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع» أي قليل البركة أو عديمها - والأمر الثالث : هو أنه يذكر رسول الله ﷺ كثيراً في كتابه ، ويذكر أحاديثه ويذكر نزول القرآن عليه بمختلف الموضوعات ولكنه لا يصلي عليه أو يسلم !!

مع أننا مأمرون بالصلاة والسلام عليه في القرآن نفسه : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وفي الحديث : (البخيل من ذكرت عنده فلم يصل على) ^(١) وفي رواية أخرى ، ألا أخبركم بأبجل الناس ؟ قالوا بلى يا رسول الله قال ، (من ذكرت عنده فلم يصل على)

ومن روائع المؤلف - مثلاً - قوله عن العبارة القرآنية : إنها سر من أعمق الأسرار في التركيب القرآني ، إنه ليس بالشعر ولا بالنثر ولا بالكلام المسجوع . ثم يضرب المثل من شعر عمر بن أبي ربيعة قوله :

(١) رواه أحمد والنسائي والطبراني في الكبير .

قال لى صاحبي ليعلم ما بي أتحب القتل أخت الرباب
فبرى الموسيقى هنا خارجية صنعها الشاعر بتشطير الكلام في
اشطار متساوية ، ثم تقفيل كل عبارة تقفيلاً واحداً على الباء
الممدودة . هذه الموسيقى في الشعر تصل إلى الأذن من خارج
العبارة ، وليس من داخلها من التقفيلات «القافية» ومن البحر
والوزن .

أما حين تتلو - يقول المؤلف - ﴿والضحى والليل إذا سجى﴾
فأنت أمام شطرة واحدة ، وهي تخلو من التقفية والوزن والتشطير .
ومع ذلك فالموسيقى تقطر من كل حرف فيها .. من أين ؟ وكيف ؟
هذه هي الموسيقى الداخلية ، الموسيقى الباطنة .. التي هي سر من
أسرار القرآن لا يشاركه فيه أى تركيب أدبي ! .
واستمر المؤلف في ص/ ١١ يذكر آيات أخرى من القرآن ..
حتى جاء إلى قوله عز وجل : ﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر
بعبادى فاضرب لهم طريقا في البحر يسا .. لا تخاف دركاً ولا
تخشى﴾ فقال .. كلمات في غاية الدقة مثل «ييساً» أو لا تخاف
«دركاً» بمعنى لا تخاف ادراكا . ان الكلمات لتذوب .. وتصطف
وتتراص في معار وصف موسيقى فريد .. هو نسيج وحده بين كل ما
كتب بالعربية سابقاً ولأحقاً .. لا شبه بينه وبين الشعر الجاهلي ، ولا
بينه وبين الشعر والنثر المتأخر ، ولا محاولة للتقليد حفظها لنا التاريخ
رغم كثرة الأعداء الذين أرادوا الكيد للقرآن .. ان العبارة القرآنية
تبرز منفردة بخصائصها تماماً ، وكأنها ظاهرة بلا تبرير ولا تفسير
سوى أن لها مصدراً آخر غير ما نعرف .

وإذا كانت العبارة القرآنية لا تقع على آذاننا اليوم موقع السحر والعجب والذهول - فالسبب كما يقول المؤلف فى ص/ ١٧ :- هو : التعود واللفة والمعاشة والأغراق فى عامية مبتذلة ابعدتنا عن أصول لغتنا .. ثم أسلوب الأداء الرتيب الذى نسمعه من مرتلين ، لا يفرقون بين المواقف : من فرح إلى حزن إلى وعيد إلى بشرى .. وبعض المشايخ يقرأون القرآن على سبيل اللعنة دون أن ينبض شئ فى قلبه .. ثم الحياة العصرية ومشاغفها ، وتوزع الانتباه ، وتحجر القلوب ، وصدأ الأرواح ..

ويطرب المؤلف طرباً شديداً لوصف القرآن الكريم للعلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة فى قوله : ﴿فلما تغشّاها حملت حملاً خفيفاً أثرت به﴾ فهو أسلوب رفيع ، وكلمة رقيقة ، فريدة لا تجد لها مثيلاً ولا بديلاً فى لغة أخرى !!

□ ونضيف - من عندنا - إلى استدلال المؤلف بهذه الآية على بلاغة القرآن واعجازه فى الوصف والتشبيه - استدلالاً آخر .. هو قوله تبارك وتعالى فى وصف العلاقة الزوجية والجنسية بين الرجل والمرأة : ﴿هن لباس لكم وانتم لباس لهن﴾ .

أنه تشبيه فوق التفسير .. ولكنه مفهوم ورائع وحكيم ، وفيه توجيه تربوى واجتماعى يقول للرجل والمرأة معاً : إن كل واحد منكما ستر للآخر ، كما يستر اللباس لابسها ، ستر عن الحرام .. عن الشهوة والرغبة والطمع فيما لا يحل ، كما إنه ستر لصاحبه عما يحدث بينهما ، من شئون وشجون ، فلا يفضى احدهما للناس عن سر الآخر ، ولا يحدثهم به .



بعد ذلك يقول المؤلف في - ص/ ١٩ - (لهذه الأسباب مجتمعة .. كان القرآن كتاباً لا يترجم) لأن له لمسات سريعة ، وظلالاً محكمة ، وألفاظاً ذات جرس وصوت وصورة . فهو قرآن في لغته . أما في اللغات الأخرى فهو شيء آخر : ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً﴾ وفي هذا تحديد فاصل ..
حديث القرآن عن «هموم الرسول»

ونقف الآن قليلاً عن ذكر روائع المؤلف في محاولته العصرية لفهم القرآن الكريم ، لنعقب على رأى له حول دعوى أعداء الاسلام بأن القرآن من وضع محمد ﷺ - يقول الدكتور مصطفى محمود في ص/ ٢٤ : لو ان محمداً هو الذى وضع القرآن لبث فيه أشجانه وحالاته النفسية وأزماته وأحزانه .. والقرآن غير هذا تماماً ، فهو يبدو من البدء إلى النهاية معزولاً عن النفس المحمدية بما فيها من مشاغل وهموم ، بل ان الآية لتتزل مناقضة للإرادة المحمدية : ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه ..﴾ - أما القرآن فهو لفظاً ومعنى من الله أحاط بكل شيء علماً .

ودفاع الدكتور مصطفى محمود عن كون القرآن من كلام الله عز وجل دفاع محمود ، ولكن ما استدلل به على دفاعه غير وارد وغير صحيح .

فالقرآن - على خلاف ما يقول الدكتور - يتحدث عن هموم محمد ﷺ ، واتهامات قومه له ، وعن تصرفاته وعن آماله في هداية أمته .. من ذلك قوله :

- ﴿ولا يحزنك قولهم . إن العزة لله جميعاً﴾^(١)
- ﴿فاعلمك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾^(٢)
- ﴿والضحى والليل إذا سجى ... ما ودّعك ربك وما قلى﴾^(٣)
- ﴿ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض﴾^(٤)
- ﴿إنك لا تهدى من أحببت .. ولكن الله يهدى من يشاء﴾^(٥)
- ﴿إم يقولون افتراه .. قل إن افتريته فعلى اجرامى﴾^(٦)
- ﴿بل قالوا : أضغاث أحلام . بل افتراه . بل هو شاعر﴾^(٧)
- ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾^(٨)

وهناك ، فى القرآن ، قصة زواجه بزینب ومادار حولها من كلام الناس ، فى سورة الأحزاب ، وقصة الافك المفترى على أحب أزواجه إليه (عائشة) رضى الله عنها ، فى سورة النور ، وقصة مغاضبة بعض أزواجه إياه ، فى سورة الأحزاب أيضاً .

ولكن هذا لا يعنى أن القرآن من وضع محمد عليه الصلاة والسلام ، لكى نحاول نفيه أو عدم وجود شىء منه فى القرآن .. بل العكس هو الصحيح : إن وجود هذه المشاكل وحديث القرآن عنها ، واعطاء الحلول المناسبة لها دليل على أن القرآن من عند الله ،

(١) سورة يونس/ ٥٦ .

(٢) سورة الكهف/ ٦ .

(٣) سورة الضحى/ ١١ .

(٤) سورة الانفال/ ٦٧ .

(٥) سورة القصص/ ٥٦ .

(٦) سورة هود/ ٣٥ .

(٧) سورة الانبياء/ ٥ .

(٨) سورة الحجر / ٩٧ .

وانه نزل بتوجيه الرسول إلى ما يريد الله ويحبه ويرضاه ..
 أما الآية التي ذكرها المؤلف : ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن
 يلقى إيلك وحيه﴾ : فهي ليست مناقضة للإرادة المحمدية كما ظن
 المؤلف ، وإنما هي توجيه من الله لرسوله ﷺ عندما لاحظ عليه
 استعجاله في تلقي القرآن من جبريل عليه السلام والاجتهاد في
 حفظه لئلا تنفلت منه آياته ، وقد تكرر هذا التوجيه في سورة
 القيامة : ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ،
 فاذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ وفي آيات القيامة هذه مع التوجيه ، طمأنة
 للرسول ﷺ بأن الله هو الكفيل بحفظه في صدر الرسول بحيث لا
 ينساه ، ولا يتفلت من ذهنه شيء من معناه ، وفي سورة الحجر آية
 أخرى تؤكد ضمانه الله بحفظ القرآن ، بصورة عامة ، عن التحريف
 والتزييف ، وهي قوله تبارك وتعالى : ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له
 لحافظون﴾ .

والخلاصة : أنه ليس في حديث القرآن عن هموم الرسول ،
 ومشكلاته أو مشاغله حجة على دعوى أن القرآن من وضعه ، حتى
 يحاول المحاولون نفي ذلك أو يروا خلوّ القرآن منه .

في القضاء والقدر

ومن روائع المؤلف : حديثه عن القضاء والقدر في ص/ ٢٥ وما
 بعدها - وفي ص/ ٣٧ من الكتاب يقول ما خلاصته : إن علم الله
 السابق بما سوف يكون عليه الانسان من هدى أو ضلال ، وخير أو
 شر .. لا يعنى الجبر والحتم ، وضرب لذلك مثلاً - ولله ولصفاته
 المثل الأعلى - أن يتوسم الأب في أحد أبنائه حب العلم والتحصيل

فيمده بالتسهيلات والتيسيرات ، ويبعثه إلى الخارج في بعثه ، ويرى في الابن الآخر العكوف على الفساد وصحة قرناء السوء ، فيكتفى بماله من حظ محدود في التعليم في بلده ، ولو فعل عكس ذلك لكان ظالماً ، ولأكره أبنائه على غير طبائعهم .

إن هذا التوسم المسبق ليس فيه عنصر اكراه ولا اجبار ، إنما هو مجرد سبق علم ، فالأب يعلم مسبقاً من أخلاق ولده انه سوف ينصرف إلى اللعب ، ويهمل كتبه ودروسه ، فاذا انصرف إلى اللعب فعلاً واهمل دروسه ، فان ذلك لا يكون اكراهاً منه له ، وإنما تأتي التجربة . فتكشف له نفسه وبذلك يحق عليه العقاب صدقاً وعدلاً . ولهذا كانت الحياة حقل تجربة واختبار لمعادن النفوس : ﴿خلق الموت والحياة لبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾^(١) .

ولكن الدكتور مصطفى محمود حين يتحدث عن موضوع رفض الأعداء التي يبرر بها المخطئون اخطاءهم .. من عرف أو بيته أو مجتمع أو تربية ؛ يقول : إن الله حسم ذلك في القرآن : ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾^(٢) . ﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم﴾^(٣) .

مع أن الآيتين لا تصلحان أن تكونا دليلاً على ما يريد المؤلف ، فهو يريد أن يحتج بهما على أن الله عز وجل لا يؤاخذ من يعتذر عن

(١) سورة الملك/٢ .

(٢) سورة البقرة/٢٢٥ .

(٣) سورة الاحزاب/٥ .

أخطائه وذنوبه بتأثير البيئة أو تربية الوالدين أو أعراف المجتمع والآيتان بعيدتان عن هذا المعنى بعد المشرق عن المغرب .
فانهما تعنيان الخطيئة التي ترتكب عمداً وبنية سابقة أو بإصرار عليها قبل ارتكابها فتكون اذن المؤاخذه والعقوبة أما الخطأ الذي يقع من الانسان ، فيكون مخالفة دون تعمد ، ولا اصرار عليه ، وكذلك اللغو في الحلف الذي يتكرر دون نية ودون اصرار ؛ فانهما لا جناح على الانسان فيها ..

ولكن الدكتور مصطفى محمود أدخل في نطاق الخطأ غير المتعمد واليمين اللغو : الأفعال التي يرتكبها الانسان بتأثير البيئة والمجتمع والعرف والتربية ، وهي في نظر القرآن أخطاء متعمدة وانحرافات مقصودة .

فقد عاب على المشركين قولهم في تبرير شركهم والاعتذار عن كفرهم : ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾^(١) وكرر الانتقاد لهم كثيراً في آيات عديدة ، كما قرر استقلال الانسان في مسؤوليته عن نفسه تفكيراً وتديباً في قوله عز وجل : ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾^(٢) .



وفي ص/ ٤٤ يورد قوله تبارك وتعالى : - من سورة الشمس -
﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾ ثم يعقب بقوله : أى

(١) الزخرف/ ٢٣ .

(٢) الاسراء/ ٣٦ .

فتح أمامها سبيل الخير والشر ، وتركها أمام الطريقين لتختار ، ولهذا قال : فجورها وتقواها . ولم يقل فجورها أو تقواها ، لأنه فتح الطريقين معاً ليجعل للنفس حرية الاختيار : لذلك أردف موضحاً : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ «فرد الفلاح والخيبة للنفس المحيرة» .

وفي ص ٤٥ - يتحدث المؤلف عن كون حرية الفعل حقيقة والقدر أيضاً حقيقة ، وإن علينا أن نفهم هذا الأزدواج وكيف لا يلغى أحدهما الآخر .. كيف لا يلغى القدر الحرية ، وكيف لا تلغى الحرية القدر ؟ ويستدل بالآية : ﴿إِنْ نَشَأْ نُنزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾^(١) فلو شاء الله ذلك لفعله ، ولكنه لم يفعله ، لأنه أراد الا يقهرنا على الإيمان ، فتنتفى حرية الاختيار ، التي جعل منها جوهر وجودنا ، حيث أراد لنا أن نكون أحراراً نؤمن .. أو نكفر !!

والمؤلف يركز مراراً على تقرير حرية الفعل في الانسان ، فيقول في ص /٤٧ ان القرآن يشرح في آية نموذجية ما بين القدر الإلهي والحرية الفردية من تلاق ، ويرفع ما بينهما من تناقض ، حيناً يروى ما حدث من تكاسل المناققين عن نصره الرسول ﷺ وعدم الخروج معه في غزواته : ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عِدَّةً ، وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾^(٢) فهذا هنا منافقون بالقلب ، لا يريدون بالنية أن ينصروا نبيهم فيقضى

(١) الشعراء الآية ٤ .

(٢) التوبة/٤٦ .

عليهم بمثل نيتهم فلا يريد لهم كما لا يريدون هم لأنفسهم ، ويشبطهم
ويكره انبعاثهم كما كرهوه هم لأنفسهم !!

وهكذا ينتفى ما يبدو من تناقض بين القدر وحرية الانسان ،
حيث تماثلت إرادة الانسان مع القدر الإلهي ، وأصبح من السهل
علينا أن نفهم آيتين متناقضتين في الظاهر مثل قوله : ﴿مَنْ شَاءَ
فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ وقوله : ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
اللَّهُ﴾ : ففي الآية الأولى يصف الله إرادة الانسان الحرة ، وفي
الثانية يتكلم عن إرادته الإلهية وهي القدر .. وما بين الاثنين من
تناقض في الظاهر فقط . فقد فهمنا أن الله لا يريد للانسان الا ما
يريده الانسان لنفسه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ مَا بَقِىَ حَتَّى يَغْيِرُوا مَا
بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٢) . إن الله عز وجل يقدم للانسان من التيسيرات ما
يمائل ضميره وقلبه ، وبالتقاء الاثنين : الحرية والقدر ينفذ القضاء
ويتم الفعل بإرادة الله ومشيبته ، وفي نفس الوقت باختيار الانسان
وحرية دون تناقض : ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فأنت تشاء ولكن
قدرتك على أن تشاء وتختار هي منحة من الله ، ومشيبته عليا ، ومن
هنا كانت الآية : ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ تقريراً للحقيقة
الكبرى ، وليست كلاماً متناقضاً فهي أنك حر ولكن حريتك منحة
وهبة ومشيبته من المعطى .

مطلق المشيئة الإلهية :

□ قلت : إن المؤلف يريد أن يعنى - بعبارة أوضح - : ان

الانسان عندما يكفر بالله ، أو يخالف أمره ، أو يقارف ما حرّمه الله عز وجل ، فإنه لا يفعل ذلك استكراهاً لله تبارك وتعالى ، ولا رغباً لارادته ، وحتى عندما يفعل الخير أو يقوم بطاعة فإنه لا يعمل ذلك بعيداً عن إرادة الله وفضله عليه ، وتوفيقه له .

ومن هنا جاءت الآية : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ والآية : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ والآية : ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ والآية : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ ، فذرهم وما يفترون .
فله عز وجل فضل التوفيق للإنسان إلى فعل الخير ، وله تبارك وتعالى مطلق المشيئة فيما يقترفه الانسان من مخالفات .

ولذلك استثنى الله عز وجل بمشيئته المطلقة في قوله : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ ﴾ فع ان الله صدق رسوله الرؤيا بالحق ، وأكد دخول المسلمين المسجد الحرام بنون التأكيد في (لتدخلن) الا أنه استثنى بقوله (إن شاء الله) وذلك كما اسلفنا لتقرير مطلق المشيئة الإلهية .. حتى في تحقيق الوعد ، وإنجاز العهد ، وتصديق الرؤيا^(١) .

آدم .. والأطوار التي مرّ بها خلق الانسان

وفي ص ٦٦/٦٧ - : يتحدث المؤلف عن خلق آدم عليه السلام ، ويسرد ما جاء عن ذلك في القرآن من آيات ثم يذكر قوله

(١) في تعقينا على فضيلة الشيخ محمد أمين الشنقيطي تفصيل لقضية المشيئة الإلهية المطلقة وجاء في القرآن من آيات عديدة حولها الجزء الاول من كتاب : (القرآن كتاب أحكمت آياته) ص/٨٨ .

عز وجل : ﴿وقد خلقكم اطوارا﴾ ويعقب عليها بقوله :
(.. ومعناها أنه كانت هناك قبل آدم صور وصفوف من الخلائق
جاء هو ذروة لها) ..

ولا شك أن هذا الخلط بين آيات تتحدث عن خلق آدم
وأخرى تتحدث عن الانسان ... كل إنسان على تعاقب الزمان ،
واختلاف المكان . فإن هذه الآية ﴿وقد خلقكم اطوارا﴾ جاءت
في سياق نوح عليه السلام إلى قومه : ﴿مالكم لا ترجون لله وقارا ،
وقد خلقكم اطوارا ، ألم تروا كيف خلق الله سبع سماء طباقاً ،
وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجاً !

فهو - أى نوح عليه السلام - في سورة من القرآن خاصة به -
يدعو قومه إلى عبادة الله وحده ، ويعجب كيف يشركون به خلقه ،
من شجر وحجر وشمس وقمر في عبادته ، ولا يعظمونه ويجلونه ..
وهو الذى خلقهم ، خلقهم كما يرون وكما يحسون اطواراً : من
نطفة ، فعلقة ، فمضغة ، فعظام مكسوة لحماً فجنين فبشر
سوى^(١) .. ثم يذكرهم بما يرون أيضاً وبما يحسون حولهم في الكون
من سماء تضيء فيها الشمس ، وينير القمر ، وأرض جعلها الله
بساطا ليسلكوا منها سبلاً فجاءا .. الخ ..

فأين هذا المعنى الواضح للأطوار وللسياق الذى يؤيده مما
يقوله المؤلف الفاضل من أن معنى الأطوار : هو الصفوف والصور
من الخلائق التى سبقت آدم عليه السلام ثم جاء هو ذروة لها ؟ .

(١) هناك رأى آخر في تفسير (الاطوار) بأنها أطوار الطفولة .. فالصبا .. فالشباب
فالشيوخة والهرم - وهو صحيح ايضا .

على أن آية أخرى - من القرآن نفسه - تؤيد وتؤكد هذا المعنى للأطوار وهي قوله عز وجل : ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظِلَالٍ ثَلَاثٍ﴾^(١)

وجاء تفصيل هذه الأطوار في سورة الحج في الآية الخامسة منها وفي سورة (المؤمنون) من الآية (١٢) إلى الآية (١٤) .
وقد اثبتنا على الدكتور مصطفى محمود في فاتحة نقدنا لكتابه لأنه يدعو إلى تفسير القرآن بالقرآن ، ولكنه يبدو أنه لم يلتزم بهذا المبدأ التفسيري الصحيح .

وإذا كان المؤلف الفاضل يريد بهذه الصفوف من الخلائق السابقة لآدم وذريته : (الجن) الذين افسدوا في الأرض ولذلك سألت الملائكة : ﴿أَتَجْعَلُ مِنْ يَفْسُدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ فان الإنس (بنى آدم) لا يعدون تطوراً لخلق الجن الذين مايزالون خلقاً آخر يعاشون الإنس إلى يوم القيامة . ولهم طبيعتهم الخاصة ، وقوانين حياتهم وتناسلهم ، ومنهم الصالحون ومنهم دون ذلك كما يحدثنا القرآن :

□ ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ .

□ ﴿وَأَنَا مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَمَا دُونَ ذَلِكَ ...﴾ .

□ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ...﴾ .

ويذكر المؤلف في ص/٦٧ - هذه الآية : ﴿الَّذِي أُعْطِيَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ، ثُمَّ هَدَى﴾ ويفسرهما بقوله : «إن الله هدى مسيرة التطور حتى بلغت ذروتها في آدم» .

(١) سورة الزمر الآية ٦ .

وقد أبعد هنا أيضاً .. فالآية عامة شاملة ، ولا علاقة لها بحكاية تطور الخلق قبل آدم أو بعده ، وهى واردة لبيان قدرة الله وحكمته خلقاً وتقديراً ، أو خلقاً وهدايةً ، لأن الأمرين مرتبطان إحداهما بالآخر .. فقد خلق الله الخلق كله من إنسان وحيوان ونبات وجما ، وأودع فى كل منها القوى والقدر والنواميس التى تهتدى بها فى حياتها ومعيشتها . وفى قيام الكون ومسيرة الحياة .
ولهذه الآية مثيلات مؤكّدت لهذا المعنى الذى يكرره القرآن لذكر الناس بقدرة الله ووحدانيته التى تفرض توحيده فى عبادته
فأنه الخالق المقدر والهادى المدبّر :

□ ﴿سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوّى ، والذى قدر فهدى﴾^(١)

□ ﴿لم نجعل له عينين ، ولساناً وشففتين ، وهديناه النجدين﴾^(٢)

□ ﴿إنا هديناه السبيل : إما شاكراً وإما كفوراً﴾^(٣)

□ ﴿إن علينا للهدى ، وإن لنا للآخرة والأولى﴾^(٤)

□ □ □

وفى الصفحة نفسها يذكر المؤلف الفاضل هذه الآية : ﴿وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم﴾^(٥) ثم

(١) سورة الأعلى من ١ - ٣ .

(٢) سورة البلد من ٨ - ١٠ .

(٣) سورة الانسان الآية ٣ .

(٤) سورة الليل الآيات ١٢ و ١٣ .

(٥) سورة الانعام الآية ٣٨ .

يفسرها بقوله : (هنا ربط القرآن بين جميع المخلوقات في وشيجة عائلية واحدة .. إنها كلها أم أمثالنا !)

والآية لا تعنى ما فهمه المؤلف من ربط المخلوقات في وشيجة عائلية واحدة ، فالواقع المادى : أن المخلوقات الأرضية ليست عائلة واحدة ... فهي عائلة إنسانية ، وأخرى حيوانية ، وثالثة نباتية ، ورابعة جمادية .

وإنما تعنى الآية أن كل صنف من هذه المخلوقات أمة بحالها ومآلها ، لها نواميسها وعاداتها وأخلاقها وطرائق حياتها وفق ما خلقها الله عليه ، ووفق ما سنَّ لها من قوانين الفطرة والغريزة والإلهام .



وفى ص/ ٨٨ يورد المؤلف الحديث النبوى : (كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد) ثم يذكر الآية : ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنَسْكَى وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .. لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ ويعقب بقوله : «وهى كلمات تعنى سبق الوجود المحمدى على جميع الأنبياء إذ يعتبر القرآن جميع الأنبياء مسلمين ومحمد أولهم» .

ولا ندرى كيف نسى الدكتور مصطفى الآية القرآنية الصريحة التى تقول : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ، وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾^(١) ؟ . أما الحديث النبوى فهو لا يعنى أكثر من أنه

(١) سورة الأحزاب الآية ٤٠ .

سابق في العلم والتقدير الإلهيين ، لا في الوجود المادى كما يقول المؤلف ، وليس هو أولهم وجوداً أو بعثةً ، وإنما هو (خاتم) كما يقرر القرآن الكريم ، وإن كان أفضلهم وأكرمهم .

العذاب والنعيم - هل هما حسيان أم معنويان ؟

واحسن الدكتور مصطفى حين قال - في ص/ ٨٩ : (إن الله لا يعذب بالفعل ، ولكن الله يعدل .. فهو لا يساوى بين ظالم ومظلوم ، وبين قتيل وقاتله ..)

ولكنه تجاوز حدود عقله وفهمه حين فسر في ص ٩٣ - العذاب الأخرى بأنه الاحساس الداخلى بالهوان والخزى والخسران ، وأن كان قد رجع - في ص ٩٤ - فقال بإمكانية أن يكون العذاب حسياً ومعنوياً . وليته وقف عند هذا الحد ، أو قال مثل قوله الأول عن (النعيم) في الجنة : بأنه غيب لا يمكن التعبير عنه بلغة الأرض ، فكذلك عذاب النار بلا اختلاف .

ويتناقض المؤلف من جديد - في ص ١٠٥ إذ يعود إلى القول : بأن عذاب النار معنوى لا حسى ، فهو يذكر الآية : ﴿إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾^(١) ويعقب عليها بقوله : (حتى الحساب هنا يبدو أنه حساب النفس تعالى ذو الجلال أن يحاسب أمثالنا وأن يعذب أمثالنا) ثم يضيف : (إنما قد لزم كل واحد عمله كظله ، وحق القول ونفذ العدل الإلهي) .

(١) سورة الاسراء الآية ١٤ .

وهذه الآية لا تشير إلى شيء مما فهمه الدكتور مصطفى محمود لا تصريحاً ولا تلميحاً ، بل هي صريحة في تقرير العدالة الإلهية في محاسبة الانسان .. حيث يقدم إليه كتاب أعماله فيرى ما عمل من خير وشر ، صفائره وجلائله ، ويراه مدوَّناً بأزمانه ودلائله .. وقد أكَّدت هذا المعنى آيات أخرى عديدة منها قوله تبارك وتعالى : ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ . وقوله عز وجل - حكاية عن الكفار والعصاة - : (ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ؟) ولذلك ختمت الآية التي استدلل بها المؤلف بقوله عز وجل : ﴿كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ فأنت لا تجد شيئاً مزيداً ولا منسوباً إليك الا ما عملته فعلاً ..

أما قول المؤلف : (تعالى الله أن يعذبنا شهوة في عذاب) فهو قول حق وقد سبق القرآن نفسه إلى تقرير ذلك في قوله عز وجل : ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ؟ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (١)

ومع ذلك فان عذاب الله لمن استحقه من الكفار والفساق : حق لا ريب فيه ، والآيات القرآنية التي تؤكد ذلك أكثر من أن تحصى - هنا - وتأتى في مقدمتها :

- ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين﴾ (٢)
- ﴿فَكَفَّلاً أَخَذْنَا بَذَنبِهِ .. فَنَهَمُ مِنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ،

(١) سورة النساء الآية ١٤٧ .

(٢) سورة الزخرف الآية ٥٥ .

وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا انفسهم يظلمون ﴿١١﴾
وهذا .. وإن كان عذاب الدنيا ، فإن عذاب الآخرة كما جاء
في القرآن نفسه أشد وأبقى ووصف تارة بأنه : أشق ، وأخرى
بأنه : أكبر كما وصف القرآن أيضاً أخذ الله للعصاة بأنه أليم شديد ،
وانه تبارك وتعالى : عزيز ذو انتقام .

وهذا يكنى لنقض مفهوم المؤلف في ص/١٠٧ لكلمة
(العذاب) في القرآن : بأن من عاش دنياه شهوانياً بهيمياً فسيكون
عذابه أن يعيش نفس المعيشة الحيوانية البهيمية في الآخرة ، ومن
كان يشتعل صدره حقداً وحسداً وطمعاً وجمعاً للمال من كل طريق
حرام فسوف يكون عذابه بإبقائه في الآخرة على صفته في الدنيا !

النظرات المتبادلة بين الجنسين عمداً

هل هما حرام أم حلال ؟

وفي ص/١١١ - يذكر المؤلف الآيتين : ﴿قل للمؤمنين يغضوا
من أبصارهم ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ..﴾ (٣) ثم
يقول : لا بد من العودة إلى جوهر التحريم .. إن مجرد إرسال النظر
لا ضرر فيه ، ولكن الضرر فيما يجرى في القلب والعقل نتيجة إمعان
النظر الخبيث الخ ..).

وكلام الدكتور مصطفى محمود عن النظر إلى النساء الجميلات ،
ورأيه : ان العبرة بما يستقر في القلب والعقل لا بمجرد النظر يبدو

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٠ .

(٣) سورة النور الآيات ٣٠ و ٣١ .

سليماً لأول وهلة ، ولكن الواقع غير ذلك فإن الأمور لا تقع فجأة ولا مصادفة ، بل لا بد من أسباب ومقدمات ولا بد من تمهيد وإعداد ، ولذلك حرم القرآن كما حرمت السنة النبوية : النظرة الثانية ، وأمر بغض النظر .. منعاً للوسيلة المؤدية حتماً إلى النتيجة ، لقد جاء في الحديث النبوي : (النظرة الأولى لك والثانية عليك) لأن الانسان لا يملك النظرة الأولى ان يمنعها ، ولكنه يملك الثانية والثالثة وما بعدها ، ولذلك أمر القرآن بغض البصر بعد النظرة الأولى التي تقع مصادفة ، ودون قصد وارادة .

□ وجاء في الحديث القدسي كذلك : (النظرة سهم مسموم من سهام ابليس من تركها مخافة منى اعقبته إيماناً يجد حلالوته في قلبه) (١) .

□ وفي حجة الوداع جاءت فتاة تستفتي النبي الله في أمر من أمور الحج ، وكان الفضل بن العباس رديف الرسول على راحلته ، وهو فتى جميل ، فكان ﷺ يصرف وجه الفضل عن الفتاة ليحول دون نظراته المتتابعة إليها .

□ وكان عبدالله بن أم كلثوم مرة في بيت النبي ﷺ وهو ضرير فأمر الرسول زوجته - لعلها عائشة وحفصة - أن تحتجبا فاحتجبتا وسألته : أليس هو أعمى يا رسول الله ؟ فردَّ عليها : (أو عمياوان انتما) ؛ وهذا يعني أن تغض النساء أيضاً أبصارهن عن الرجال حتى ولو كانوا عميا لا يبصرون .

هذا قليل من كثير مما ورد عن حَظَر النظر إلى المرأة الجميلة

(٦) رواه الحاكم وصححه .

والرجل الجميل ، لما يتأذى عنه من انبعاث الرغبات والشهوات الجنسية الحرام .

الشرك وصوره ومظاهره :

وفي ص/ ١١٤ - يقول : الشرك ليس فقط عبادة الأصنام ، فهذا لون قديم ساذج من الشرك إنتهى أمره .. والأصنام الآن غير اللات والعزى وهبل .. إن خطر الأصنام ان تتخذ نفسك صنماً .. أن تعبد رأيك وهواك ومصلحتك .

أما أن الشرك ليس هو عبادة الأصنام فقط .. فهذا صحيح لأن الشرك تعدد صورته ومظاهره ، ولكنه يتفق فكرة وعقيدة ومعنى . فأما أن يتخذ المرؤ إلهه هواه أو مصلحته أو رأيه .. فهذا أيضاً أمر واقع قديماً وحديثاً ، وقد جاء القرآن ذاكراً هذه الصورة من صور الشرك المتعددة في قوله عز وجل : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ؟ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾^(١)

ولكن غير صحيح : ما قاله الدكتور مصطفى محمود من أن عبادة الأصنام لون قديم ساذج من الشرك إنتهى أمره ، ، فإزالت الأصنام تعبد من دون الله حتى اليوم وفي أرقى الدول والبلاد حضارة وتقدماً علمياً وفكرياً .. في الدول المسيحية والدول غير المسيحية التي توجد بها كنائس يتوجه إليها المسيحيون .. حيث تخضع اعناقهم وتدعو ألسنتهم وتتجه أنظارهم إلى تمثال المسيح وتمثال العذراء ..

(١) سورة الجاثية الآية ٢٣ .

والأصنام التي تعبد من دون الله .. مازالت قائمة في الدول الإسلامية أيضاً ، أو الدول المنتسبة إلى الاسلام !! حيث أضرحة الأولياء في المساجد وغيرها محفوفة بالسدنة والخدم ومضاء بالشموع والمصابيح الكهربائية .. تستقبل الناس من ضعاف الايمان وصغار العقول ، وعمى البصائر .. يقدمون من النذور والقرابين لأصحاب هذه القبور ملتجئين البركة أو الشفاء من مرض أو عقم ، أو قضاء حاجة من حاجات الأحياء ، أو حل مشكلة من مشكلات الحياة .

النشأة الآخرة : هي الاعادة ...
وليست نوعاً جديداً

وفي ص/ ١٣٧ و ١٩٢ - يذكر المؤلف جزءاً من آية في سورة الواقعة : ﴿ .. وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ ويرى أن معنى ذلك أن نشأتنا في الآخرة مختلفة تماماً عن كل ما نعلم .. أى أنها سوف تكون على صورة مغايرة لما نحن عليه !

وهو - كما قلت - جزء من آية ، والآية جزء من مقطع في معنى واحد بعيد جداً عما فهمه الدكتور مصطفى وفسر على ضوءه هذه الجملة القرآنية المبتورة من سياقها .

ولنقرأ المقطع كاملاً : ﴿ نحن قَدَرْنَا بينكم الموت ، وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾ (١)

(١) سورة الواقعة الآيات ٦٠ - ٦٢ .

ففي هذه الآيات يتحدث الله عز وجل إلى الكفار الذين ينكرون البعث .. بأنه قدّر عليهم الموت ، وأنه قادر على أن يبدل أمثالهم في الدنيا وينشئهم فيما لا يعلمون .. أى ينشئهم خلقاً آخر : قردة مثلاً أو خنازير ، أو أى صنف من أصناف مخلوقاته ، كما قال عز وجل عن بنى اسرائيل : ﴿وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت﴾ . فهو تبارك وتعالى يهدد المنكرين للبعث بأنه قادر على تبديل خلقتهم الانسانية ، وإنشائهم في خلقة أخرى ، ويذكرهم بالخلق الأولى .. خلقتهم من طين ، أو خلقتهم من ماء مهين ، والذي بدأ الخلق يعيده من غير شك ، وصدق الله العظيم .

□ ﴿كما بدأكم تعودون﴾^(١)

□ ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾^(٢)

□ ﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾^(٣)

□ ﴿ثم الله ينشئ النشأة الآخرة﴾^(٤)

□ ﴿وأن عليه النشأة الأخرى﴾^(٥)

فليس في الآية التي ذكرها الدكتور مصطفى محمود ، ولا الآيات التي أوردتها هنا ما يفيد أن النشأة الآخرة أو الأخرى تعنى خلقاً جديداً .. من حيث الصورة والنوع ، وإنما تعنى أنه جديد من حيث أنه إعادة بعد الموت والفناء ، ولفظة (آخرة وأخرى) تعنى :

(١) سورة الاعراف الآية ٢٩ .

(٢) سورة الانبياء الآية ١٠٤ .

(٣) سورة الروم الآية ١١ .

(٤) سورة العنكبوت الآية ٢٠ .

(٥) سورة النجم الآية ٤٧ .

ثانية ، في مقابل (الأولى) التي وردت في قوله عز وجل : ﴿ولقد علمتم النشأة الأولى فلو لا تذكرون﴾ .

وفي القرآن آيات مماثلة للآية التي أوردها المؤلف وأخطأ فهمها وتفسيرها - وقد جاءت كلها تهديداً لمنكرى البعث بقدره الله التي لا حد لها ولا طاقة لأحد من مخلوقاته بها ؛ من ذلك قوله :

□ ﴿نحن خلقناهم وشددنا أسرهم ، وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً﴾^(١)

□ ﴿إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين﴾^(٢)

ويكرر في ص/١٩٣ - مقاله في ص ١٣٧ - عن تبدل صورة الانسان يوم القيامة ، فيورد الآية : ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ ويقول : وهو لقاء لا يمكن أن يتم والإنسان في صورته البشرية .. ويحتج بالآية الأخرى : ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض .. والسموات﴾ ثم يستدل بقول ليوحنا اللاهوتي : إنه رأى سماء جديدة وأرضاً جديدة !!

وقد رددنا على هذه الزعمة - فيما سبق - بما فيه كفية وغنية ، ولكننا نضيف هنا أن القرآن تحدّث كثيراً عن تبدل الأرض والسموات والجبال والبحار يوم القيامة ، ولم يتحدث قط عن تبدل الانسان كما يرى الدكتور مصطفى محمود أنه سيعث على صورة غير بشرية .

(١) سورة الانسان الآية ٢٨ .

(٢) سورة المعارج الآية ٤١ .

خرافات المتصوفة .. وسخافاتهم

وفى ص ١٣٨ - يذكر الآية : ﴿ادعوني استجب لكم﴾ ثم يتحدث عن (المتصوف) الذى يمرض فلا يسأل الله الشفاء ، ويقول فى أدب : كيف اجعل لنفسى إرادة إلى جانب إرادة الله فأسأله ما لم يفعل ، وأنا الذى لا أعلم ما ينفعنى مما يضرنى ، ويذكر الرجل الذى يقول : يا رب أرزقنى مئة جنيه ، ويرى أنه يمزح مزحاً سخيفاً ، ثم يسرد الدكتور مصطفى محمود آيات لا رابط بينها وبين موضوع الدعاء كآية : ﴿رب اجعلنى مقيم الصلاة﴾ وآية : ﴿وما خلقت الجن والإنس الا ليعبدون﴾ وآية : ﴿لقد خلقنا الانسان فى كبد﴾ ...

ولا ندرى ان كان المؤلف يؤيد رأى المتصوف فى الدعاء .. أم ذكره دون قصد لتأييده . ولكن قوله عن الرجل الذى يسأل ربه أن يرزقه مئة جنيه : انه يمزح مزحاً سخيفاً .. يجعلنا نعتقد أن الدكتور مصطفى محمود يرى رأياً شبيهاً برأى المتصوف فى الدعاء .. وهذا ما يدفعنا إلى التعقيب عليه ..

إن الدعاء مطلوب من العبد لربه . والقرآن فى عديد من آياته يُغرى الناس بالتوجه إلى الله بالدعاء : استشفاءً من مرض ، أو استقضاءً لحاجة ، أو استغناء من فقر ، أو استغفاراً من خطيئة - يقول الله عز وجل فى آيات متعددة من القرآن الكريم :

□ ﴿ادعوني استجب لكم﴾^(١)

(١) سورة غافر الآية ٦٠ .

- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ .. أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِى إِذَا دَعَانِ﴾^(٢)
- ﴿قُلْ مَنْ يَنْجِيكُمْ مِنْ ظِلْمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ .. تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ؟﴾^(٣)
- ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾^(٤)
- ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ .. أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(٥)
- ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(٦)
- ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا .. إِن رَحْمَةُ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٧)
- ﴿أَمِنْ مَنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ، وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾^(٨)
- والرسول ﷺ فى أحاديثه العديدة ؛ يحثنا على التضرع إلى الله بالدعاء فى كل أمر ، من حاجة ، أو مرض ، أو كرب .. حتى روى عنه أنه قال : (إن الله يحب أن يسأله عبده كل شيء .. حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع)^(٩) - وهذه بعض أحاديثه الشريفة :

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٦ .

(٣) سورة الانعام الآية ٦٣ .

(٤) سورة السجدة الآية ١٦ .

(٥) سورة الاسراء الآية ١١٠ .

(٦) سورة الاعراف الآية ٢٩ .

(٧) سورة الاعراف الآية ٥٦ .

(٨) سورة النمل الآية ٥٦ .

(٩) التشسع : هو الرباط الذى تدخل فيه القدم من سطح النعل .

- (لا يرد القضاء الا الدعاء ، ولا يزيد في العمر الا البر ، وان الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه) ^(١)
 - (الدعاء ينفع مما نزل وما لم ينزل ، وان البلاء ليتول فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة) ^(٢)
 - (ليس شيء أكرم على الله من الدعاء) .
 - (الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السموات والأرض) ^(٣)
 - (من لم يسأل الله يغضب عليه) ^(٤)
 - (لا تعجزوا عن الدعاء فإنه لا يهلك مع الدعاء أحد) ^(٥)
- إذن فالرجل الذي يسأل ربه مئة جنية ليس سخيفاً .. لأن الله يحب أن يسأل عبده كل شيء حتى التافه والبسيط من حاجاته وآماله ، ولأن : (الدعاء هو العبادة) كما جاء في حديث نبوى صحيح ، والله عز وجل يقول : ﴿وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون﴾ .
- وانما السخيف ذلك المتصوّف الذى يرى سَفْهاً وجَهلاً : أن توجهه إلى الله بالدعاء هو مشاركة لله فى إرادته ، وأنه سؤالٌ لما لم يرد الله أن يفعله !!

(١) رواه الترمذى وابن ماجه .

(٢) رواه الحاكم فى المستدرک .

(٣) رواه الحاكم .

(٤) رواه الحاكم .

(٥) رواه الحاكم .

وفى ص/ ١٤١ و ١٤٢ - يعود إلى سخافات المتصوفين فيقول عنهم ما يقولونه عن أنفسهم : من أنهم أهل الحضرة ، وان علمهم لدنّي ، أى من لدن الله ، وليس علماً نقلياً من الكتب ، كما يفعل الفقهاء الذين يأخذون علمهم عن الموتى فيقولون حدثنا فلان عن فلان عن فلان - ويصفون أنفسهم ، أى المتصوفة بأنهم يأخذون أنفسهم بالرياضيات الروحية العنيفة كالصيام والعبادة المتصلة إلى درجة إفناء الذات فى الله .. وسيلتهم إلى الله اسماؤه الحسنى ، ومحبة القصوى لا شاغل لهم الا ذكره ، وهؤلاء كما يقول الدكتور مصطفى محمود ، هم أهل السر والقرب .. هم الأولياء الصالحون حقاً ! .

ونحن نقول : إنهم هم السخفاء حقاً .. لأنهم يزعمون لأنفسهم انهم انبياء يتلقون علمهم اللدنى من الله مباشرة وانهم لا يحتاجون إلى القرآن وأحاديث الرسول ﷺ .. اللذين فيهما علم العقيدة وعلم الشريعة - الا انهم هم الجهلاء والسفهاء .. ولكن لا يشعرون !

الانسان يتعلم أم يتذكر؟

وفى ص/ ٩٩ - يذكر الدكتور مصطفى محمود نظرية نفسية تزعم أن المعارف كلها تكون مخبئة مكنوزة داخل نفس الانسان ولكن تحجبها عنه غرائزه وشهوته ولهذا فالتعلم هو فى حقيقته تذكرنا بارتفاع حجب النفس وشغوفها . ولا يكون تعلماً من عدم ، فالطفل لا يتعلم أن $2 + 2 = 4$ ، وإنما هو فقط يتذكر حقيقة باطنة

في روحه ولد بها .

وهذه النظرية : كلام فارغ ، وما أكثر ما يساق إلى الناس المغفلين من تحريفات وجهالات يزعم اصحابها أو الناقلون عنهم : أنها نظريات علمية لا تقبل السؤال ولا الجدل ، ولا النقد ولا التخطئة !

لوقيل : إن بعض العلماء والمفكرين يتصرفون ويسلكون خلافاً لما ينبغى لهم . وإن ذلك نتيجة لحجب شهواتهم وغرائزهم لمعارفهم وما ينادون به من مبادئ ومثل أخلاقية .. لقلنا : هذا صحيح لأن الغرائز والشهوات الحيوانية في النفوس البشرية تحجب فطرتها السليمة عن الظهور ، فيكون الجهل ، ويكون الخطأ ..

أما أن كل الأطفال - بإطلاق - يولدون علماء بكل شيء ، وأن شهواتهم وغرائزهم تحجب هذا العلم الكامل - المحبوه في نفوسهم .. حتى يتذكرون ، وأن تعليمهم في المدارس والمعاهد والجامعات إنما هو تذكير وليس تعليمًا لأشياء جديدة على الحقيقة - فهو هراء وتخريف ، لأن (الواقع) المادى والنفسى يكذب هذه (الخرافة) المسماة نظرية نفسية !! .

وصدق الله العظيم فيما يقول : ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم - لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة .. قليلاً ما تشكرون﴾^(١)

والآيات القرآنية التي تذكر تمييز الله بين الناس وخاصة الأنبياء

(١) سورة النحل الآية ٧٨ .

(بالعلم) وتفضيله للعلماء كثيرة جداً .. وحسبنا هذه الآية التي يوجه الله فيها نبيه محمداً ﷺ بقوله : ﴿وقل ربي زدني علماً﴾^(١) والآية الأخرى التي يمين الله عليه فيها : ﴿وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك كبيراً﴾^(٢)

اصحاب الأديان السابقة ؟

وفي ص/١٤٥ - يذكر الآية : ﴿إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ - ويعلق بقوله : «إن القرآن يقرر في وضوح لا لبس فيه ان جميع أهل الكتاب من يهود ونصارى قبل البعثة المحمدية .. على هدى .. وأن لهم أجرهم يوم القيامة ، وأكثر من ذلك يقرر أنه حتى الذين عبدوا الشمس على أنها رمز وآية من آيات الله وهم الصابئون امثال اخناتون هم أيضاً على هدى ، ولهم أجر ومغفرة» . وهذا كلام غريب ، ورأى عجيب ، فالقرآن لم يقل هذا الذي فهمه الدكتور مصطفى محمود ، والعقل أيضاً لا يقبله . ان القرآن - على عكس ما يقول المؤلف - يقرر ويكرر في عديد من آياته : أن أهل الكتاب من يهود ونصارى قد حرفوا التوراة والانجيل ، وزعمت يهود أن عزيزاً ابن الله ، وزعمت النصارى أن المسيح ابن الله وان الله ثالث ثلاثة .. وقال القرآن عنهم بلفظ صريح : ﴿لقد

(١) سورة طه الآية ١١٤ .

(٢) سورة النساء الآية ١١٣ .

كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ﴿١﴾ وقال مرة أخرى :
﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ . ولعن القرآن اليهود في
كثير من آياته لكفرهم ، وتحريفهم لأحكام التوراة ، وقتلهم
الأنبياء ، واكلهم أموال الناس بالباطل .

إن ما حكاه القرآن عن اليهود والنصارى : واضح صريح ،
وليس من قسم المتشابه أو مما يحتمل التأويل ، ولذلك فكلام
الدكتور مصطفى محمود عنهم بأنهم على هدى ، وأن لهم أجراً
ومغفرة يوم القيامة لا يعنى الا الذين لم يحرفوا التوراة والانجيل ، ولم
يعصوا موسى وعيسى ، ولم يتخذوا المسيح رباً ، ولم يزعموا ان الله
ثالث ثلاثة .. وماتوا على عقيدة التوحيد التى جاء بها موسى
وعيسى - عليهما السلام - صافية نقية ، قبل أن يدركوا محمداً ﷺ
والا لوجب عليهم الايمان به واتباع شريعته ..

وهذا ما تعنيه الآية التى أوردها المؤلف وحملها ما لم تحمل من
معانى ، بل حملها معانى تناقض القرآن ، وتناقض الحقائق التاريخية
أيضاً .

والصابئون المذكورون فى الآية ... ليسوا من عبدوا الشمس ،
فهؤلاء مشركون لا ريب فى شركهم وكفرهم - وانما الصابئون فى
الآية هم الذين صباؤا - أى مالوا عن عبادة الأوثان - على اختلاف
مسمياتها واشخاصها ، إلى عبادة الله وحده . والآية نفسها تؤكد
هذا المعنى بعبارة صريحة والفاظ واضحة ، إذ تصف اليهود
والنصارى والصابئين الذين لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم
ولا هم يحزنون ، بأنهم : ﴿من آمن بالله واليوم الآخر وعمل

صالحاً .. ولا يكون إيماناً بالله واليوم الآخر وعملٌ صالح .. مع
الشرك والوثنية المتمثلين في اتخاذ المسيح إلهاً وفي عبادة الشمس أو
القمر أو النار ، وفي تحريف التوراة والانجيل ، وقتل الأنبياء
واتهامهم بالزنا ، وأكل الربا .. الخ .



حياة الرسول حقيقة أم مجاز ؟

وفي ص/ ١٩٧ - تحت عنوان (البعث) يتحدث المؤلف عن
الآية : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ فيرى أن الموت وصف حاضر
للرسول ﷺ .. أى أنه ميت في حقيقته ، وإنما حى بالله يسمع
به ، ويصبر به ، وينطق به .. وربما تأثر المؤلف في هذا المفهوم بما
قرأه من سخافات المتصوفة وخرافاتهم وتفسيرهم الباطنى للقرآن .
إن المؤلف يريد أن يقول : إن حياة الرسول ﷺ مجازية ، وإن
الموت حقيقة .. لأنه اعتبر الآية وصف للحال وليس للاستقبال ،
مع أن العبارة القرآنية وسياقها وختامها كل ذلك صريح في أن
المقصود بها المستقبل : أى أن الرسول وجميع الناس سيموتون ،
كما هو الواقع فعلاً منذ خلق الدنيا إلى يوم القيامة ، وهو ما يؤكد
عز وجل في آية أخرى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ .. أَلَمْ
يَمُتْ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ ؟ .

ونقول إن سياق العبارة القرآنية وختامها يؤكدان أن المراد
بالموت هو المستقبل .. لأن تتمتها هى : ﴿.. ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
تَبْعُونَ﴾ ومن المعروف في علوم اللغة العربية وبلاغتها : التعبير

بالحال عن الاستقبال ، وبالماضى أيضاً كقوله : ﴿أنى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ وبالحال عن الماضى كقوله : ﴿يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم﴾ وهو كثير فى القرآن الكريم .

حقيقة الوجود الإنسانى :

وفى ص/ ١٣٦ - يستمر المؤلف فى تصوراتهِ فيقول : (لا إله إلا الله) أى لا موجود بحق إلا الله أنا وأنت وهو وهم كلنا : مجرد صور تبرز وتختفى على شاشة الوجود !
والصحيح : أن يقول المؤلف : لا معبود بحق إلا الله أما نى وجود غير الله من مخلوقاته من إنسان وحيوان ونبات وجهاد ، وشمس وقمر وكواكب وجبال وبحار ، وسماوات وأرضين - فليس صحيحاً ولا واقعاً ، ولا هو من مطالب الإيمان بوحدة الله وقدرته . بل إن الإيمان بوجود هذه المخلوقات - وفى مقدمتها الانسان هو - الوسيلة إلى الإيمان بالله الخالق القادر الحكيم العليم .. فالخلق هو دليل الخالق وتعدد أنواعه واختلاف مجالاته هى آيات قدرته ، وعلامات حكمته :

وفى كل شىء له آية * تدل على أنه الواحد ^(١)
والقرآن الكريم يذكر هذه المخلوقات ، ويذكر بها عن الخالق ، ويدل عليه ، ويمن بها على الناس انتفاعاً واستمتاعاً .. وعندما يريد القرآن أن يقرر أن الله الخالق القادر العليم الحكيم هو الباقي والدائم لا يقول : إنه لا موجود بحق إلا الله ، وإنما يأتى بتعبير معقول فيقول :

(١) هذا بيت من قصيدة لأحد الشعراء لا أذكر اسمه الآن ..

□ ﴿كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾^(٢)

□ ﴿لا إله الا هو .. كل شيء هالك الا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون﴾^(٣)

إنه لا ينفي وجود الموجودات ولكنه يقرر فناءها .. لأن في هذا الفناء المتتابع البقاء المتتابع أيضاً : ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾^(٤)

الحروف التي تبدأ بها السور

وفي ص/ ٢٥٤ - يتحدث المؤلف عن الحروف التي جاءت من أوائل السور القرآنية أمثال : ألم - طس - حم ويذكر الآراء المختلفة حول تفسيرها ، ثم يعقب قائلاً : (يقول لنا الله إنه خلق منها ومن مثلها القرآن) .

ويبدو أن المؤلف لم يدرس أو لم يطلع على ما قيل حول (خلق القرآن) وهي الفرية الكبرى التي ردَّ عليها كبار العلماء وانتهوا إلى ضرورة القول بل الاعتقاد بأن القرآن : كلام الله منزل غير مخلوق ! ولو لا خشية الإطالة لفصلنا القول في هذه القضية تفصيلاً .



نكتفي بهذا المقدار من حوارنا وتعقيباتنا على الدكتور مصطفى

(٢) سورة الرحمن الآيات ٢٧ و ٢٨ .

(٣) سورة القصص الآية ٨٨ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢٥١ .

محمود في بعض مفهوماته وتفسيراته للقرآن الكريم ، ونكرر أن في الكتاب وجهات نظر للمؤلف تحمد له ، ويشكر عليها . ولسنا مع الدكتورة بنت الشاطيء في حملتها العنيفة على الكتاب وعلى مؤلفه .. فهو أي الدكتور مصطفى محمود - كغيره ممن تعرض لفهم القرآن قديماً وحديثاً .. أخطأؤه لا تبرر منعه وردعه ، فقد أخطأ قبله كثيرون وسوف يخطيء آخرون .

والمؤلف لم يقل : إنه مُفسِّر للقرآن ، وإنما سميَّ كتابه : (.. محاولة لفهم عصري) وعلينا أن نحاوره ونناقش أفكاره ، ونقبل السليم منها ، ونرد الخواطيء من وجهات نظره بأسلوب مقنع ، ودليل راجح .

ولسنا مع الدكتورة بنت الشاطيء أيضاً في احتكار دراسة القرآن وفهمه لطائفة خاصة ، وحظر ذلك على غيرهم ، فإن القرآن صريح في أن الله يسره للقراءة والدراسة ، ودعا الناس جميعاً إلى تأمله والتفكير فيه ، والانتفاع بمواعظه وعلومه وآدابه : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ، فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾^(١) على أنه يجب - كما اسلفنا - تنبيه الخاطئين وتوجيههم إلى ما ينبغي من استعدادات ومؤهلات لفهم القرآن وتفسيره ، لا أن نقول لهم : لا حق لكم في ذلك إطلاقاً . فباب الاسلام مفتوح ، وصدر القرآن رحب .. يستقبلان العالم لتكريمه ، والخطاىء لتقويمه ، والجاهل لتعليمه .. وللدكتور مصطفى محمود - كما أشرنا آنفاً - لفتات ، وآراء ووجهات نظر سليمة ورائعة ، ومن حقه أن نرضى عنها ، كما أن من

(١) في كتابنا : (مأدبة الله في الأرض) فصل لشرح هذه المسألة ص ١٥ - ٣٦ .

وأجبنا أن ننبه إلى ما أخطأ فيه ، أو خالف به الأصول .. وتجاوز به الحدود .

وفى ختام حوارنا للدكتور مصطفى محمود نضيف بعض الملاحظات العامة السريعة إلى ما اسلفناه فى فاتحة التعقيب :

□ يجمع المؤلف بين آيات مختلفات المعنى والسياق ، ويستشهد بها على موضوع أو قضية لا تصلح لها ، ولا تدل عليها .

□ يصف الله عز وجل بما لم يصف به نفسه ولا وصفه به رسول الله ﷺ كقوله : المعمارى العظيم ، المهندس الأعظم للكون ، سائق القطار الذى تفوق قدرته ومهارته جميع السائقين .

□ ويقول عن القرآن وبعض آياته وصوره : المعمار القرآنى ، سيمفونية الفاتحة ، الموسيقى القرآنية ..

□ يفسر بعض الآيات بالإسرائيليات ، وينقل عن التوراة والانجيل مع أن القرآن يتهم اليهود والنصارى بتحريفهم كتبهم ، فهم ليست معتمدة فى الاستدلال بها . ثم كيف يكون فهمه عصبياً إذا كان يعتمد فيه على الأقدم .. كما اعتمد أيضاً على شطحات المتصوفة ، وسخافاتهم وخرافاتهم ..

□ يقول عن الرسول (ﷺ) : إنه بدوى راعى غنم من أجناس البادية .

□ يتناقض فى أقواله وآرائه كثيراً .. فهو حين ينكر على البهائية تفسيرهم غنم موسى بشعبه ، يفسر هو نعلى موسى بنفسه وجسده ...

وحين يقول : إن كل ما جاء عن الجنة والنار والعرش وحملته

ما هو الا ضرب مثال وتقريب - يقول في مكان آخر : إن القطع في أمر غيبي أكبر خطأ يتورط فيه قارئ القرآن .. فضلاً عن أنه ليس في مقدورنا !!

وبعد فلكى يحسن الدكتور مصطفى محمود فهم القرآن عصرياً .. لا بد له من حفظ القرآن ، ومراجعة تفاسيره القديمة والحديثة ، المتفقة والمتعارضة .. ولا بد له من فهم أسباب النزول ومعرفة مجازات القرآن وحقائقه ، وناسخه ومنسوخه . وباختصار : عليه أن يدرس «علوم القرآن» التي ألف فيها كبار العلماء قديماً وحديثاً . وبعد ذلك كله من حقه أن يفهم القرآن فهماً عصرياً على ضوء ما تكشف عنه العلم الحديث من معجزات جديدة للقرآن بل للإسلام كله .. لأنه الدين الخالد الذي لا تزده الأيام وتعاقبها ، وتطورات الحياة والناس الا ثباتاً وقوة وثقة بأنه الحق المين .^(١)

(١) كتب هذا النقد للطبعة الأولى من الكتاب سنة ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م واطلع عليه الدكتور مصطفى محمود في زيارة خاصة للناقد بمكة المكرمة . وفي سنة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م اهدى الدكتور للناقد نسخة من الكتاب في طبعته الخامسة وقال في كلمة الاهداء على الغلاف الداخلى للكتاب :

« (إلى الأخ العزيز أحمد محمد جمال - هذه طبعة أخيرة من كتابي .. وفيها اضافات كثيرة ، وتعديلات توضح الأمور التي يدور حولها كلامك ونقدك .. ولا شك اننا سوف نلتقي في هذه الطبعة ونتفق على الكثير - أخوك المحب : مصطفى محمود) .

نقد كتاب : (درة التنزيل وغرة التأويل)

هذا كتاب قيم ونفيس ، وضعه محمد بن عبدالله المعروف بالخطيب الاسكافي من أهل اصبهان ، وقد برع في اللغة والأدب . وفي خطبة الكتاب أو مقدمته : أن المؤلف اهتم «بالنظر والروية في الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة والمختلفة ، وحروفها المتشابهة المنغلقة والمنحرفة تطلباً لعلامات ترفع لبس إشكالاتها ، وتخص الكلمة بآيتها دون أشكالاتها ... حتى صار المهيم المتشابه وتكرار المتكرر تبياناً ، ولطعن الجاحدين ردّاً ، ولمسلك الملحدّين سدّاً ..» الخ^(١)

وأكثر الكتاب توضيحات وتعليلات لغوية وبلاغية ، واقله تفسير وبيان لمعاني الآيات القرآنية .

وما يحمّد للخطيب الإسكافي أنه تأدّب في عباراته حين يذكر الآيات المتشابهات والألفاظ المتكررات ، ويحاول تعليل المتشابه أو تبرير المتكرر ، فهو يقول : «للسائل أن يسأل عن الفرق بين كذا وكذا ؟ ، أو للسائل أن يسأل : لماذا تكرر هذا المعنى هنا وهناك - أو للسائل أن يسأل عن اختلاف فاصلة الآية هنا عنها في الآيات الأخرى ولا يقول : ان في هذه الآية إشكالاتاً ، أو إضطراباً ، أو

(١) ص ٨ من الكتاب ..

تناقضاً مع غيرها ، كما فعل غيره من المؤلفين»^(١) .
والكتاب في جملته - كما اسلفنا - قيم ونفيس ومفيد لقارىء
القرآن ، وطالب المعرفة والبيان لبعض آياته المتشابهات لفظاً أو
معنى ، وحكمة هذا التشابه ، ومغزى هذا التكرار .

وقد بدت لنا ملاحظات يسيرة على تعليقات الخطيب
الإسكافي وتوضيحاته فيما سماه «درة التنزيل وغرة التأويل» نذكرها
فيما يلي :

□ في ص/١٦ و ١٧ حاول أن يعلل للفرق بين الآية ﴿وقولوا حطة
نغفر لكم خطاياكم﴾ وسنزيد المحسنين ﴿والآية : ﴿وادخلوا الباب
سجداً نغفر لكم خطيئاتكم﴾ سنزيد المحسنين﴾ حيث أدخلت واو
العطف على «سنزيد» في الأولى ولم تدخل في الثانية .

وقال الخطيب كلاماً كثيراً عن اختلاف النحاة البصريين
والكوفيين ، هل يكون المفعول مفرداً أو جملة ؟ وهل يصح أن
تكون الجملة فاعلاً أم لا تكون ؟

وفي نظري أن ذلك التعليل الطويل لا حاجة إليه ، ويمكن أن
يقال : إن الجملة «وسنزيد المحسنين» في الآية الأولى معطوفة على ،
«نغفر لكم خطاياكم» وهي في الآية الثانية حال .. أى زائدين
المحسنين أجراً على أجر ، ومثوبة على مثوبة .

□ وفي ص/٢٣ حاول أن يعلل لورود «معدودة» و «معدودات»
في قوله عز وجل ﴿وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ وقوله :

(٢) في الجزئين ١ و ٢ من كتاب (القرآن كتاب أحكت آياته) تفصيلات شافية لهذا
الموضوع ، وتعقيب على من خالف أسلوب الإسكافي ..

﴿... الا أياماً معدودات﴾ بأن الأصل ما كان مفردة مذكراً كيوم لا يجمع وصفه فيقال : كوز مكسور وكيزان مكسورة ، ولا يقال : مكسورات . وعلى ذلك جاء قوله تعالى : ﴿فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة﴾ ، فإما أن يكون المراد : في ساعات أيام معدودات ، فحذفت الساعات وأقيم المضاف إليها مقامها ، وإما أن يكون الحق بما في واحدة تاء التأنيث .

قلت : إن قواعد النحو ، ومذاهب النحاة إنما وضعت أو عرفت بعد القرآن وهو أصل لها ، فكيف تقاس ألفاظه وجملته وإعرابه بهذه القواعد والمذاهب ؟ وقد يكون الصواب : ان نقول إن ما كان مفرداً غير عاقل يجوز جمعه وجمع وصفه مؤنثاً .. كاليوم ، والكوز ، والسرير .

□ وفي ص/ ٦٥ و ٦٦ - قال كلاماً كثيراً عن قوله عز وجل في سورة آل عمران : ﴿إني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه ، فيكون طيراً بإذن الله﴾ وقوله أيضاً في سورة المائدة : ﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني﴾ ثم سأل : لماذا قال في الأولى : «فأنفخ فيه والثانية فأنفخ فيها» ؟

وكل ما قاله المؤلف من تعليل في التفريق لا طائل تحته ، ويمكن أن يقال : إن الضمير في الأولى أعيد إلى الطير وفي الثانية أعيد إلى الهيئة ، وكلا التعبيرين فصيح ومثله كثير في تعبيرات القرآن إذا تكررت المعاني كقوله : ﴿انزل عليك الكتاب - وانزل إليك الكتاب﴾ وقوله : ﴿قولوا آمنا بما أنزل إلينا ، وقوله آمنا بما أنزل

علينا» الخ .

وكذلك أبعد المؤلف - ص/٢٦٨ - في تفرقه بين قوله ﴿نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهِ﴾ وقوله : ﴿نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهَا﴾ مع أن الضمير في الأولى عائد على جنس الأنعام أو نوعها وفي الثانية عائد على اللفظ .

□ وفي ص ٧٢ - أطال في بيان الفرق بين هاتين الجملتين ﴿وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم﴾ ﴿وما النصر الا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم﴾ . الأولى من سورة آل عمران والثانية من سورة الأنفال ، وكان فيما قاله تعسف وتكلف لا داعي إليهما ، ولا نعتقد أن قارئ القرآن أو سامعه يقف متسائلاً عن الفرق بين ختام كل آية منهما بزيادة «إن» في الثانية .

وكل ما في الأمر : إن الله وصف بالعزة والحكمة في الآية الأولى مباشرة وفي الثانية أكد الوصف «بأن» .

□ وفعل المؤلف مثل فعلته هذه وتلك في تكلف التعليل .. في كثير من الآيات : ﴿جاءتهم رسلهم بالبينات والزبر وبالكتاب المنير﴾ في سورة فاطر ، وقوله في سورة آل عمران . ﴿فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير﴾ . فقد تحدث طويلاً عن زيادة «الباء» في الأولى وحذفها في الثانية بما لا طائل وراءه ولا مقنع فيه .

□ وفي ص ١٠٠ - أورد الإسكافي في الآيات الثلاث من سورة المائدة التي يقول الله عز وجل فيها : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون - ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم

الظالمون - ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴿١﴾
وقال : إن المراد بالكافرين والظالمين اليهود ، والمراد بالفاسقين
النصارى . وإن القول بأن الحكم بغير ما أنزل الله كفر هو مذهب
الخوارج إذ يذهبون «بمن» إلى المجازاة في جواب الشرط .

قلت : سبق أن رددنا على مثل هذا الزعم في تخصيص الكفر
والظلم والفسق باليهود والنصارى دون غيرهم . مع أن الحكم عام
ولا مخصص له ، رددنا على ذلك مفصلاً فيما ذهب إليه الشيخ
أحمد حسن الباقورى من القول بالمقالة ذاتها . وقلنا : إن المسلمين
أيضاً إذا حكموا بغير ما أنزل الله فهم كافرون أو ظالمون أو فاسقون
على مراتب يعلو بعضها فوق بعض من الفسق إلى الظلم ثم إلى
الكفر . فإذا كان الحكم بغير ما أنزل الله جحوداً وإنكاراً لعداليّة
شرعة الله ، وتفضيلاً لغيرها عليها فهو كفر صراح ^(١)

وإذا كان ذلك ميلاً وهوى من غير جحود أو تفضيل ، فهو
ظلم ، وإذا كان ذلك عجزاً أو جهلاً فهو فسوق ..

وأشرنا إلى آيات قرآنية أخرى تؤيد مذهبنا في ذلك منها :

□ ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة
من الخاسرين﴾

□ ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا
يحدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾

□ ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم
يوقنون﴾

(١) يراجع ردنا على الشيخ الباقورى في هذا الجزء ص :

والعبرة - في هذه الآيات الثلاث وفي الآيات الثلاث السابقة -
بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو معروف ومعلوم من أصول
التفسير .



□ وفي ص/ ١١٠ أورد الاسكافي هذه الآية :

﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن﴾ وهذه الآية : ﴿أو لم
يروا كم أنبتنا من كل زوج كرم﴾ وتحدث طويلاً عن دخول واو
العطف في الآية الثانية دون الأولى بعد الألف .. وان ذلك
للتبكيث .. ومثلها قوله : ﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات﴾
وقوله : ﴿أو لم يروا ما خلق الله من شيء يتفياً ظلاله عن اليمين
والشمائل سجدا لله وهم داحرون﴾ .

ثم بعد تعليقات مملة خاف أن يعترض عليه معترض بآية مماثلة لم
تذكر فيها واو العطف هي قوله تعالى : ﴿ألم يروا إلى الطير
مسخرات في جو السماء﴾ .

مع أن موضوعها أو مضمونها من القسم المشاهد المنظور
كالآيات السابقة تماماً .. ولم يأت بجواب شاف على الاعتراض
الذي أورده هو نفسه .

قلت : كان يكفي أن يقال : يجوز الاستخبار والاستنكار بـ
«ألم» و«أولم» على سواء ، ولا حاجة إلى إيراد هذه العلييات المفتعلة
والمبررات المتكلفة ، خاصة وقد جاء القرآن نفسه بالأسلوبين في
قضية واحدة تكرر الاستنكار فيها بالألفاظ نفسها مع اختلاف قليل
في الأولى : ﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات؟﴾ وفي الثانية :

﴿ألم يروا إلى الطير مسخراتٍ في جو السماء﴾ وكلتاها سواء في المعنى .



□ وفي ص/ ١١١ - أورد الخطيب الاسكافي قوله عز وجل : ﴿قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ ؟ وقوله تبار وتعالى : ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الجرمين﴾ وعلى طريقته في التعليل ، وبأسلوبه في التكلف والاعتساف تحدث عن «ثم» والفرق بينها وبين «الفاء» . قلت : إن الآيتين متشابهتان تماماً في الأمر بالسير في الأرض ، والأمر بالنظر إلى عاقبة المكذبين في الأولى والجرمين في الثانية ، وإن كانت كل آية قد جاءت في سياق خاص ، واقتضى المقام استبدال كلمة الجرمين بالمكذبين .



□ وفي ص/ ١٢١ و ١٢٢ - أورد الإسكافي آية الانعام : ﴿وذُر الذين اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْوَ﴾ وآية الأعراف : ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوَ وَلَعِباً﴾ . وآية العنكبوت : ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ . وآية الحديد : ﴿إِذْ عَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ .

ثم جعل كعادته يعتسف ويتكلف التعليل للتفريق بين موضع وموضع حيث قدم اللهو تارةً وقدم اللعب أخرى .

قلت : إنه لا غناء فيما حاول به المؤلف أن يفرّق بين اللهو واللعب تقديماً وتأخيراً ، وفي نظرنا إن ذلك جائز وأن أحدهما يحل

محل الآخر بدليل آية الأنبياء : ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين﴾ ، لو أردنا أن نتخذ هوأً لاتخذناه من لدنا إِنْ كُنَّا فاعلين﴾ .

فقد ذكر أولاً اللعب في «لاعبين» وعندما أراد نفيه عبر عنه باللهو .

وما ذكره الإسكافي من قول بعض المفسرين ان «اللهو» هنا بمعنى المرأة في لغة أهل اليمن لا صحة له ولا حجة فيه إذ لا دخل لذكر المرأة في هذه الآية لا سباقاً ولا لحاقاً .

□ وفي ص - ١٥٧ و ١٥٨ - أورد آية الأعراف : ﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ .. وآية هود : ﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ وآيات أخرى من الأعراف وهود عن قوم عاد وثمود .. وتساءل : لماذا قال مرة (دارهم) وقال أخرى (ديارهم) ؟ ثم ذهب يعلل للفرق بين توحيد الدار وجمع الديار ..

قلت : إن القصة واحدة بالنسبة لكل من قوم عاد وقوم ثمود ، وكل ما في الأمر أن القرآن عبّر مرة بالدار وأخرى بالديار ، والمعنى واحد . وإن كان لا بد من تعليل فهو أن يقال : إن التعبير بالدار قصد به كل جماعة أو طائفة أو قبيلة أو أهل حيّ كانوا جاثمين في مكانهم الخاص بهم . والتعبير بالديار قصد به جميع القوم حيث كانوا ..

□ وفي ص - ٢٦٤ - ذكر قوله تعالى : ﴿ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون .. ليكفروا بما آتيناهم ، فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ من سورة النحل - وأورد قوله عز وجل : ﴿ثم إذا اذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ من سورة الروم - ثم ذكر قوله سبحانه ﴿فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ، ليكفروا بما آتيناهم ، وليتمتعوا فسوف يعلمون﴾ من سورة العنكبوت .

ثم تساءل : ما بال الآية في العنكبوت وحدها خصت بقوله : (وليتمتعوا) وجاءت الآيتان الأخريان بلفظ الأمر على معنى التهديد وهو (فتمتعوا) ؟ .

وأجاب : إن الآية الأولى افتتحت بخطاب الشاهد فاجرى قوله (فتمتعوا) على هذا اللفظ . والآية الأخيرة افتتحت بالإخبار عن الغائب وهو : ﴿فاذا ركبوا في الفلك ..﴾ .

وهذا في رأينا تعليل سقيم .. لأن الآية المتوسطة افتتحت بالإخبار عن الغائب ومع ذلك جاء قوله : (فتمتعوا) للشاهد ، واذن فلا علاقة لافتتاح الآيات بما اختتمت به .

وإنما ذلك اسلوب معروف من أساليب اللغة العربية ، وهو الالتفات بالكلام من الغائب إلى الحاضر ، ومن الحاضر إلى الغائب .. ومنه قوله تبارك وتعالى : ﴿حتى إذا كنتم في الفلك .. وجرين بهم﴾ فقد افتتحت الآية بخطاب الشاهد ثم انصرفت إلى الغائب : «وجرين بهم» إلى آخر الآية وهو عكس قوله : ﴿ليكفروا بما آتيناهم .. فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ فهو التفتت من الغائب إلى

الشاهد : (فتمتعوا ..) .



□ وفي ص - ٢٦٥ - أورد الخطيب الإسكافي آية النحل : ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ..﴾ ثم آية فاطر : ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ..﴾ وذهب كدأبه يعلل : لماذا قال في الأولى «بظلمهم» وقال في الثانية : «بما كسبوا» ؟ ولماذا ذكر هناك : «ما ترك عليها» وهنا : «ما ترك على ظهرها» ؟ .

قلت : إن التعبير بالظلم تارةً و «ما كسبوا» تارةً أخرى سواء في المعنى ، إلا أنه في الأولى صريح ببيان الكسب وهو يستعمل في الخير والشر ، فجاء هنا دالاً على الشر وهو الظلم ، وجاء في الثانية بمعنى الشر واضحاً لا لبس فيه بقرينة قوله «يؤاخذ» والمؤاخذه لا تكون إلا على السوء من الأفعال .

وكذلك تفريق المؤلف بين قوله : «ما ترك عليها» وقوله : «ما ترك على ظهرها» غير وارد وضعيف لأن كلمة (عليها) و (على ظهرها) معناهما واحد والمقصود : الأرض .



□ وفي ص - ٢٨٢ - أورد الخطيب الإسكافي الآية : ﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ من سورة فصلت .
ثم قال : إن الرد عن الشيء يتضمن معنى الكراهية للمردود .. فلما كان الأول ينقل عن جنته وهو خلاف محبته كان استعمال اللفظ الذي يذل على الكراهية فيه أولى .. والثانية لم يتقدمها ما تقدم

الأول الخ ..

قلت : هذا التفريق بين اللفظين لا غناء فيه . لأن الفعلين استعمالاً في معنى واحد ، والمردود إليه أو المرجوع إليه واحد أيضاً ، وأمل المردود أو المرجوع واحد .. وهو انتظار الخير أو الحسن . كما أن الفعل الثاني (رجع) تقدمه ما تقدم الفعل الأول (رد) خلافاً لما يقول الخطيب الإسكافي .. فما تقدم (رُدِدْتُ) هو الجنة أى بستان الرجل ، وما تقدم (رُجِعْتُ) هو الرحمة بعد الضراء : ﴿وَلْتَن أَذْقَنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِن بَعْدِ ضَرَاءِ مَسْتَه .. لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي ، وَمَا أَظَنَّ السَّاعَةَ قَائِمَةً . وَلْتَن رَجَعْتَ إِلَى رِي ان لِي عِنْدَهُ لِلْحَسَنِ﴾ .. والرحمة والجنة كلتاها : نعمة لكل منهما ، ظناً أنهما خالدتان لهما في الدنيا ، وليس من إيابٍ ولا حسابٍ بعد الموت .. ولتن كان إيابٌ وحسابٌ اقتراضاً منها فسيكون - بزعمهما - الخير أو الحسنى منقلباً لهما أو مصيراً .



□ وفي ص - ٢٩٢ ذكر الآيات التي تتحدث عن بعض قصة موسى عليه السلام ، وهي قوله عز وجل : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هَدَى﴾ من سورة طه ، وقوله في سورة النمل : ﴿.. إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَأَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ ..

ثم عقب المؤلف بقوله : للسائل أن يسأل فيقول : قال الله تعالى : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾ وهل

الاختلاف الا هذا الذى جاء فى سورة فى الإخبار عن قصة واحدة الخ ..

وبعد كلام كثير ؛ قال الخطيب الإسكافى : الجواب أن يقال إن الله تعالى لم يخبر أن موسى خطب باللغة العربية بألفاظ إذا عدل عنها إلى غيرها مما يخالف معناها كان اختلافاً فى القرآن قادحاً فيه .. بل معلوم أن الخطاب كان بغير هذه اللغة ، وأنه تعالى أخبر فى بعض السور ببعض ما جرى ، وفى أخرى بأكثر مما أخبر به فى التى قبلها ، وليس يدفع بعضها بعضاً ، فأما قوله ﴿لَعَلَى آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدَ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ فهو فى معنى قوله تعالى : ﴿سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ ..﴾ لأن الخبر الذى يأتيهم به هو أن يجد على النار ما يهديه أو يخبره أن الطريق هو ما هو عليه أو غيره الخ .. قلت : إن الجواب هنا سليم .. ولكن أخطأ المؤلف فى قوله آنفاً : «وهل الاختلاف الا هذا الذى جاء فى الإخبار عن قصة واحدة الخ» وقوله : «إن الله لم يخبر أن موسى عليه السلام خطب باللغة العربية بألفاظ إذا عدل عنها إلى غيرها مما يخالف معناها .. الخ» .

.. حيث لا اختلاف .. ولا مخالفة للمعنى . وإنما هو اختلاف أو مخالفة بين الألفاظ والجمل . أما المعانى فواحدة كما هو واضح من الآيات .

ونلاحظ أن القرآن فى سورة القصص كرر القصة وجاء بلفظة «جذوة» بدلاً من «قبس» فى قوله تعالى ﴿لَعَلَى آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ .

والخطيب الاسكافى نفسه - فى ص ١٦ و ١٧ من الكتاب قال : إن اللغة التى خوطب بها الأقوام فى قصص القرآن غير العربية ، وما حكاه القرآن من أقوالهم لم يقصد حكاية الألفاظ وإنما قصد المعانى ، ولذلك اختلفت وتعددت العبارات والألفاظ فى بعض قصص القرآن بين سورة وسورة .

قلت : وكذلك ما خوطب به الأنبياء ، وما خاطب الأنبياء به أهلهم وأقوامهم . كل ذلك حكى فيه المعنى دون اللفظ الذى كان - دون ريب - بلغة اولئك الأنبياء والأقوام .
واذن فلا داعى إلى توهم الاختلاف أو المخالفة .. مادام ذلك مجرد ترادف فى الألفاظ والكلمات وحدها .



□ وفى ص - ٣٠٢ و ٣٠٣ أورد الخطيب قوله تعالى : ﴿وَالَّذِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رَوْحِنَا﴾ من سورة الأنبياء - وقوله عز وجل : ﴿وَمَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رَوْحِنَا﴾ وذهب يعلى للتفريق بين التعبيرين (فيه) و (فيها) كما فعل فى ص - ٦٥ و ٦٦ بآية : ﴿فَنَفْخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وآية : ﴿فَنَفْخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ﴾ .

والجواب الحق - فى نظرنا - أنه فى الآية الأولى أضاف حرف الجر إلى الكل «فيها» مجازاً وأراد الجزء الذى هو الفرج وهو طريق الحمل والولادة وفى الثانية أضاف حرف الجر إلى الجزء حقيقة . ولا داعى إلى التعسف والتكلف فى التعليل ، وقد فسرت بعض كتب التفسير بأن النفخ إنما كان فى كم ثوابها لا فى فرجها ..



□ وفى ص - ٣٧٧ - أورد المؤلف قوله تبارك وتعالى : ﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ من سورة الحج ثم قال : أى يقع فى يوم من تنعيم المطيعين وتعذيب العاصين قدر ما يناله المنعم فى ألف سنة من أيام الدنيا ، ويعذب العصاة فى يوم مقدار ما يعذب به الانسان فى ألف سنة لوبقى فيها .. فعذابه فى يوم واحد عذاب ألف سنة . وذلك لما يتضاعف على المنعمين من الملاذ وعلى المعدّين من الآلام . والدليل على أن المراد فى هذه الآية ذلك قوله قبلها : ﴿ويستعجلونك بالعذاب ، ولن يخلف الله وعده . وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ .

قلت : إن الخطيب الاسكافى ذهب بعيداً فى تأويل الآية ، واستدلّاه بالآية السابقة على صحة تأويله أشدّ بعداً ، بل إن الآية التى تقدمت الآية موضوعة التأويل تدل على مراد غير المراد الذى قال به المؤلف .

فالكفار يستعجلون الرسول بالعذاب .. سخريةً وتعجيزاً ، والله يخبر رسوله بأن وعده لا يخلف ، واجل عذابه لا يؤخر ، ولكن جرت سنة الله الا يعجل للناس كفاراً أو عصاة ما يستحقونه من عقوبة كما قال عز وجل فى آيات عديدة منها قوله : ﴿ولو يُعجلُ الله للناس الشر استعجالهم بالخير .. لقضى إليهم أجلهم ..﴾ وقوله : ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ..﴾ . ويخبره أيضاً - فى سورة المعارج - أن ما يراه الكفار والعصاة من الوعد بالعذاب أو البعث بعيداً هو قريب عند الله : ﴿إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً﴾ وذلك أن حساب الوقت أو التوقيت فى الدنيا

وفي مقاييس البشر ليس هو نفسه حسابان الله تبارك وتعالى ، فالليل والنهار ، والشمس والقمر : هي مواقيت للناس في دنياهم ، وليست مواقيت لتقدير الله وتقديره في ملكوته ولا هوته عز وجل . ولذلك فيوم عند الله كألف سنة مما يعدُّ البشر أو يحسب الناس ، ومن هنا يستطيع الكفار والعصاة ما ينذرهم الرسول ﷺ من حساب وعقاب ، وربما يتهمونهم بالكذب في وعيده وإنذاره .. ولكن الله يطمئن رسوله بأن وعده حق ، وإن أجله آت لا ريب فيه ، وإذا جاء أجلهم موتاً أو بعثاً أو عذاباً ، فسوف لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون .

ولا علاقة لتقدير (يوم الله) بألف سنة من أيام الدنيا بمقدار التنعيم للطائعين والتعذيب للعصاة في الآخرة ، والآية السابقة بما ذكرته من الاستعجال بالعذاب تؤكد المعنى المراد من الآية اللاحقة فيما ذكرته من اختلاف التوقيت بين حساب الله وحساب البشر . □ وفي ص - ٤١٩ - أورد المؤلف هاتين الآيتين : ﴿وإما يترغبك من الشيطان نزع فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾ من سورة فصلت ؛ ﴿وإما يترغبك من الشيطان نزع فاستعذ بالله . إنه سميع عليم﴾ من سورة الأعراف .. ثم ذهب يعلل للفرق بين تعريف (السميع العليم) في الأولى وترك التعريف في الثانية ؟ .. فقال ما خلاصته : إن ما سبق آية فصلت يشق على الإنسان فعله .. من مقابلة السيئة بالحسنة ومقابلة غلظة العدو بالملاينة ، ثم قال ﴿وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم﴾ - أما ما سبق آية الأعراف فهو : ﴿خذ العفو ، وأمر بالمعرف ، وأعرض عن

الجاهلين ﴿ ولم يعظم هنا الأفعال التي دعا إليها كما عُظِّمَتْ في الأولى .. ولذلك لم تقع المبالغة في اللفظ ، واقتصر على الأصل وهو (انه سميع عليم) .

قلت : إن ما سبق كلتا الآيتين واحد وواضح في السورتين ، ولا فرق بين ما أمر به في الأولى وبين ما أمر به في الثانية ، وليس الأول أشق من الثاني ، بل كلاهما لا بدَّ فيه من قوة صبر واحتمال للأذى والجهل في سبيل مقابلة الشر بالخير .. والعفو عن المسيء ، والدعوة إلى المعروف ، والاعراض عن الجاهلين .

وإذن .. فالتعليل بهذا الفرق الموهوم أو المزعوم لتعريف «السميع العليم» في آية فصّلت وعدمه في آية الأعراف ، غير وارد . وقد جاء التعقيب بأسماء الله الحسنى في آيات كثيرة .. مرةً بالتعريف «انه هو الغفور الرحيم» ومرة : «انه غفور رحيم» وفي قوله : ﴿انه هو العليم الحكيم﴾ وأخرى ﴿إن الله عليم حكيم﴾ .. وفي قوله : ﴿والله عزيز حكيم﴾ وقوله : ﴿لا إله الا هو العزيز الحكيم﴾ .

ونرى أن التعبيرين جائزان ، لا فرق بينهما من حيث المعنى لأن الموصوف واحد عز وجل .

□ وفي ص - ٤٢٢ - يذكر المؤلف قوله تعالى من سورة الزخرف : ﴿وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا .. وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ والآية الأخرى من سورة الشعراء : ﴿قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون﴾ .. ويفترض سؤالاً من سائل عن سر التأكيد في الآية الأولى باللام في (لمنقلبون) دون الثانية . ثم

يجيب : بأن الآية الأولى خطاب لكل الناس في ذلك العصر ومن يكون بعدهم ، وتذكير بنعم الله ، ووجوب الشكر عليها ... فالتأكيد هنا لازم .. أما آية الشعراء فهي خبر عن السحرة لما آمنوا ، ووصفوا حالهم ، واستهانتهم بما خوفهم به فرعون من العقوبة .. فلم يحتاج الأمر إلى تأكيد الخ .

قلت : إن الأولى خبر عن الفلك وتسخير الله لها ليركبوا عليها ، ويذكروا نعمة الله عليهم بها ، والثانية خبر عن تهديد فرعون للسحرة بعد إيمانهم بموسى عليه السلام .. وفي نظرنا أن موقفهم أشد وأحوج إلى التأكيد لأنهم مهددون بالموت بعد قطع الأيدي والأرجل من خلاف ، وتصليهم في جذوع النخل ؛ ومع ذلك نقول : لا داعي إلى هذا التعليل من الخطيب الإسكافي ، ولا إلى افتراض السؤال قبله . وحسبنا أن نقول : إن التأكيد جائز في كل من الموقفين دون تفريق .



□ وفي ص - ٤٣٣ - يذكر الخطيب الآية ؛ من سورة الزخرف : ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، ما لهم بذلك من علم إن هم الا يخرصون﴾ والآية من سورة الجاثية : ﴿وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا الا الدهر ، وما لهم بذلك من علم إن هم الا يظنون﴾ .

وفترض المؤلف سؤالاً : لماذا جاءت (يخرصون) في الأولى و (يظنون) في الثانية ؟ ثم أجاب : إن الآية الأولى عن الملائكة ، وما زعمه المشركون من أنها بنات الله ، وانه لو شاء الله ما عبدوهم ،

وليس ذلك عن علم بل هم كاذبون فيما يدعونه ، فأبطل خبرهم بالتكذيب ، وهو لائق بموقفهم . أما الموضع الثاني فهو خبر عن الكفار الذين أنكروا البعث وزعموا أنه كلما هدم الدهر قوماً أنشأ آخرين .. وهم لم يقولوا ذلك على علم ، بل قالوه على سبيل الظن - فكان مناسباً أن يقال : ﴿إن هم الا يظنون﴾

قلت : كلا الزعمين إفتراء وكذب وباطل .. وكلا الفريقين لم يقولوا ما قالاه عن معرفة أو علم ، بل عن جهل ووهم ، إلا أن الأول متعلق بالذات الإلهية وإرادتها العليا ، أما الثاني فيتعلق بما يعتقدونه عن البعث والحساب وأنها غير واقعين بعد الموت ، فكان وصفهم بالكذب في الأولى أولى ووصفهم بالظن في الثانية أحق .



□ وفي ص - ٤٣٤ - أورد قوله عز وجل ، من سورة الزخرف : ﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾ والآية التالية من السورة نفسها : ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ .

ثم افترض كدأبه سؤالاً عن (مهتدون - ومقتدون) هل تصلح إحداها مكان الأخرى ؟ واجاب بما خلاصته أن أولئك ادعوا الاهتداء بسلوك آباءهم ، والتمسك بآثارهم . أما الآية الثانية فهي خبر عن الأمم الكافرة بأنبيائها .. وأقصى ما احتجوا به أنهم وجدوا آباءهم على أمة - أى ملة - فاقتدوا بهم ولم يدعوا الاهتداء كما فعل الآخرون الخ .

قلت : ان الموقفين متساويان صورة وموضوعاً .. فهؤلاء الحاضرون في عهد الرسول ﷺ ، والغابرون قبلهم سواء في الاحتجاج بأنهم وجدوا أسلافهم على طريقة دينية فاتبعوا آثارهم ، كما أن رد كل واحد من الفريقين على رسوله واحد ، غير مختلف .. الا أن القرآن أراد أن يخالف بين اللفظين في آيتين متتابعتين ، فقال في الأولى : (مهتدون) وفي الثانية : (مقتدون) . والاهتداء هنا معناه : إتباع الطريق كالإقتداء تماماً ، والمقتدى دائماً مقتنع بأنه على هدى - كما قال تبارك وتعالى : ﴿وكذلك زينا لكل أمة عملهم﴾ .



□ وفي ص - ٤٦٢ - ذكر المؤلف قوله تعالى - من سورة الرحمن : ﴿والسمااء رفعها ووضع الميزان ، الاتطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾ ، وافترض سؤالاً عن تكرار كلمة (الميزان) في الآيات الثلاث ، ولماذا لم يكتف بالضمير في الأخيرين ؟ وذكر أن أهل النظر أجابوا بأن الآيات الثلاث لم تنزل في وقت واحد ، ولو نزلت في وقت واحد لأضمر ذكر الميزان .

وأضاف إجابة أخرى لا تستقيم في نظرنا .. وهي أن الميزان الأول ، يعني الاعتدال في خلق الانسان ، والثاني يعني الحكم بالعدل ، والثالث آلة التعديل .. الخ .

قلت : إن الاعتدال في خلق بنية الانسان لا ذكر له هنا في هذه الآيات ، ولا في ما قبلها ، وفي سورة الانفطار عن تسوية خلق الانسان ما يكفي : ﴿خلقك فسواك فعدلك ، في أى صورة

ما شاء ركبك ﴿١﴾ .

والرأى عندنا في فهم هذه الآيات الثلاث وتكرار (الميزان) فيها ثلاثاً : أن قوله تعالى في الأولى : ﴿والسما رفعها ووضع الميزان﴾ أى أنه تبارك وتعالى شرع مبدأ العدالة وفرضه على أهل الأرض ، ولفظة (وضع) تستخدم لغوياً لمعنى التشريع والتقنين . وقوله عز وجل ثانياً : ﴿الا تطغوا في الميزان﴾ يعنى بالميزان هنا المصدر .. أى الوزن بمعنى الحكم والتقدير ولذلك كانت الآية ناهية عن الطغيان فيه زيادة أو نقصاً ، سواء أكان الحكم أو التقدير تجارة أم قضاء أم كلاماً . كما قال عز وجل في آية أخرى - من سورة النساء - ﴿كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ..﴾ .

أما الميزان في الآية الثالثة فهو كما قال الخطيب : آلة التعديل . ومع ذلك نرى أن التكرار في الألفاظ القرآنية ينبغي ألا يسأل عنه ، لأن التكرار ليس عيباً في الكلام إذا كانت له أسبابه ودواعيه من جهة المعنى أو جهة النظم .. على نحو ما جاء في سورة الرحمن كلها من تكرار الآية : ﴿فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟﴾ وفي سورة الرسائل ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ وفي سورة القمر : ﴿فكيف كان عذابي ونذر ؟﴾ .

كما أن نظام الفواصل في القرآن يقتضى إعادة (الميزان) ولو لم يتغير المراد منها في مواضعها الثلاثة .. بل حتى لو نزلت في وقت واحد ، لا كما يقول الخطيب : إنها نزلت في أوقات متفرقة . وإنه السبب في تكرارها الخ .

□ وفي ص - ٥٠٠ - تصدى المؤلف لتفسير قوله عز وجل : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ ثم افترض سؤالاً من القارىء : فإن قال ما الحكمة فى خلق الانسان على مساوىء الأخلاق ؟ قلت : الحكمة فى خلق شهوة القبيح ليمانع نفسه إذا نازعته نحوه ، ويحارب شيطانه عند تزيينه معصيته . وهذا واضح لمن تدبره فاعرفه تصب إن شاء الله تعالى ! قلت : هذا غير صحيح ، وغير واضح ، فالإنسان لم يخلقه الله على مساوىء الأخلاق - كما يقول المؤلف - والآيات المذكورة من سورة المعارج لا تعنى ذلك .. وقوله عز وجل : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ .. مثل قوله : ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ .. والمعنى أن الانسان طبع على طبائع مختلفة متعددة من استمجال الأمور قبل أوانها ، ومن حب الخير ، والجزع من الشر ، والهلوع عند المصيبة ، وطغيانه عند الغنى كما قال تبارك وتعالى فى سورة (أقرأ) : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ .

وإلى جانب هذه الطبائع السلبية فى تكوين الانسان هناك طبائع إيجابية من العقل والتفكر والتعلم والاستيحاء . فالانسان خلق جامعاً لطبائع الخير والشر .. لا على مساوىء الأخلاق وحدها كما يقول الخطيب الإسكافى ، وأعطى العقل تمييزاً له على الحيوان ليختار بينهما ، وسلط عليه الشيطان - بنص القرآن - امتحاناً له : ايطيع الله أم يطيع الشيطان بعد أن منحه الله العقل ثم أرسل له الرسل ، وأنزل الكتب : ﴿لَنَلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرِّسَالِ﴾ - ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ .

قريب منك مجاور لك .. وأولى : هي من ولي يلى ، إذا قرب منه ،
 والتكرار معناه هلاك في الدنيا ثم هلاك في الآخرة الخ .
 قلت : في بعض التفاسير : إن قوله ﴿أولى لك فأولى﴾ معناه
 ويل لك ثم ويل لك ويبدو لي - والله أعلم بمراده - أن معناه : أجدر
 بك ثم أجدر بك لو آمنت بي ، وصدقت برسلي ، فتنجو من
 عذابي .



□ وفي ص - ٥٣٧ - تعرض لسورة (الناس) وهي المعوذة الثانية
 والسورة الأخيرة من القرآن الكريم ، وافترض سؤالاً من القارئ
 عن تكرار كلمة (الناس) في الآيات ..

وبعد أن فسر كلمات الرب - والملك - والإله تفسيراً صحيحاً
 قال : فصار الناس الذين أضيف إليهم (ملك) غير الناس الذين
 أضيف إليهم (إله) . والذين أضيف إليهم (إله) غير الذين أضيف إليهم
 (رب) وبذلك لا يكون تكرار . فهو رب الأجنة والأطفال - ثم
 ملكهم بالعبودية لما كبروا - ثم أصبح إلههم لما أصبحوا مكلفين ،
 وبذلك سلمت السورة من التكرار بترتيب صفات الله تعالى الخ .
 قلت : هذا افتعال وتكلف .. فالله عز وجل هو رب الناس
 جميعاً أطفالاً ورجالاً ، وإله الناس جميعاً أطفالاً ورجالاً ، وملك
 الناس جميعاً أطفالاً ورجالاً : : وتكرار (الناس) تأكيد وتذكير بأنه
 ليس غير الله للناس رب ولا ملك ولا إله ، وهو أيضاً نفى لإله آخر
 وملك آخر ورب آخر ..

هذا من حيث المعنى ، ومن حيث اللفظ والهيكل والأسلوب :

رائع وجميل وبلغ . ولو خلت السورة من تكرار كلمة الناس
لاختل المعنى ، وقبح الأسلوب .. ولكن كلام الملك - عز وجل -
ملك الكلام .



وبعد : فهذه تأملات وملاحظات سريعة في كتاب (درة التنزيل
وغرة التأويل) للخطيب الإسكافي ... وهو كتاب كما أسلفنا في
المقدمة : قيم ونفيس . وهذه الملاحظات القليلة لا تؤثر على روائعه
الكثيرة .

جزى الله المؤلف خيراً على نظراته في الكتاب الكريم ، وما أفاد
القراء به من شرح وإيضاح .

صدر من هذه السلسلة

الكتاب

المؤلف

- ١ - تأملات في سورة الفاتحة ————— [الدكتور حسن باجودة]
- ٢ - الجهاد في الإسلام مراتبه ومطالبه ————— [الأستاذ أحمد محمد جمال]
- ٣ - الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين ————— [الأستاذ نذير حمدان]
- ١٤ - الإسلام الفاتح ————— [الدكتور حسين مؤنس]
- ٥ - وسائل مقاومة الغزو الفكري ————— [الدكتور حسان محمد حسان]
- ٦ - السيرة النبوية في القرآن الكريم ————— [الدكتور عبد الصبور مرزوق]
- ٧ - التخطيط للدعوة الإسلامية ————— [الدكتور علي محمد جريشة]
- ٨ - صناعة الكتابة وتطورها في العصور الإسلامية ————— [الدكتور أحمد السيد دراج]
- ٩ - النوعية الشاملة في الحج ————— [الأستاذ عبد الله بوقس]
- ١٠ - الفقه الإسلامي آفاقه وتطوره ————— [الدكتور عباس حسن محمد]
- ١١ - لمحات نفسية في القرآن الكريم ————— [د. عبد الحميد محمد الهاشمي]
- ١٢ - السنة في مواجهة الأباطيل ————— [الأستاذ محمد طاهر حكيم]
- ١٣ - مولود على الفطرة ————— [الأستاذ حسين أحمد حسون]
- ١٤ - دور المسجد في الإسلام ————— [الأستاذ علي محمد مختار]
- ١٥ - تاريخ القرآن الكريم ————— [الدكتور محمد سالم محيسن]
- ١٦ - البيئة الإدارية في الجاهلية وصدر الإسلام ————— [الأستاذ محمد محمود فرغلي]
- ١٧ - حقوق المرأة في الإسلام ————— [الدكتور محمد الصادق عفيفي]
- ١٨ - القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته [١] ————— [الأستاذ أحمد محمد جمال]
- ١٩ - القراءات أحكامها ومصادرها ————— [الدكتور شعبان محمد اسماعيل]
- ٢٠ - المعاملات في الشريعة الإسلامية ————— [الدكتور عبد الستار السعيد]
- ٢١ - الزكاة فلسفتها وأحكامها ————— [الدكتور علي محمد العماري]
- ٢٢ - حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم ————— [الدكتور أبو اليزيد العجمي]
- ٢٣ - الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا ————— [الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]
- ٢٤ - الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر ————— [الدكتور عدنان محمد وزان]
- ٢٥ - الإسلام والحركات الهدامة ————— [معالي عبد الحميد حموده]

الكتاب

المؤلف

- ٢٦ - تربية النشء في ظل الإسلام ————— [الدكتور محمد محمود عمارة]
- ٢٧ - مفهوم ومنهج الاقتصاد الإسلامي ————— [الدكتور محمد شوقي الفنجري]
- ٢٨ - وحى الله ————— [الدكتور حسن ضياء الدين عتر]
- ٢٩ - حقوق الإنسان وواجباته في القرآن ————— [حسن أحمد عبد الرحمن عابدين]
- ٣٠ - المنهج الإسلامي في تعليم العلوم الطبيعية ————— [الأستاذ محمد عمر القصار]
- ٣١ - القرآن كتاب أحكمت آياته [٢] ————— [الأستاذ أحمد محمد جمال]
- ٣٢ - الدعوة في الإسلام عقيدة ومنهج ————— [الدكتور السيد رزق الطويل]
- ٣٣ - الاعلام في المجتمع الإسلامي ————— [الأستاذ حامد عبد الواحد]
- ٣٤ - الالتزام الديني منهج وسط ————— [عبد الرحمن حسن حنكة الميداني]
- ٣٥ - التربية النفسية في المنهج الإسلامي ————— [الدكتور حسن الشرفاوى]
- ٣٦ - الإسلام والعلاقات الدولية ————— [الدكتور محمد الصادق عفيق]
- ٣٧ - العسكرية الإسلامية ونهضتنا الحضارية ————— [اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ]
- ٣٨ - معاني الأخوة في الإسلام ومقاصدها ————— [الدكتور محمود محمد بابلي]
- ٣٩ - النهج الحديث في مختصر علوم الحديث ————— [الدكتور علي محمد نصر]
- ٤٠ - من التراث الاقتصادي للمسلمين ————— [الدكتور محمد رفعت العوضى]
- ٤١ - المفاهيم الاقتصادية في الإسلام ————— [د. عبد العليم عبد الرحمن خضر]
- ٤٢ - الأقليات المسلمة في أفريقيا ————— [الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]
- ٤٣ - الأقليات المسلمة في أوروبا ————— [الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]
- ٤٤ - الأقليات المسلمة في الأمريكتين ————— [الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]
- ٤٥ - الطريق إلى النصر ————— [الأستاذ محمد عبد الله فودة]
- ٤٦ - الإسلام دعوة حق ————— [الدكتور السيد رزق الطويل]
- ٤٧ - الإسلام والنظر في آيات الله الكونية ————— [الدكتور محمد عبد الله الشرفاوى]
- ٤٨ - دحض مفتريات ————— [د. البيراوى عبد الوهاب زهران]
- ٤٩ - المجاهدون في فطاني ————— [الأستاذ محمد ضياء شهاب]
- ٥٠ - معجزة خلق الإنسان ————— [د. عبد الرحمن عثمان]

٢٥١٥٦



طبع بمطابع رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة

مؤلفات الكاتب

- محاضرات في الثقافة الاسلامية الطبعة السادسة .
- على مائدة القرآن : دين ودولة الطبعة الثالثة .
- على مائدة القرآن : مع المفسرين والكتاب الطبعة الثانية .
- قضايا معاصرة في محكمة الفكر الاسلامي .
- نحو تربية اسلامية .
- مأساة السياسة العربية .
- نساء وقضايا .
- مكانك محمدى ..
- نحو سياسة عربية صريحة ..
- من أجل الشباب ..
- الشباب دراسات ولقاءات ..
- الجهاد في الاسلام ..
- الاقتصاد الاسلامي .. الخ ..
- القرآن كتاب أحكمت آياته (١) .
- القرآن كتاب أحكمت آياته (٢) .